مذكرات جراهام جرين

تجربتى فى كتابة الرواية

ترجمة : أحمد عمر شاهين



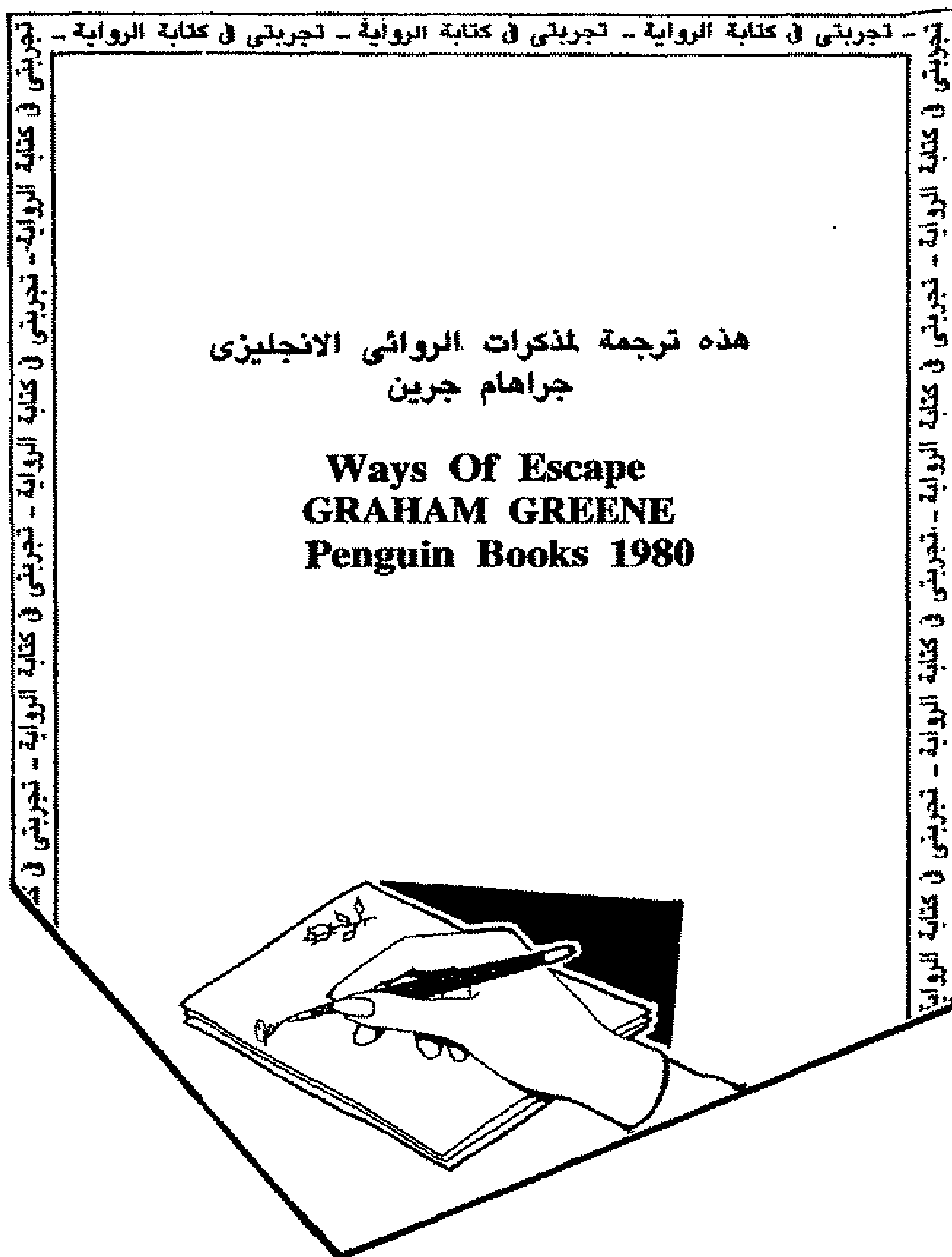
إدارة الكتب والمكتبات

غلاف بريشة : أسامة أحمد نجيب

اخراج ماكيت : أشرف حسين

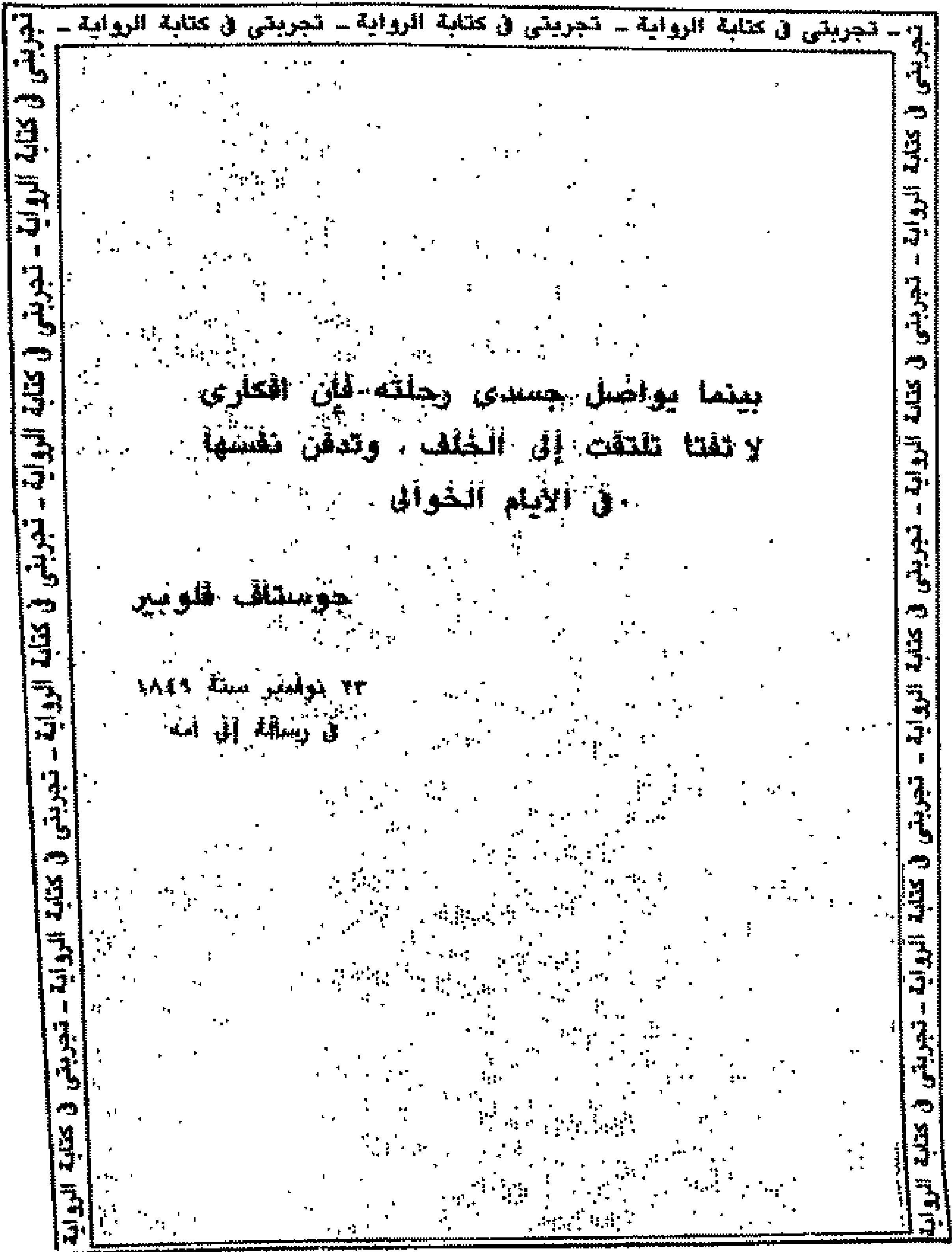
رقم الايداع ١٩٩١/٩٦٥٦

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 08 - 0354 - 5



هذه ترجمة لمذكرات الروائي الانجليزى
جراهام جرين

Ways Of Escape
GRAHAM GREENE
Penguin Books 1980



بينما يواصل جسدي رحلته فإن أفكاري
لا تفتأ تلتفت إلى الخلف ، وتدفن نفسها
في الأيام الخوالي .

جوستاف فلوبير

٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٩
في رسالة إلى أمه

مقدمة

حين كتبت نبذات عن حياتي فى كتاب « نوع من الحياة » ، وقفت عند سن السابعة والعشرين تقريبا . شعرت آنذاك أن السنوات التالية تخص الآخرين أكثر مما تخصنى ، ولم أستطع أن أنتهك حرمتهم ، فلهم الحق فى الاحتفاظ بخصوصيتهم ، وكان من المستحيل أن أتحدث عن حياتى الخاصة دون أن أتحدث عن حيواتهم .

على كل حال ، لقد تذوقت حلاوة التذكر ، وهى حلاوة مُرة فى معظمها . وبدأت سلسلةمن المقدمات لأعمالى الكاملة ، أتحدث فيها حول ظروف كتابة تلك الأعمال وتكونها فى ذهنى ، وحين أسردها هنا فهى تشكل فى النهاية أيضا نوعا من الحياة . أضفت اليها مقالات كنت كتبتها فى مناسبات مختلفة عن لمحات من حياتى ، وعن بعض الأماكن المضطربة فى العالم ، والتى وجدت نفسى فى داخلها بلا مبرر قوى ، وهكذا فانى أرى الآن أن رحلاتى ككتاباتى كانت طرقا للهروب .

وكما كتبت فى مكان آخر فى هذا الكتاب ، فانى أعتبر الكتابة شكلا من العلاج النفسى ، وأتساءل أحيانا كيف يمكن لأولئك الذين لا يبدعون ــ أدبا أو رسما أو موسيقى ــ أن يهربوا من الجنون والكآبة ، والذعر المتأصل والملازم للوضع الانسانى . وقد كتب الشاعر الانجليزى أودن يقول « الإنسان يحتاج إلى الهروب إحتياجه إلى الطعام والنوم العميق » .

وعلى عكس ما يفترض البعض ، من أن الأماكن التى زرتها كانت مصادر لرواياتي ، فنادرا ما حدث ذلك ، فلم أكن أبحث عن مصادر ، ولكنها الظروف التي رمتني هناك ، وربما غريزة الكاتب هي التي دفعتني لشراء تذاكر السفر لأماكن مختلفة . لقد كتبت ما كتبت عن « هايتى » قبل أن أفكر في رواية « الممثلون الهزليون » ، وعن « باراجواى » ، التي ستشكل فصلا في كتابي « رحلات مع عمتى » . ومع ذلك فإن حالة الطوارىء في « الملايو » لم تقدني لكتابة أية رواية وكذلك الحال في ثورة الماو الماو في كينيا .. ولم تلهمني عملية ترحيلى من بورتوريكو على يد السلطات الأمريكية ، أو وجودى في براغ حين سيطر الشيوعيون على السلطة سنة ٤٨ حتى ولا قصة قصيرة .

ولم تحرك زيارتي لبولندا وهي تحت الحكم الستاليني في الخمسينيات ، خيالى الروائي ، وهكذا .. رحلات عديدة .

لقد احتلت السياسة منذ سنة ١٩٣٣ مكانا متزايدا في رواياتي ، ومن المحتمل أن تجربة الماو الماو هيأتني لمواجهة الأمور الاكثر سوءا ، وتوقعى الخطر في الكمائن في الملايو أعطى بعدا إضافيا لمشاعر الخوف التي واجهتها أحيانا في فيتنام .

عن تجربتي في الحرب الفرنسية في فيتنام ، لم أضف إلا القليل من كتاباتي هنا ، فالحرب الامريكية هناك جعلتها تبدو وكأنها حدثت منذ قرن من الزمان ، ولم يعد أحد يهتم بتلك الحرب أو شخصياتها المختفية .

ثم أن تلك الجوانب من حياتي التي يؤثرها كتاب الأعمدة بقيت خارج مجال هذا الكتاب ، أما عن حيوات الآخرين فانى آمل أن استمر في التقيد بما إلتزمت به .



ياله من طريق طويل ، نصف قرن قد مر منذ كتابتى رواية « الرجل الذى بداخلى » . أول رواية أجد لها ناشرا . كنت فى الثانية والعشرين حين بدأتها ، وكنت فى اجازة من جريدة التايمز التى أعمل بها ، بعد عملية جراحية للزائدة الدودية أجلس فى غرفة الاستقبال فى بيت الأسرة فى « بيركها مستيد » ، إلى أحد تلك المكاتب الصغيرة ذات العيون لتصنيف الأوراق ، والأدراج الضيقة ، والتى أعتقد أنها أكثر مناسبة للنساء ، كان سطحه يتسع بالكاد لورقة فولسكاب مسطرة . كنا قد إنتهينا من طعام الإفطار ، ووالدتى مشغولة بمناقشة شؤون منزلية مع خادمة غرفة الاستقبال ، ياله من وقع تحدثه تلك التعبيرات المنزلية لدرجات الخدم الآن . خادمة المطبخ ، خادمة غرفة الخزين ، مربية الأطفال .

ارى نفسي الآن . كشخصية تاريخية ، أكتب الكلمات الأولى فى رواية تاريخية أخرى ، وإذا كنت أبعد عن شخصية تلك الرواية بخمسين سنة ، فقد كانت تلك الشخصية تبعد عن زمانها بضعف هذه المدة ، فقد كانت أحداثها تدور حول المهربين فى الحقب الأولى من القرن التاسع عشر .

لماذا يلتصق بذهني السطر الافتتاحي من تلك الرواية ، بينما نسيت افتتاحيات رواياتي التي كتبتها بعد ذلك ؟ إنه ليس سطرا متميزا ، وله طابع الشعر لا النثر ، فكرت أن أغيره ، لكني وجدت ذلك خيانة لشبابي : « وصل قمة التل مع آخر ضوء فى النهار وكاد يبكى حزنا لمرأى الغابة أسفله » . ويمكنني أن أسمع أمي آنذاك تقول للخادمة « إذا أخذت مس نورا افضل غرفة خالية فعلينا أن نضع السيد ...»

ريما سبب تذكرى للمشهد بهذا الوضوح ، يرجع الى أنه كان الرمية الأخيرة للنرد فى لعبة خسرتها فعلا ، فقد رفض الناشرون الذين حاولت معهم . روايتين لى ، وكنت مصمما إذا فشل هذا الكتاب أيضا ، أن أتخلى نهائيا عن الطموح السخيف فى أن أصبح روائيا ، وأركن الى الحياة الوادعة المنتظمة كمحرر مساعد فى الغرفة الثانية لجريدة التايمز ، وفى خلال عام ستنتهى فترة الاختبار ، وسيرتفع مرتبى الى تسعة جنيهات فى الاسبوع ، ويمكنني أن اتزوج ، وظيفة ثابتة كالوظائف الحكومية ، فلم يسبق أن فصل أحد من عمله فى التايمز ، وسيكون لى فى النهاية معاش وجائزة هى ساعة حائط منقوش عليها إسمى .

وما حدث ، أني لم أنتظر طويلا للحصول على الساعة ، فبعد سنة من زواجي كنت أمتلكها ، ولفترة طويلة بعد تركى العمل فى التايمز ، كان ينتابني إحساس بالذنب أمام ذلك الوجه الجامد للساعة وهو يذكرنى بالساعة المعلقة على المدخل الرئيسي فى شارع كوين فيكتوريا ، والتى كانت تبدو وكأنها تشير دائما إلى اقتراب الرابعة بعد الظهر حيث ينبغى أن أكون فى طريقي للانضمام إلى زملائى فى الغرفة رقم ٢ .

ترددت عدة أيام قبل كتابة تلك الجملة الافتتاحية ، كان عهدا اخذته على نفسي ، ألم أباشر العمل مرتين من قبل ولعدة شهور ، حتى بدا لى أنه لن ينتهى ؟ أليس من الأسهل أن أكيف نفسي وأتخلى عن كل فكرة للهروب ؟ لماذا الهروب ؟ وممَ أهرب ؟ ألم أكن سعيدا فى التايمز !

أنهيت روايتى الأولى ـ الفاشلة ـ وأنا مازلت طالبا فى إكسفورد ، بعد عمل طائش قمت به وهو نشر ديوان من الشعر ، إنه الآن غالى الثمن لهواة جمع الكتب .

كان موضوعها ، كغيرها من الروايات الأول ، الطفولة والتعاسة . يصف الفصل الأول مولد البطل فى منزل ريفى قديم ، بدا لى آنذاك كقطعة أدبية مؤثرة ، وصف على غرار ايقاع العصر اليعقوبى لنثر والتر دى لامير اكثر من أن يكون تعبيرا عن تجربة شخصية . حكيت قصة صبى أسود ولد لأبوين من البيض كوارث الجينات من أجداد قدماء ، وكان ذلك تطبيقا خاطئا لنظرية مندل .

ثم تحدثت عن طفولته المقيدة وحياته المنعزلة ، بسبب اللون : فى المدرسة ، وتبدو لى النهاية الآن غير متقنة ومتفائلة بشكل غريب يختلف عن مزاجى ، فقد جعلت الشاب يجد نوعا من الرضا بالتحاقه بسفينة كنوتى ، وبهذا يهرب من طبقته المتوسطة ، ومن إحساسه كمنبوذ ، الهروب ثانية .

شجعنى أ. د. بيترز ، وهو وكيل أدبى جديد فى المهنة أن أصدق أن الكتاب سيجد ناشرا ، ومرت الشهور ، وتغيرت نغمة خطاباته من الحماس إلى البرود ، وأخيرا مات الأمل فى نشرها ، لكنى آنذاك كنت اكتبَ رواية ثانية.

كنت أقرا وقتها كتاب كارليل « حياة جون ستيرلنج »، العمل الوحيد لذلك الكاتب الاسكتلندى المزعج ، الذى إستمتعت به ، وقدم لى كتاب كارليل إطار رواياتى الجديدة ، ميدان ليسستر فى لندن الفيكتورية ، وتتبع لاجىء أسبانى من حروب شارل ، شاب إنجليزى آخر يتشوق للهروب من طبقته ، كالولد الاسود فى الرواية السابقة ، ويتورط فى مؤامرات ضد الحكومة الاسبانية .

لقد أوحى والتر دى لامير (المتأثر بهنرى جيمس) لجوزيف كونراد بإطار روايته « السهم الذهبى » حين كان يكتب تحت التأثير نفسه ، الثورة وخلفية أسبانية ، لقد حددت ـ وأنا بعد تلميذ ـ قدر ويلفورد ايوارت فى تلك الرواية والذى أصيب بطلقة طائشة اثناء انتفاضة بانشوفيلا فى المكسيك ، وبدت لى تلك النهاية رائعة فى بلد رائع . ولقد خفّت حدة إعجابى بأمريكا الاسبانية والموت العنيف حين شاهدت بنفسى

بعد سنوات حاملي المسدسات هناك ، والذين وصفتهم فى كتابى « طرق لا قانونية » .

لا اذكر الآن القدر الذى أحاط ببطلى ، الذى قسّم وقته بين بيت والديه وحانات اللاجئين سيئة السمعة فى سوهو ، كل ما اذكره ان هناك قصة حب استوحت بدرجة كبيرة تلك المرأة غير المحتملة التى ابتدعها كونراد « دونا ريتا » . ولا أعتقد أن البطل ذهب إلى أسبانيا أو وصل أبعد من ميدان ليسستر ، فقد كنت منتبها جدا إلى وحدة المكان ووجهة النظر بعد دراستى لكتاب بيرسى لوبوك « صنعة الرواية » . أسميت الرواية إسما كئيبا « حادثة عارضة » ، وقد كانت فعلا حادثة عارضة . لم تجد ناشرا قط ، ورفض بيترز ، الوكيل الأدبى ، حتى أن يتصفحها ، وكم شكرته على عمله هذا بعد ذلك .

قبل عودتى إلى بيت الأسرة للنقاهة بعد العملية ، وأنا مستلق فى عنبر عام فى المستشفى ، عبرت فى الزمن إلى الوراء ، أيام لاجئى حروب الملك شارل إلى أيام المهربين فى سسكس . ولو سألت نفسى لماذا هذا الرجوع إلى الوراء لما عرفت الاجابة ، ربما لأنى أدرك بنصف وعى أنى أعرف القليل عن العالم المعاصر لاتعامل معه ، وأن الماضى اكثر وضوحا لأنه موجود فى الكتب ، كتاريخ المهربين الذى قرات عنه وانا فى سرير المرض .

ونجحت رواية « الرجل الذى بداخلى » ــ وهى الرواية الثالثة التى كتبتها ــ نجاحا مؤقتا ، كالذى يحدث أحيانا للروايات الأولى بمساعدة المراجعين المحبين للمؤلف .

بعد عشرين سنة ، قام سدنى بوكس بتحويلها الى فيلم ملون ، لم اكن قد بعت له حقوق تحويلها إلى فيلم ، لقد بعت تلك الحقوق ، بمبلغ مقطوع ، لمخرج أفلام تسجيلية عملت معه مرة فى كتابة فيلم دعائى عن شركة خطوط جوية . أخبرنى أنه من الممكن بروايتى أن اتيح له فرصة إخراج أول فيلم روائى له . لكنه باع حقوق إخراج الرواية الى سدنى بوكس محققا من وراء ذلك ربحا كبيرا ، وقام بوكس باخراج الفيلم بسيناريو غريب عن الرواية ، اظهر فيه التعذيب بالأداة التى توسم بها الحيوانات كجزء من نظام القرن التاسع عشر القانونى . وكان الفيلم ، بعكس الكتاب ، لا يعانى من حماقة الشباب او السذاجة ، وقد تلقيت رسالة من شخص تركى فى استامبول يمدح الفيلم لجرأته فى تناول

موضوع اللواط ، ويسألنى هل كرست روايات أخرى لهذا الموضوع الطريف ؟!

بعد هذه التجربة ، بدأت أضيف فى عقود بيع حقوق تحويل رواياتى إلى أفلام ، فقرة تنص على منع بيع هذه الحقوق ثانية الى مستر بوكس .

ولقد تأذيت بطريقة ما من هذه الخيانة للنص الأول الذى كتبته أكثر من ضيقى بالخيانة الأخيرة من جوزيف مالنجيفتز الذى أخرج فيلما عن روايتى (الأمريكى الهادىء) ، فقد كنت على اقتناع بأن الرواية الأخيرة ستبقى الفيلم حيا ، بينما فيلم الرجل الذى بداخلى مأخوذ عن أصل ضعيف . ولو كنت مستشارا لناشر ، كما أصبحت بعد عدة سنوات ، لرفضت نشر هذه الرواية دون تردد ، ومع ذلك هناك لغز مازال يحيرنى ، كيف يمكن لكاتب كألدوس هكسلى أن يكتب عنها بتعاطف شديد فى خطاب له إلى أحد أصدقائه ويفضلها على رواية فرجينيا وولف الأخيرة ؟ ثم لماذا تسبب فى صداقتى مع شخصيتين لا يمكن نسيانهما هما السيدة موريل ومسز لونديز، ولماذا اختارها جاك مارتين لينشرها فى فرنسا فى سلسلة تضم أعمال جوليان جرين ؟ لقد وافقت جاك مارتين على حذف عدة أسطر من مشهد جنسى ، وقد بدا لى اقتراح الرقيب الفرنسى بشطب أسطر من روايتى انذاك كأنه وسام على صدرى .

وهناك سبب آخر يجعلنى اذكر « الرجل الذى بداخلى » ، فكتابة رواية تشبه وضع رسالة فى زجاجة والقائها فى البحر ، وقد تقع فى أيدى أصدقاء أو أعداء غير متوقعين . ان مترجمتى الفرنسية ، دنيس كليروين . أصبحت صديقة لى ووكيلا ادبيا . وكنا نتجول فى باريس باحثين عن المتاعب ، ولكن حين جاءت المشكلة الكبرى وسقطت فرنسا فى الحرب الثانية ، اصبح الاتصال بيننا مستحيلا ، ولم أعرف إلا بعد إنتهاء الحرب إنها عملت فى فرنسا المحتلة مع المخابرات البريطانية ، ففى سنة ١٩٤٢ فى فريتاون حيث كنت أعمل مع المخابرات نفسها ، تسلمت أخبارا من لندن أن هناك جاسوسا مشتبها فيه ، رجل أعمال سويسرى ، يسافر على سفينة برتغالية الى ليزبون . وبينما كان ينتظر فى طابور لتدقيق جوازات السفر ، جلست فى غرفتى الخاصة ، أطبع بسرعة وبإصبع واحد ، الأسماء والعناوين الموجودة فى مفكرته والتى تركها بإهمال فى قمرته ، وفجأة وسط كل تلك الأسماء التى لا تعنى شيئا

بالنسبة لى قرأت اسم وعنوان دنيس ، منذ تلك اللحظة خفت على سلامتها ، ولم اعرف إلا بعد إنتهاء الحرب انها ماتت بعد أن عذبت فى معسكر اعتقال المانى .

مكتب أمى ، قصة عاطفية لشاب ، غرفة بسطح من الصفيح فى فريتاون ، معسكر إعتقال المانى .

مراحل على طريق طويل .

٢

روايتى الثانية « اسم العمل » التى نشرت سنة ١٩٣٠ ، وروايتى الثالثة « إشاعة عند هبوط الليل » سنة ١٩٣١ ، يمكن للمرء أن يجدهما فقط فى مكتبات بيع الكتب القديمة ، وبسعر مرتفع ، فقد أوقفت إعادة طباعتهما . وهما من الرداءة بحيث أنهما تحت مستوى النقد أو حتى مجرد استثارة أى ناقد .

السرد فيهما مسطح ومتكلف ، وفى حالة رواية « إشاعة عند هبوط الليل » فهناك إدعاء ولغة طنانة (للأسف كنت وقتها أعيد قراءة وأعجب بأسوأ رواية لكونراد السهم الذهبى) ، ويمكن القول أنه لا يوجد فيها خلق للشخصيات الروائية .

الشخصيات الرئيسية فى رواية ما . لابد بالضرورة أن يكون لها صلة بالمؤلف ، فهى تخرج منه كما يخرج الطفل من الرحم ، ثم يقطع الحبل السرى وتترك الشخصيات لتنمو مستقلة ، وكلما عرف المؤلف نفسه أكثر ، إستطاع أن يبعد نفسه عن شخصياته المبتكرة وأن يتيح لها مساحة أكبر لتنمو خلالها . بهذه الروايات المبكرة لم يكن الحبل السرى قد قطع بعد ، والمؤلف فى سن السادسة والعشرين كان زائفا بالنسبة لنفسه ، رغم التحليل النفسى الذى تعرض له وهو فى سن السادسة عشرة ، كزيف شخصية أوليفر شانت بطل رواية « أسم العمل » بالنسبة للقارىء . شانت كان حلم يقظة فى ذهن المؤلف الرومانسى الشاب ، وقد مرت سنوات من الحضانة والشعور بالاثم ونقد الذات والتبرير لها

ليستطيع أن يزيح عن الأعين تشوش الآمال والأحلام والطموحات الزائفة . كنت أحاول كتابة أول رواية سياسية دون أن أعرف شيئا عن السياسة ، وآمل أني قمت بذلك بطريقة أفضل عند كتابتي « الأمريكي الهادئ » بعد سنوات ، وكم هو قليل ذلك الذي تعلمته خلال ثلاث سنوات عن الحياة والسياسة في غرفة مساعد التحرير في جريدة التايمز .

حتى اطار الرواية العام في « اسم العمل » كان خياليا . تخيلت ديكتاتورا أسس دولة في « تريير » وهي بلدة في ألمانيا زرتها بعد أن تخلت قوات الاحتلال الفرنسي عن فكرة تكوين مملكة مستقلة فيها ، يتصل الشاب المثالي الغني شانت بالمنفيين من تلك الدولة في لندن (صدى لروايتي حادثة عارضة التي لم تطبع) ، ويذهب الى تريير ليقابل قائد المعارضة وهو شاعر يهودي ، ويقابل زوجة الديكتاتور في ظروف غير معقولة تماما ، ويقع في حبها ، ويدعى الى القصر على غير توقع ، ويبدى إعجابا رومانسيا بالديكتاتور ، وينام مع زوجته التي تنقذه من الضجر وإلحاح الشهوة . وتبوح له بالحقيقة وهي أن زوجها عنين ، وحين رفضت هجر زوجها ، يبوح شانت لقائد المعارضة بعجز الديكتاتور الجنسي ، وتهرب الأسلحة التي إشتراها شانت بنقوده من إنجلترا على مراكب لنقل البضائع من كوبلنز ، وتقوم الثورة ، والشاعر اليهودى يكتب قصائد ساخرة عن الديكتاتور تغنى في الشوارع ، وتنتهى الرواية بمغادرة شانت للبلدة في قطار تحت رعاية المهزومين والجرحى والديكتاتور الغائب عن الوعي . وماذا حدث للزوجة ؟ منذ شهور دفعت نفسي لقراءة الرواية ثانية ، ونسيت قدرها ، وهكذا كانت حياتها غير مهمة .

واعجب الآن كيف قُبل الكتاب للنشر ، حتى أني تلقيت برقية تهنئة من الناشر شارلز إيفانز صاحب دار هاينمان بعد قراءته للمخطوطة ، ربما كان ساذجا وعاطفيا كالمؤلف ، فقد أخبرني ذات يوم أنه أستثير جنسيا مرة واحدة عند قراءته لرواية « مدموزيل دى موبان » .

وها هي ذى أمثلة من أسلوبي في تلك الأيام المبكرة ، وسوء استخدامي المزعج للتشبيه والاستعارة ، حتى أفضل الكتاب من الممكن أن يفسد أسلوبهم ، ولقد أفسدت فعلا بقراءاتي الكثيرة للشعراء الميتافيزيقيين .

مثلا كتبت « المسدس يتدلى مثل زهرة جافة على الرصيف » (أرغب ان أعكس التشبيه : زهرة جافة تتدلى كمسدس على الرصيف) ومثلا « وقع الاصوات البعيدة يسقط فوقه مثل بذور الخشخاش تبعث الراحة في الجسد » .

وماهي ذي جملة فخمة تعلمتها من أسوأ ما عند كونراد :

« الساعة تتخلى عن حملها من الساعات » وفي رواية تتكون من ٣٤٤ صفحة لا أجد إلا مشهدا واحدا صالحا ، إثنتا عشرة صفحة من الرعب المعقول وذلك حين مرت المركب بحمولتها من البنادق المهربة عبر الجمارك ، وشخصية واحدة صالحة ، الأمريكي الذي يتعامل بالسلاح والذي ظهر خلال ثماني صفحات ، ولقد وجد له مكانا في روايتي الأمريكي الهادىء بعد ذلك بربع قرن .

« إشاعة عند هبوط الليل » الرواية الثالثة التي نشرتها ، بدت افضل من سابقتها وإنتهت بتشاؤم أكثر . كنت لا أعرف شيئا عن أسبانيا حيث تجرى أحداث القصة (في سن السادسة عشرة قضيت يوما بين فيكو وكورونا) ، وكل ما عرفته عن حرب شارل عرفته من كتاب كارليل حياة جون ستيرلنج ، مرة أخرى هناك مشهد واحد يستطيع المرء إحتمال قراءته ثانية ، وهو في الفصل الاول حين يتقمص كولونيل عجوز متعب دور قسيس ويتلقى إعتراف أحد رجاله الذي جرح في كمين ، مشهد ربما يعكس اعتراف رجل العصابات الأمريكي في روايتي « القوة والمجد » بعد ذلك .

وكما في رواية « الأمريكي الهادىء » كانت الشخصية الرئيسية في الرواية مراسل صحفي ، ولكنها كانت شخصية غير واقعية كتلك التي في « الأمريكي الهادىء » .

لقد باعت « إشاعة عند هبوط الليل » ١٢٠٠ نسخة ، بينما باعت « الرجل الذي بداخلي » ٨٠٠٠ نسخة .

وفتح نقد « فرانك سونيرتون » غير المتعاطف ، عينى على نواقص ما اعتقدت أنه الفن الجيد .

وهكذا انفجرت الحقيقة ، الحقيقة المباركة ، في شكل قلق مالى ، فزوجتي على وشك الانجاب ، وقد تركت العمل في صحيفة التايمز بعد نجاح « الرجل الذي بداخلي » ، ورفضت التايمز إعادتي إليها وفق المبدأ

الذى تعمل به بعدم إعادة من يتركها .

ماذا أجد الآن حين أعيد قراءة تلك الرواية ؟

المؤلف يهتم كثيرا بالأسلوب ، وهو أسلوب ردىء ومتصنع ، بعد سنوات قليلة كنت أهاجم شارلز مورجان على الخطيئة نفسها التى وقعت فيها وتركتها .

الرواية غامضة ، تلقى بظلال كثيرة دون وضوح ، بعيدة عن التركيز ، صورها غير واضحة ، تشبيهات واستعارات مبالغ فيها كرواية اسم العمل ، مثلا : « كتلة الورق الصغيرة تنتشر كالشتاء عبر البتلات المتناثرة على البساط » ، وهناك الكثير جدا من الصفات ، وشروح كثيرة للدوافع ، لا ثقة فى فهم وإدراك القارىء ، وصف مطول وحوار مبهم ، مع أن الحوار فى الرواية كما فى المسرحية لابد أن يكون شكلا من الفعل والاسراع فى الفعل . هنا فى هذه الرواية الحوار لابد أن يُشرح للقارىء . وجدت أن كلمة « فكرّ » تكررت عشر مرات فى عشر صفحات متوالية . ذكرتنى بالروائى ستيفنسون فى شبابه حين كان يعلم نفسه الأسلوب بالتقليد . وكنت أقلد أسلوبا رديئا .

ربما معظم الكتاب يتطيرون ، بطل رواية « اسم العمل » كان اسمه شانت ، بطلا « إشاعة عند هبوط الليل » شيز وكرين وجميعهم يبدأون بحرف « سى » وفشلت الروايتان ، وكان الفشل يتركز حول الحرف « سى » ، فهجرت حرف « سى » فى أسماء الأبطال ، ولقد هبط علىّ إحساس كيوم الحساب حين أسميت الشخصية الرئيسية فى روايتى « العامل الإنسانى » « كاسل » ، وحاولت قدر جهدى تغير الاسم ، لكن هناكّ صفة سحرية فى الأسماء ، لتغيير الاسم معناه أن تغير الشخصية ، وكان لابد أن يبقى « كاسل » ، ومضيت قدما وإحساس يخطر الفشل يسيطر علىّ .

* * *

٣

لقد نشرت الآن ثلاث روايات ، نجحت أولاهما بعض النجاح ، وفشلت الاخريان بجدارة ، وشعرت بمرارة عزلة الهزيمة ، وغدوت كجريح تركوه ونسوه .

لكن المجيء المفاجيء لشاعر نرويجي لزيارتي ، وهو الذي لم أكن اعرفه ، بدا لي غير قابل للتعليل في تلك الظروف .

كانت زيارته كحلم يقظة ، ومشجعة بطريقة غير معقولة كظهور ثلاثة غربان على بوابة . كان « نوردال جريج » فالا حسنا ، وأسطورة ، حتى موته اثبت أنه أسطورة ، فلا أحد يستطيع القول متأكدا : « في هذا المكان مات » ، لقد أصيب في غارة جوية على برلين سنة ١٩٤٣ ،

أستطيع أن اتذكر بوضوح ثلاثة لقاءات معه ، كل لقاء يفصله عن الآخر بضع سنوات ، ومع ذلك لا اتردد في القول بأن صداقة ربطت بيننا ، بل نوع من المحبة ، لم اكن استطيع قراءة كتبه ، لأن واحدا منها فقط هو الذي ترجم إلى الانجليزية (وعلى كل حال فإن شعره يستعصى على الترجمة) ، ولقد اثر في نفسي لا كزميل في مهنة الكتابة ، ولكن كصديق نشأ معي وأستطيع أن أحدثه وأناقشه في كل شيء في هذا العالم .

لا أذكر فيما تحدثنا في أول لقاء ، لقد قال بوضوح « انه جاء فقط لزيارتي » ، وذلك في بيت صغير إستأجرته أنا وزوجتي فيفيان في قرية « شبنيج كامبدن » وعلى الفور وقعت في حبائل الألفة التي أثارها خاصة انها بلا غرض ، يمنحها كضوء الشمس . جو صداقته هذه الذي يشبه الحلم ، استمر عن طريق رسائله ، دافئة ودية مشجعة ومنتقدة ، والمرة الوحيدة التي زرت فيها النرويج كان يقيم في لينينجراد . لكن ظلت رسائله متواصلة ، ولم يعدم وسيلة لارسالها . كان نوردال جريج كالملك لا تنقصه الوسائل .

وكنت أحيانا أتساءل الم يترك رُقيّات في الأماكن التي زارها ، وجرتني اليها بعد ذلك بفترة طويلة ؟ فكل مكان زاره وحدثني عنه برسائله ، ذهبت اليه بعد ذلك . لماذا قمت بزيارة منفردة لاستونيا في الثلاثينات ؟ الأني كنت أتتبع خطواته ؟ وموسكو في الخمسينات ، ولم يكن هناك جدوى من الذهاب إلى غرفة ٣١٢ في فندق فوفوموسكوفا ، حيث العنوان الذي أرسله لي في حالة « ما إذا وجدت نفسك في موسكو يوما » ، كان شبحه قد غادر منذ زمن ، لدي رسالة كتبها لي من استونيا بعنوان مجرد « بوست ريستانت » دون ذكر للسنة كعادته دائما . كما لو أن تاريخ اليوم هو المهم فقط « أؤكد لك إن عاجلا أو آجلا ستأتي إلى استونيا ،

فأحضر الآن من فضلك ، انها بلدة ساحرة ، لم تفسد بعد ، كما انها ، أرخص بلد فى العالم ، فأنا مؤلف فقير جدا ولكنى هنا أستطيع الحصول على كل شيء تقريبا ، إحساس غريب ورائع .. وإذا كان الجو بديعا فسنستأجر قاربا ونخرج فى نزهة وسط الجزر .. وبقطع قليلة من الشيكولاتة يمكننا شراء ما نريده من الفتيات المواطنات .. تعال » .

ولكن مَضي وقت طويل قبل أن أستطيع السفر هناك . ومن الغريب أنه كان يتحدث عن روسيا ستالين . فمن منا الآن فى أيام بريجينيف يستطيع أن يمكث فى موسكو عدة أشهر ويقيم فى شقة شاعر روسى ؟ يقول فى رسالة « لقد رجعت لتوى الى موسكو من الريف ويسعدنى أن القاك هنا فسأمكث طوال شهر مايو ، وهناك إحتمال أن أسافر بعد ذلك إلى تفليس والقوقاز . فى تلك الحالة أتأتى معى ؟» وفى خطاب آخر « استعرت شقة الكاتب بوريس بلنياك الذى كتب الفولجا ينتشر فى بحر قزوين (معظم الكتاب الروس يسمون كتبهم بأنهار ، فهم أسوأ من الانجليز الذين يختارون قولا مأثورا أنيقا كعنوان) .

وأى خطة كانت تبدو بعد قراءة رسالة من رسائله ممكنة التنفيذ ، لكن ذلك لا يستمر إلى ساعات محدودة .

ومع الظلال التى هبطت فوق أوروبا ، وقبل سنوات من الغارة على برلين والتى قتلته ، عاد الى النرويج ، كتب لى « لقد بدأت بإصدار مجلة يسارية لمحاربة الموجة الصاعدة من الفاشية وردود فعلها فى النرويج ، وكنت من البجاحة بأن وضعت إسمك ضمن المشاركين فى المجلة فى المستقبل ، هل أنت غاضب ؟ إذا سامحتنى من أجل أيامنا الماضية ، فأرسل لى مقالا يوقف الشعر ، أيامى فى موسكو إنتهت . كتبت مسرحية تهاجم بعنف جيادنا خلال الحرب الماضية ، والذى تسبب فى آلام كثيرة . أعيش فى بيت صغير فى منطقة تزحلق على الجليد فى غابة فى أوسلو ، إذا رغبت انت وزوجتك فى الحضور فهناك دائما مكان لكما » .

وكم رغبت لو أنى إستدنت ، أو تسولت أو حتى سرقت المبالغ الضرورية التى تتيح لى تلبية دعوة واحدة من دعواته .

وذات يوم . بدل أن أتلقي رسالة منه ، سمعت صوته فى التليفون ، كنت فى وزارة الاستعلامات فى ذلك الوقت أؤدي عملا غبيا لا فائدة منه ، والغزو الألمانى للنرويج قد إبتدأ ، كان قد وصل من « نارفك » ، وشدنى

صوته من البناية الضخمة الميتة للاستعلامات إلى غرفة نومه فى فندق كروس المملوء بمواطنيه ، كانت حكايته أنه إستيقظ يوما فى أوسلو على صوت إطلاق النار ، نظر من النافذة فرأى السفن الحربية الألمانية على الشاطىء ، لبس بسرعة وخرج إلى الجبال ، وهناك قابل دورية عسكرية ، ووجد نفسه مجندا فى الجيش بلا زى أو سلاح ، كانت الدورية تحمل حقائب تحتوى على الذهب الموجود فى بنك النرويج ، وكُلف بقيادة فرقة لايصال الذهب إلى « نارفك » على بعد ٥٠٠ ميل فى رحلة طويلة عبر الجبال ، لم أعرف تفاصيل تلك الرحلة قط ، فقد كان لديه أشياء كثيرة أخرى يتحدث عنها ، وصل إلى نارفك بسلام ، جندى غير رسمى يلبس ملابس صياد ومعه الحقائب المملوءه بالذهب ، وقدم تقريره الى ضابط بحرى أنيق كان بالمصادفة صديقا مشتركا لنا ، هو مترجم رواية « الرجل الذى بداخلى » إلى النرويجية نيلزلى . وقد طلب من نوردال بأن يصطحب الذهب على ظهر مدمرة إلى الشواطىء الإنجليزية ليسلم إلى بنك إنجلترا . قال إنه يرغب فى البقاء فى النرويج ليحارب ، ثم ماذا سيقول الإنجليز إذا أرسل كل هذا الذهب مع جندى غير رسمى ، وهكذا منحوه رتبة ما ، وغادر إلى إنجلترا . عند وصوله الشاطىء الإنجليزى ، أخذ القطار من « هارويش » وقد رسمت طبيعته الرومانسية مشهد وصوله إلى بنك إنجلترا وإستقبال المحافظ له ، لكن وصوله لم يكن يشبه ما تخيله على الإطلاق . فقد كان فى إنتظاره على رصيف المحطة مخبر بملابس مدنية ، ولم يكن ممكنا الذهاب إلى البنك دون حضور الموظف المختص ، وكان هذا الموظف قد ذهب لناظر المحطة ، لأن جامع التذاكر لم يسمح له بعبور الحواجز إلى الرصيف دون تذكرة دخول ، ورفض موظف البنك أن يحط من كرامته بشراء تذكرة ، وهكذا إنتظر الشاعر والمخبر مع الذهب النرويجى حتى ملّ نوردال . فترك المخبر وحده مع الذهب وأخذ عربة أجرة إلى فندق كروس .

بعد لقائنا فى الفندق ، اختفى عن ناظرى ، وسافرت بعد ذلك فى رحلة إستغرقت ١٥ شهرا إلى غرب إفريقيا فى محاولة للحصول على المعلومات من مستعمرات فيشى . وقبل أشهر قليلة من وفاته ، تقابلنا مرة أخرى . وقضينا أمسية طويلة مع أصدقاء آخرين من النرويج ، ولم أكن أتخيل أنها المرة الأخيرة التى أراه فيها ، ولا أذكر من تلك الأمسية إلا الحديث

النقاش ثم صفارة الإنذار بغارة جوية ، ثم معاودة الحديث ثانية ، حيث يكون نوربدال ، تكون هناك المناقشات دائما ، دون أثر للغضب . كان الرجل الوحيد الذى قابلته ويمكنك أن تختلف معه بعمق حول الدين السياسة ، وتشعر طوال الوقت بعقله المتفتح وشعوره الودى نحوك ، الأكثر من ذلك أنه كان يفترض المشاعر الودية فى معارضه أيضا ، فى الحقيقة كان لديه محبة للآخرين أكثر قيمة من ذهب البنك الوطنى . بالنسبة لى فقط زودنى بجرعة من الأمل سنة ٣١ حملها إلىّ ككأس منعش فى الزقاق الموحل الذى كنت أقيم فيه فى شيبنج كامبدن .

× × ×

٤

فى تلك السنة سنة ١٩٣١ بدأت عن عمد ـ لأول وآخر مرة فى حياتى ـ فى كتابة كتاب يسّر الآخرين . ومع الحظ قد يتحول إلى فيلم . ولأن الشيطان يعتنى باتباعه . فإن رواية « قطار اسطمبول » نجحت فى الهدفين ، مع أن ظهور الفيلم آنذاك بدا كحلم غير مرغوب فيه ، فقبل أن أنتهى من الرواية ، ظهر فيلم مارلين ديتريتش « شنغهاى إكسبريس » كما أنتج الإنجليز فيلم « روما إكسبريس » ، حتى الروس أنتجوا فيلمهم عن القطارات ، « تركيا إكسبريس » ، وجاء الفيلم الذى أنتجته فوكس للقرن العشرين عن روايتى ، بعدها . وكان أسوأها ، لكن ليس أسوأ من الانتاج التليفزيونى الأخير للرواية ، والذى قامت به الـ بى . بى . سى .

أعتقد أن النجاح الجماهيرى لفيلم « جراند أوتيل » أوحى لى بكيفية كتابة عمل ناجح ، لكن بما أنى لم أقض فى القسطنطينية أكثر من ٢٤ ساعة منذ عدة سنوات فى جولة فى المنطقة ، فقد وقعت على عاتقى مهمة ثقيلة . لم أكن أتحمل ـ ماديا ـ مغادرة كوخى فى « كوتسوالد » وأخذ القطار إلى إسطمبول ، أقصى ما كان يمكننى عمله هو شراء إسطوانة « هويتجر » باسيفيك ٢٣١ ، على أمل أن سماعها كل يوم ، يمكن أن يأخذنى بعيدا عن كوخى القشى ، وكلب يعانى من الهستريا ، وبعض أشجار التفاح ، وزقاق طينى ، وصف من نبات الخس .

وإشتريت أيضا . على مضض ، تذكرة بالدرجة الثالثة تصل إلى الحدود الألمانية ، وفى هذه الأيام السعيدة ، قبل الحقبة الهتلرية ، كان يحق للكاتب أن يجتاز الحدود بالقطار دون فيزا ، وهكذا كان بإمكاني السفر بعيدا إلى كولون التى عرفتها من قبل سنة ٢٣ فى ظروف غامضة شرحتها فى مذكراتي عن سنواتي المبكرة « نوع من الحياة » . وقد ساعدتنى إسطوانة هوينجر . وإسطوانة أخرى لديليوس « أخطط إلى الجنة » وإن كانت بدرجة أقل ، أكثر مما ساعدتنى الرحلة من كاليه إلى كولون .

سيلاحظ القارىء ، بلاشك ، أن هناك تفصيلات أكثر فى هذا الجزء من الرواية عن الجزء الأخير ، والسبب إنى حين جلست أنظر من نافذة الدرجة الثالثة كنت أدون ملاحظاتى عن كل ما أراه طوال ساعات النهار . ولذا يمكنك التأكد أن ما وصفته فى هذا الجزء كان كما هو سنة ١٩٣١ ، وهبط الظلام على قطار الشرق السريع قبل أن نصل لييج ، وعلى القارىء ألا يقتنع بدقة وصفى حتى الحدود اليوغسلافية عند سابوتيكا . (منذ عدة سنوات قمت برحلة إلى إسطمبول ، وكان الوقت ليلا حين وصلت سابوتيكا . وكنت على درجة من النعاس لم أتأكد فيها من دقة سردى التى نسيته تماما) .

حين وصلتنى الأنباء أن « جمعية الكتاب الانجليزى » قد إختارت روايتى « قطار إسطمبول » ككتاب العام ، ايقنت أنى أنقذت مؤقتا على الأقل . لكن القدر كان يختزن لى ضربة أخيرة ، جاءنى إنذار من جيه . بيه . بريستلى الكاتب المعروف بأنى شهّرت به فى روايتى ، وكنت لم أقابله قط ، وقد أعتبر شخصية « سافورى » فى الرواية تمثله ، لقد وصفت الشخصية بأنها روائى معروف يكتب على طريقة ديكنز ، وكان بريستلى قد أصدر حديثا رواية هلل لها النقاد وكانت بعنوان « الرفاق الطيبون » . وقارنه بعض المراجعين بديكنز .

وكان لابد أن أعرف ، فى السنوات التالية ، كم هى خطرة قوانين القذف بالنسبة للكاتب . وفى حالة بريستلى كنت متأكدا تماما انه مقتنع بأن هذا الكاتب المجهول يهاجمه ، وكان يتصرف بإيمان راسخ ، والإيمان الراسخ للآخرين يكون غالبا أكثر مدعاة للحيرة .

بعد النجاح المعتدل لقطار إسطمبول . بدأت أعتبر ككاتب يدر اموالا

على الناشرين (لا إنذارات بالقذف ترفع ضد كتب فاشلة) .

فيما بين ١٩٣٤ ـ ١٩٣٨ سحب لى كتاب واحد من السوق « رحلة بلا خرائط » ، ودفعت تعويضا صغيرا لطبيب لم أعرف حتى بوجوده بتهمة التشهير أيضا .

وجاءتنى إنذارات بالقذف مرتين لمراجعات كتبتها فى « السبكتاتور » ، وأخيرا قضية شيرلى تمبل ، وقد كان عمرها تسع سنوات آنذاك ، ارسلت لى إنذارا عن طريقة شركة فوكس للقرن العشرين ، بأنى شهرت بها فى النقد الذى كتبته عن فيلمها « وى ويلى ونيكر » فى مجلة الليل والنهار .

فى تلك الأيام السوداء للمؤلفين ـ والتى إنتهت مع الحرب بتغيير قوانين التشهير والقذف ـ كانت هناك شركة من المحامين الذين يحثون الناس على إرسال إنذارات بالتشهير ، كانوا يقارنون بين أسماء الشخصيات الروائية وأسماء الأشخاص المدرجين فى دليل تليفونات لندن . أحد معارفى ، جاءه محام من هذه الشركة يحمل بيده رواية تحمل إحدى شخصياتها السيئة إسما كاسمه (وكلما كان الاسم غير شائع كان الخطر أكبر ، وقد دفعنى هذا ، فى روايتى « الممثلون الهزليون » . إلى إختيار أسماء شخصياتها الرئيسية من الأسماء الشائعة كبراون وجون وسميث) ، وقال المحامى لصديقى أنه إذا رغب أن يقيم دعوى قضائية ، فإن شركته التى تعمل للصالح العام يسعدها أن تخدمه ، وإذا خسرت القضية فلن يتحمل أية تكاليف ، وأكد له أنه من غير المحتمل أن يصل الأمر إلى المحكمة ، فالناشر سيدفع ، فحماس الناشرين قليل لخوض القتال ، فهم يفضلون دفع مبالغ مالية والانتهاء بتسوية معقولة .

فى حالة قطار إسطمبول أعدت صياغة عشرين صفحة ثانية بسبب إنذار بريستلى ، وخصمت شركة هاتيمان للنشر تكاليف إعادة طبع هذه الصفحات من حقوقى أو بالأحرى إضافتها إلى الديون التى تستحق علىّ وعلى كل حال فعلى المرء الا يضخم الخطر أو يشكو كثيرا منه ، فلكل مهنة مخاطرها .

أثارت قطار إسطمبول بعض الاهتمام الاكاديمى ، كما ظهر الراقص الشاب كورال ماسكر على المسرح الملكى فى نوتونش كشخصية كتبتها فى رواية « بندقية للبيع » ، واستطعت أن اكتشف فى كلا الكتابين تأثير عشقى المبكر للكتابة المسرحية التى لم تمت بداخلى .

فى تلك الأيام ، كنت أفكر بكتابة الرواية بمصطلحات مسرحية ، بمعنى انى قبل أن أكتب أجدول المشاهد على الورق (الفصل الأول : يحدث كذا وكذا) وغالبا ما تحتوى هذه المشاهد على شخصيتين منفردتين ، فى حظيرة للسكة الحديد فى رواية « قطار اسطمبول » ، فى بيت منعزل فى رواية « بندقية للبيع » كما لو أنى أحاول الهرب من سيولة الرواية الواسعة ، وأقيم أعظم المشاهد المهمة فى منطقة ضيقة حيث يمكننى توجيه كل حركة لشخصياتى . مشهد كهذا يوقف تقدم الرواية بذروة درامية ، كاللقطات القريبة فى فيلم حيث تبدو كأنها توقف حركة الفيلم . توقفت بعد ذلك عن إستخدام ذلك التقسيم على الورق ، وراقبت طريقتى تلك فى رواياتى بعد ذلك ، ويمكننى القول أنى وصلت الذروة فى رواية « القنصل الفخرى » حيث معظم أحداث الرواية تدور فى كوخ خبأ المختطفون فيه ضحيتهم .

اكثر من أربعين سنة تفصل رواية قطار إسطمبول عن القنصل الفخرى ، لم يكن هتلر قد أتى إلى السلطة حين كتبت قطار إسطمبول ، كان عالما مختلفا ويمكننى القول أيضا أنى كنت مؤلفا مختلفا . كنت فى العشرينات من العمر . ولا أجزم أنى اكتشفت كثيرا من الأمل فى عملى ، عدا شخصية كولونيل مارتب رئيس البوليس ، لقد أحييتها فى عالم العمة أوجستا فى كتاب « رحلات مع عمتى » ، وحين قرأت الفصل الأخير الذى تدور أحداثه فى إسطمبول . ورأيت شخصية كاليدمان موظف الفندق ، ومستر شتاين رجل الأعمال المحتال ، مقدمة بايجاز واتقان تام ، فإن الكاتب العجوز يرفع يده تحية للكاتب الشاب ، باحترام جدير به .

× × ×

٥

أشفق دائما فى العودة بالذاكرة إلى الوراء ، فهى كمن يقترب من الموت ويستعجل النهاية . لكنه يعيش فترة أخرى .

بدأت أكتب رواية « إنه ميدان المعركة » فى وقت كنت أمر فيه بأزمة مالية كبيرة .

ناشرا روايتي ، الانجليزي والأمريكي كفلا لي ستمائة جنيه سنويا ، لمدة ثلاث سنوات كحقوق نشر ، ساعدني هذا المبلغ على ترك عملي في جريدة التايمز ، والإقامة في بيت صغير في شيبنج كامبدن ، ولكن سنة ١٩٣٢ حين إنتهت السنوات الثلاث ، لم يكن قد تبقى معي سوى عشرين جنيها ،

فقد فشلت روايتي الثانية ثم الثالثة ، ولم تحققا لي أي دخل ، وروايتي الرابعة مازالت مخطوطة ، كما رفض الناشرون الكتاب الذي كتبته عن سيرة الشاعر إيرل أوف روشستر .

وفي اليوميات التي احتفظ بها عن تلك الفترة ، تستطيع أن تقرأ ، اسبوعا بعد اسبوع ، عن الليالي المؤرقة التي عشتها وعن حالة الكآبة التي إستولت على نفسي . ومحاولاتي المتتالية للبحث عن عمل في جرائد الأحد ، أو كمدرس في الجامعة ، فلا عجب إذن أن يسير العمل في رواية « إنه ميدان المعركة » ببطء شديد .

كنت قد بدأت رواية قبلها عن التمسك بالروحانية ، لكنها لم تعجبني فأهملتها ، كما حاولت كتابة قصة طويلة بعنوان « أرض براندون » ، اختفت وضاعت من ذاكرتي تماما .

وفي يوم كئيب ، إشتريت تذكرة قطار إلى لندن ، وذهبت لأناقش أموري مع شارلز إيفانز مدير دار هانيمان للنشر ومع ممثل دار نشر « دوبلداي » الأمريكية .

وافق إيفانز أن يمد عقدي لمدة سنة أخرى ، بينما وافق الناشر الأمريكي على مد العقد لمدة شهرين فقط حتى يتسنى له قراءة مخطوط رواية « قطار إسطمبول » .

وكانت الشروط مجحفة ، على لكتابين لن تدفع أية حقوق عنهما إذا حققا خسارة ، إلا بعد تغطية هذه الخسارة . بكلمات أخرى عدت إلى البيت بضمان شهرين من المصروفات على أن أكتب روايتين بعد « قطار إسطمبول » دون أية حقوق على الإطلاق .

وانقذتنا رواية قطار إسطمبول في اللحظة الأخيرة . (هناك نقطة أخرى توضحها يومياتي غير الأرق والقلق ، وهي تفهم وشجاعة زوجتي التي لم تشك أبدا رغم هذا المأزق الخطير الذي قدتها إليه بعد الحياة الآمنة أثناء عملي في جريدة التايمز)

بدا لى أن البدء فى كتابة رواية « أنه ميدان المعركة » فى هذه الظروف عمل مدمر للنفس ، ولم يكن هناك مفر .

لم يكن لدى أوهام بأن تصبح هذه الرواية جماهيرية ، فى الواقع ظلت هذه الرواية أقل كتبى إقبالا من الجمهور وقابلية للقراءة ، مع أن ذاكرتى تحتفظ بصفحات جيدة منها (كالمقابلة بين ميلى وزوجة رجل البوليس القتيل ، أو ملاحقة كونراد لمساعد مفوض الشرطة بمسدس محشو بطلقات زائفة) .

وقد أوحى لى بموضوع الرواية ، حلم رأيته ، ثمرة أسابيع القلق التى عشتها ، يحكم فيه علىّ بالموت بسبب جريمة ، وقد وجدت فى يومياتى قطعة من الشعر الخشن توضح كيف طرأت فكرة الرواية على ذهنى .

نادرا ما تواتيني الشجاعة لاعادة قراءة كتاب من كتبى أكثر من مرة ، ويحدث ذلك عادة بعد طباعته ونشره . حيث أراجعه لأصحح الأخطاء المطبعية وأعدل ما أراه مناسبا ، وأحتفظ بالنسخة المصححة جاهزة لطبعة جديدة إذا طُلبت .

كسرت هذه القاعدة فى رواية « إنه ميدان المعركة » ، لاحظت أن هناك مشهدين تسربا خطأ إلى الكتاب ، أهمها فقرة لا تمت أحداثها للحدث الرئيسي ـ ظلم عدالة الإنسان ـ حين يصطحب مفوض الشرطة مدير المباحث لاعتقال القاتل الرئيسي ، كان تصرفا غير مناسب من مفوض الشرطة ، وهكذا بعد ست سنوات من الطبعة الأولى للرواية سنة ١٩٣٤ ، بدأت أراجع الكتاب لطبعة جديدة شعبية (ذات غلاف ورقى) ، وحذفت هذا المشهد كله ، لكن حين نشرت الرواية فى طبعتها الجديدة ، وقرأتها ثانية ، تبين لى أن المشهد الذى حذفته أساسى فى الرواية وليس كما بدا لى من قبل ، وأن عنوان الرواية بدون هذا المشهد يفتقد إلى اعطاء الإحساس بالعنف والإضطراب ، وتصبح الاستعارة سياسية وليست ساخرة كما أردتها .

المشهد الثانى المزعج ، والذى يتطلب معالجة بحذف بعض الجمل وتغيير البعض الآخر ، كان مشهد إجتماع لأحد فروع الحزب الشيوعى للإصغاء لمحاضرة مستر ساروجات أحد الأعضاء المثقفين ، وقد سبق لى أن شهدت إجتماعا شيوعيا كبيرا مرة واحدة فى باريس سنة ١٩٢٣ فى وقت حملت فيه بطاقة عضوية فى الحزب لمدة أربعة أسابيع ، وهذه

التجربة غير كافية كأساس لمشهد بدا لى أنه يفتقد الأصالة .
من النادر أن أستخدم فى رواياتي شخصيات تتطابق مع أشخاص أحياء أعرفهم ، وإذا فعلت يكون ذلك فى الشخصيات الثانوية وليس الرئيسية ، لكن فى رواية ميدان المعركة كنت واعيا تماما لحضور ليدى مورين كخلفية لليدى كارولين فى الرواية ، وفكرتى عن ميدلتون مورى كانت مسئولة بشكل ما عن شخصية مستر ساروجات ، كما أن عمى جراهام جرين ، والذى كان سكرتيرا فى البحرية تحت إمرة تشرشل فى الحرب العالمية الأولى ، أعار قليلا من إستقامته وصلابته لمساعد الشرطة فى الرواية . بالطبع لم تكن لعمي تجربة فى الشرق الأقصى كالشخصية ، أو مثلى بعد عشرين سنة ، تنبؤ غريب !
إذا كان إستقبال هذا الكتاب ، الذى أضاف إلى فشلى فشلا آخر فى عيون الناشرين ، لم يحبطنى فذلك لأسباب ثلاثة :
الكلمة الممتازة التى كتبها ف . إس . برتشت عن الرواية ، كلمة مديح طيبة من أرزا باوند ، ثم الثناء الذى كتبه فورد مادوكس فورد .
ماذا يهم إذن بعد ذلك ؟ رأى المراجعين العاديين ؟ أو رأى القارىء المجهول ؟
لقد تلقيت ما يشجعنى ويحثنى على العمل ، ومازلت أعتقد أن الصفحات الستين الأخيرة فى الرواية ، ناجحة تماما كأى شىء كتبته بعد ذلك .

× × ×

٦

هناك نقطة ضعف فى قلبى تجاه روايتى الخامسة « انجلترا صنعتنى » (شعور لم يشاركنى فيه الجمهور) . ومع ذلك فلا أذكر عن ظروف كتابتها إلا القليل . أذكر تلك السنوات ٣٣ ـ ١٩٣٧ كسنوات وسطى لجيلى ، يظللها الكساد الذى ساد البلاد وألقى بظله على الكتاب ، إضافة إلى صعود هتلر إلى الحكم فى ألمانيا ، فكان من الصعب تلك الأيام الا يكون المرء ملتزما ، ومن الصعب أيضا أن تسترجع تفاصيل حياتك

الخاصة ، وميدان المعركة الهائل يعد حولنا ، لكنى اخترت موضوعات عن توأم (أخ وأخت) انتونى وكيت تدور فى ذهنيهما أفكار عن علاقة بينهما ، لكنها لم تصل إلى درجة الزنا بالمحارم ، تدور أحداث القصة فى السويد ، ولم أكن أعرف شيئا عن السويد ، وأعتقد أنها المناسبة الوحيدة التى إخترت فيها بلدا لا أعرفه عن عمد كخلفية لروايتى ، ثم زرته بعد ذلك ، مثل فريق الكامير ، لأخذ المناظر الثابتة .

(بعد سنوات عدة زرت الكونغو البلجيكى لسبب مشابه ، لكن الكونغو كان مصطلحا جغرافيا إخترعه المحتلون . فقد كنت أعرف إفريقيا السوداء من سيراليون ونيجيريا وكينيا وليبيريا) الصور التى إلتقطتها فى السويد كانت دقيقة بشكل جيد ، وتمثل ما أردته ، والآن وأنا أعرف ستوكهلم جيدا ، لا أخاف كثيرا عند إعادة قراءة الكتاب ، فاحتفالات منتصف الصيف ، وليلة رأس السنة حين يذاب الرصاص فوق النار للتنبؤ بالمستقبل ، والقطعة المعدنية التى ألقيتها فى الطاسة وشكلت علامة استفهام ، كل هذا لا يوجد فى الرواية ، ولا البط المتجمع على الجليد خارج جراند أوتيل ، أو طعم الجعة فى المسارح ، أو بحيرات داليكاريا ، ولا تلك الجزيرة فى الأرخبيل حيث كنت أخرج كل صباح لاحضار الماء للطهو ، وكرسى مرحاض يستقر فى ممر فى الغابة كشىء سريالى يطن الناموس حوله . هذه الانطباعات سويدية بالنسبة لى الآن ، وربما يصاب الإنسان بالأسى عند قراءته الرواية فهى كخطاب قديم يحتوى على تقدير سطحى لامرأة أحبها المرء منذ عشرين سنة .

لدى ذكريات قليلة عن تلك الزيارة التى قمت بها للسويد مع أخى هيج فى أغسطس ٣٤ ، أوضح تلك الذكريات والتى لم تمحها الأيام ، مرتبطة بسفينة مزخرفة برسوم دقيقة حملتنا من جتونبرج إلى ستوكهلم (والتى تخيلتها كخلفية لقصتى) تبادلنا أنا وأخى الغزل مع فتاتين إنجليزيتين إحداهما فى السادسة عشرة والأخرى فى العشرين ، وحين توقفت السفينة فى هويس ، سار كل منا مع فتاته . ولسبب غير مفهوم ، إنتابنا القلق لتأخر أخى فى العودة مع فتاته ، وكانت الأم – وهى سيدة مثقفة فازت مرارا فى المسابقات الأدبية لمجلة تايم أند تايد – مقتنعة بأن الإثنين قد غرقا فى القنال . وذات مساء فى ستوكهلم وعلى حدود البحيرة ، صفعتنى رفيقتى فى ظروف مشابهة كتلك التى صفعت فيها لو أنتونى فى

روايتى لقولى لها أنى أعتقد إنها مازالت عذراء .

بعد ذلك جلسنا باحتشام فى حديقة ستوكهلم العامة وسط الصخور الرمادية والأشجار الفضية ، لكن أغسطس ليس الوقت المناسب لرؤية ستوكهلم للمرة الأولى ، فقررنا الذهاب إلى أوسلو .

وأعجب الآن من تهورى فى رسم مشهد فى رواية فى مدينة لا أعرفها إلا قليلا . هل يمكننى الآن كتابة الرواية بشكل أفضل ، حيث أجد فى ذاكرتى نموذجا لكروج رجل الصناعة الذى رفض بعناد ـ فى تلك الفترة ـ أن يكون شخصية حية فى الرواية ؟ أشك فى ذلك . ففى معظم كتبى ، ومهما كنت أعرف المشهد الذى أكتبه جيدا ، تظل هناك شخصية ترفض بعناد أن تصبح شخصية حية ، وتوجد فقط من أجل الرواية . مثلا شخصية كروج فى إنجلترا صنعتنى ، خادم البار فى صخرة برايتون ، ويلسون فى لب القضية ، سميث فى نهاية المسألة ، الصحفى باركنسون فى حالة ميئوس منها . والحقيقة المؤسفة هى أن الرواية ليس فيها متسع إلا لعدد محدود من الشخصيات الرئيسية . لو حملتها بشخصية ناجحة أخرى ، تصبح كالقارب الذى يحمل أكثر من طاقته فيغرق . وهذا هو الخطر غير المتوقع الذى واجهته فى رواية « إنجلترا صنعتنى » ، كنت مقتنعا تماما برسمى لشخصية انتونى ، ألم أعاشره لعدة سنوات ؟ كان صورة مثالية لأخى الأكبر هربرت ، وكنت بنفسى قد شاركت فى كثير من تجارب انتونى ، ولقد عرفت « أنيت » الصغيرة اللاذعة التى أحبها انتونى ، وكنت مقتنعا « بكيت » شقيقة أنتونى ، والتى تبدو لى كأفضل شخصية رسمتها باستثناء سارة فى رواية نهاية المسألة . كان أنتونى وكيت هما قلبى الرواية ، وكروج كان هناك ليعالج قصتهما ، أما الآخرون فكانوا شخصيات ثانوية ولا ضرورة لشخصيات رئيسية أخرى .

وفجأة مال القارب لأن « منتى » صعد إلى السطح ، كان غير متوقع على الإطلاق حين انبثق من اللا وعى ، رجل يعيش فى الخارج على أموال تاتيه من الوطن ، قادم متأخر فى نهاية الجزء الثانى من الرواية ، لكن كيف حدث ذلك ؟ إفترضت من أجل إكتمال قصة أنتونى ، إنى احتاج لشخص من مواطنيه كى يكشف العنصر المحتال فيه ، ولم يكن فى نيتى أن أقدم شخصية ماكرة ، مثيرة للشجن أنجلو كاثوليكية ربما فكرت فى

تابع متواضع لسير جون بتمان ، لكنه سرق كل المشاهد التى لعب فيها دورا ، وسرق حتى كيت فى وداعها لجنازة أخيها ، وكانت له الكلمة الأخيرة ، لقد إمتعضت من هذه الشخصية ، ومع ذلك لم أستطع ان أسقطها .

كان الموضوع ـ بغض النظر عن الخلفية الاقتصادية للثلاثينات وتأرجح الراسمالية بين ازمة وازمة ، موضوعا بسيطا بعيدا عن السياسة . اخ وأخت على شفا الوقوع فى حفرة العلاقة بالمحارم .

ولقد دهشت حين قرأت أخيرا فى مجلة شهرية مقالا عن رواياتى الأولى ، ووجدت كاتب المقال ينبش هذا الموضوع ، ويتحدث عن الإبهام والغموض فى المعالجة ، وكيف أن الكاتب كان خائفا من موضوعه أو ربما غير واع لطبيعة هذا التعاطف بين الأخ وأخته، واستشهد بمقاطع من الرواية ليبين كيف ينقطع الحوار بين الاثنين فجأة فى لحظة خطرة ، لينتقل إلى اشياء لا علاقة لها بالموضوع وإتهمنى بالتهرب من الطبيعة الحقيقية لموضوعى.

كم هو خطر على الناقد الا يكون لديه وعى فنى بتركيب الرواية ، وكم كان هنرى جيمس محقا بمقدماته العظيمة لرواياته ، حين يحدد طريقة الروائى ووجهة نظره بما لا يدع مجالا للبس ، وبشكل يتعذر تجاهله أو إزالته ، لم يكن هناك غموض فى ذهنى وأنا أكتب الرواية ، كان الغموض فى ذهنى بطلى الرواية أنتونى وكيت اللذين إخترتهما للتعبير عن وجهة نظرى ، كان دائما على وشك اكتشاف حقيقة الرغبة التى تجتاحهما ، لكن غريزة حفظ النفس كانت تجعلهما يتفاديان ذلك بالحديث عن ذكريات زائفة أو غير كاملة أو عن موضوعات لا تتعلق بلحظة الكشف التى يرواغانها ، وكانت كيت أقرب إلى إدراك ذلك من أنتونى ، وقد استخدما حبهما الجنسى الغامض مع اشخاص اخرين ، كيت مع كروج ، وأنتونى مع لو ، ليتجنبا الشيء الحقيقى الذى أوشكا أن يقعا فيه .

المراوغة الجبانة التى يصفها الناقد ، لم تكن منى ، إنها تخص الإثنين بطلى الرواية .

* * *

٧

من الممكن أن تكون الصداقة من أهم الأحداث في حياة المرء ،. وإحدى سبل الهروب من روتين الحياة اليومية والاحساس بالفشل والخوف من المستقبل ، بالضبط كالكتابة أو السفر . من المؤكد أن لقائي بهربرت ريد كان حادثة مهمة في حياتي ، كان ألطف رجل عرفته ، لكن لطفه إختبر في أسوأ تجربة في جيله ، تجربة الحرب .

فلنتخيل ذلك الضابط الشاب ، الذي فاز بالصليب العسكري ووسام لشجاعته على الجبهة الغربية، يحمل معه لكل ذلك الطين والموت انطولوجيا روبرت بريدج « روح الإنسان » ، وجمهورية أفلاطون ورواية دون كيخوته . لا شيء تغير فيه ، إنه الرجل نفسه بعد عشرين سنة ، والذي يمكن أن يدخل غرفة مزدحمة بالناس ولا يلحظه أحد ، لكنك تحس أن جو النقاش قد تغير ، وأن علاقة الفرد بالآخر تغيرت ولم يعد حديث أحد يشد الإنتباه ، وتنظر حولك لتجد تفسيرا لذلك ، فتجده هو .. إستقامة وإخلاص مطلق نابع من تجربة كاملة ، دخل الغرفة وجلس على مقعد دون تطفل .

لا أذكر أين ولا كيف قابلته ، أعتقد أنه في سنة ١٩٣٥ السنة التي صدرت فيها روايته الوحيدة « الطفل الأخضر » ، وفي رواية أضعها وسط أعم قصائد هذا القرن مع رواية ديفيز جونز « بين الأقواس » .

كنت معجبا ومتحمسا لكتابة « أسلوب النثر الإنجليزي » والذي يجب أن يقرأه كل من يود أن يصبح كاتبا ، كما لم يكتب أحد معرفا وكاشفا شخصية وردزورث كما كتب عنه في كتابه « وردزورث » ، أما كتابه « العين البريئة » عن طفولته في يوركشير ، فهي واحدة من أعظم السير الذاتية في اللغة الانجليزية .

أعظم شخصيتين في شبابي كانتا هربرت ريد ، وت . س . اليوت (فهما يعنيان لي أكثر من جيمس جويس ، أما أزرا باوند فكان دائما بعيدا جدا بحيث لا يتأكد المرء من تواجده في مكان ما في لحظة ما) .

لم تكن لدي الجرأة للاقتراب من اليوت وريد وحدي ، ماذا سيثير

إهتمامهما فى روائى شاب وغير ناجح ؟

وهكذا كانت المصادفة هى التى قادتنى إلى لقائى الأول بريد ، لقد غمرنى الفخر والإندهاش وقليل من الرهبة حين تلقيت دعوة على العشاء من هربرت ريد .

« اليوت سيأتى ولكن لا أحد غيره ، وكل شىء سيكون طبيعيا دون رسميات » .

كنت كمن تلقيت دعوة من كوليردج يقول فيها « وردزورث قادم ولا أحد غيره » .

أوضح لى كيف أصل إلى منزله بإرشارات دقيقة مع خريطة صغيرة تبدو كأنها رسم لخندق على الجبهة الغربية على ورقة قطعت من مفكرة ضابط شاب ، ثم تتغلب عليه بساطة الرجل الريفى مؤلف العين البريئة وهو يقول « أعنى بالمدق حجر ضيق عبر بوابة مزدوجة » ، وشعرت أنى قريب من يوركشير أكثر من حديقة بلسايز القريبة .

بعد سنتين وحين أصبحت محررا مشاركا فى المجلة الإسبوعية « الليل والنهار » ، وإنتابتنى الجرأة أن أطلب من مؤلف « الفن الآن » أن يكتب لى مراجعات منتظمة للروايات البوليسية ، ولقد وافق فورا . (على ذلك العشاء مع اليوت تحدثنا عن أرسين لوبين ، وهو موضوع جعل اليوت يسترخى ويأخذ راحته فى الكلام وهو يشعر أنه بمأمن من السيدات اللواتى يرحن ويجئن يتحدثن عن مايكل أنجلو) .

أول مراجعة كتبها أرفق بها أبياتا من الشعر بالحبر الأحمر تحية لى سعدت بها جدا . أتمنى يوما أن أرى هذه المراجعات منشورة فى كتاب ، فهى تعطى صورة أخرى لهربرت ريد تختلف عن الصورة المألوفة لريد المثقف ، كانت أول مراجعة فى ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ عن رواية دوروثى ساير « شهر عسل سائق الباص » وتحتوى على نقد عنيف للرواية تستحقه ، كان عطوفا مع بيتر شينى ثم أصبح يتحامل على رواياته ، ولكن كان يكن الود لروايات أجاثا كريستى .

أعتقد صادقا انه كان يستمتع بكتابة تلك المراجعات أكثر من كتابته تلك السلسلة الطويلة من كتب الفن التى أخفت عن عيون الكثيرين موهبته الشعرية الفذة ، ونقده الأدبى ، وكونه كاتب سيرة ذاتية ممتازا .

وكان يعرف أنى لا أهتم كثيرا بكتبه عن الفن ، ولم يكن يستاء من

ذلك ، حتى حين وضعت مشاعرى تلك مطبوعة ، كان كل ما علق به ، جملة كتبها « لقد جعلت خبزى وزبدى تفه المذاق » .

مراجعاته فى مجلة الليل والنهار ، كانت بالنسبة اليه ـ على ما أظن ـ إجازة من كتاباته الجادة ، وكان مزاجه المرح يسرى فيها لينفجر بحدة وهو يستشهد بكلمات مؤلفين من الدرجة الثانية لم يتعلموا بعد دروس « أسلوب النثر الانجليزى » .

باالخسارة ، إنتهت مجلة الليل والنهار فى أواخر عام ١٩٣٧ ، وكان هربرت ريد قد بدأ يظهر ككاتب ساخر فى مقاله « حياة بلا لبيسة احذية » تحت اسم جيمس مارجاترويد ، ولقد إعترضت على هذا الإسم المستعار ، وطلبت منه أن يكتفى بالتوقيع باسم مارجاترويد ، لكنه كتب لى يقول « إنه إسم حقيقى تماما ، ولو ولدت فى الغرب بدلا من الشمال لربما كان ذلك إسمى ، وهل يضر لو أعطيته إسما مسيحيا مثل جيمس ؟ على أية حال أرفض أن أوقع باسم برترام ميد مثلا ، عرفت مرة رجلا فى وزارة العمل إسمه كذلك ، أريد شيئا فكها ، مثيرا للذكريات بشكل غامض ، يمشى بعيون برمائية ناتئة ، متعب وصبور كضفدع فى تيار هواء . إذا أمكنك الانتظار ليوم الثلاثاء . فسأحاول أن أفكر باسم بديل ، لكن إذا كان لابد من الاستمرار مع هذا المخلوق فليكن له إسم ملهب مثل مارجاترويد .

وهكذا فقد كان يخطط لسلسلة من المقالات الساخرة ، لو أتمها لكان عندنا كتاب ثرى على غرار كتاب « يوميات لا أحد » ، أمن الممكن أن توجد بعض هذه المقالات بين أوراقه ؟

إكتب فيما يبدو عن أشياء تافهة ، لكن حين يحب المرء رجلا كما احببته ، فإن هذه الأشياء الصغيرة هى التى ينساها الآخرون أو لم يعرفوها أصلا ، وهى التى ترد على الذهن قبل إنجازاته الخالدة : الطفل الأخضر ، وردزورث ، نهاية الحرب ، التجربة المتناقضة ، وذلك المقال الذى تحدث فيه عن الهوى المسيطر الذى يربط هذه السير الذاتية بخيط من الصلب : البحث عن المجد . « المجد كلمة تشوهت سمعتها ، ومن الصعب أن نعيد لها هذه السمعة ، لقد فسدت لربطها الشديد بالعظمة العسكرية ، لقد إختلطت معانيها مع الشهرة والطموح ، لكن المجد الحقيقى هو فضيلة خاصة ، تدرك تماما فى العزلة والوحدة ؟

لقد عرف المجد العسكرى من الخطر وبؤس خط النار الأول ، وحين جلجل الجرس فى كانتربرى فى ١٩١٨/١١/١١ معلنا النصر ، استدار الى الحقول بقلب خائف حذر ، وإبتعد عن كل إتصال إنسانى ، كان يسير فى إتجاه المجد الذى يعرف فى العزلة ، ويحققه أخيرا فى السنوات الأخيرة بين التلال والمستنقعات وهو يصغى إلى تيار طفولته فى كتابه « العين البريئة » .

لا شىء يمثله أفضل من نهايته المؤلمة ، ربما كانت معاناة الشاب الصغير فى فرنسا من الغاز وإنفجار القنابل ، أقل من معاناته فى نهايته . لكن الشجاعة فى مواجهة سكرات الموت لم تنقص خلال خمسين عاما ، وإحساسه العميق بالسعادة السماوية الذى أحسه فى بدايته كصبى وحيد فى شارع ليدز ، ظل محتفظا به خلال معاناته القاسية فى النهاية . حدق فى الموت بالعيون نفسها الواضحة الناقدة الطيبة التى يلتفت بها إلى صديق ـ فى الأشهر الأخيرة من حياته كان يخطط ـ بعد أكثر من عملية جراحية ـ أن يسافر ويمكث فترة فى بيت صغير كنت أملكه فى « أنا كابرى » ، ولقد كتب لى مرارا وبحميمية فى تلك الفترة أكثر من أى وقت مضى « يسيطر علىّ فكر فرويد ، هل قرأت كتاب جونز عن حياته ؟ أنا فى الحالة نفسها التى كان يمر بها وفى المكان نفسه .. لا أعتقد انى اهتم بما بقى لى من سنوات على الأرض ، كل ما يشغلنى هو ترك لودو وحيدا . لكنى أريح نفسى بفكرة أن لدينا أطفالا مخلصين » .

ثم جاء الخطاب الأخير فجأة ، أخر ما كتب ، ليقول لى أنه تخلى عن فكرة الإقامة فى أنا كابرى « إستفحلت بداخلى تدريجيا روح لورينز وسأحج إلى هناك فستكون علاجا شافيا » . الاشارة إلى « لورديز » حيث تجلت العذراء ، من هذا الأكثر إيمانا بين اللا مؤمنين ، ولم يكن مدهشا لى .

الم يكتب فى سيرته الذاتية عن ركن اساسى آخر يعبر عن فكرته عن المجد أو السعادة السماوية « فى لحظات معينة يحمل المرء بعيدا عن نفسه العاقلة ، إلى مجال أخلاقى آخر ، حيث يحكم على أعماله بمقاييس جديدة ، والدافع الذى يحركه إلى عمل لا يتفق مع العقل اسميه حس المجد » .



١

كلما رجعنا لبحث الماضى ، زاد تراكم الوثائق الخاصة به ، وتنامى الإحساس لدينا بعدم الرغبة فى فتحها ونفض الغبار عنها . بالنسبة لشخص غريب تبدو هذه الوثائق مفيدة ، يوميات مكتوبة بقلم رصاص ، رسالة من أفريقيا خطها قلم كاتب عمومى بحروف « مشخبطة » وفقا لصيغة معينة ، قصاصة عليها كتابة يتعذر حل رموزها وجدت فى كوخ .

والمرء غير واثق بأن الذاكرة من الممكن أن تنتعش ، وكلما تقدم الإنسان فى العمر تصبح الذكريات القديمة مؤلمة ، تحوم حوله بتداعياتها الكثيرة ، كبيوت العنكبوت فى غرفة تركها قاطنوها منذ سنوات .

فى سنة ١٩٣٥ اندفعت لأحيى موضوع كتابى التالى « رحلة بلا خرائط » ، منذ ٤٥ سنة كان يمكننى العزف بسعادة بالغة على أبعد الذكريات وأكثرها غموضا فى طفولتى ، لم تكن الأحداث باهتة وبعيدة كما تبدو الآن .

كانت تلك الفترة ، مرحلة انجرف فيها الكتاب الشبان للقيام برحلات متعبة بحثا عن مادة غريبة ، فذهب بيتر فليمنج إلى البرازيل ومنشوريا ، ايفلين وو إلى غيانا البريطانية واثيوبيا ، وتأجلت رحلاتنا إلى أوروبا ، فقد بدت وكأن المستقبل كله لها ، فهى يمكن أن تنتظر ، وكانت صدمة لنا سنة ١٩٤٠ أن نرى باب أوروبا قد أغلق فى وجهنا ، وكانت لدى ذكريات عن المكسيك وليبيريا أكثر مما لدى عن فرنسا ، وبالنسبة لايطاليا ، كل ما أعرفه عنها ليلة قضيتها فى نابولى ، كنا جيلا نشأ على قصص المغامرات ، وفاتنا التحرر من الوهم فى الحرب العالمية الأولى لصغر السن ، فذهبنا نبحث عن المغامرة ، واعتدت فى صيف ١٩٤٠ أن اقضى ليالى السبت فى ساوث أند توقعا لغارة جوية ، دون أن أدرك انى بعد بضعة أشهر سآخذ كفايتى من الغارات على لندن ليلا ونهارا . فى ذلك الوقت ، ١٩٣٥ ، لم أكن قد خرجت من أوروبا ، بل لم أكن قد غادرت انجلترا إلا فيما ندر ، وأن أختار ليبيريا للسفر إليها ، وأورط إبنة عمى بربارا ، وهى فتاة فى الثالثة والعشرين ، فى هذه المغامرة ، عمل أقل ما يوصف به أنه عمل متهور .

ويمكن تفسير دعوتى لها لمرافقتى ، بأنى كنت قد سكرت تماما فى حفلة زفاف أخى « هوج » ، ولم أتصور قط أنها ستقبل هذه الدعوة .

وبذلت قصارى جهدى بعد ذلك ، لاثنيها عن عزمها وتثبيط همتها ، أرسلت لها تقريرا صادرا عن عصبة الامم يشرح الأحوال السيئة داخل تلك المناطق ، وعن الأمراض المجهولة التى تفتك بالناس ، وعن حملة الكولونيل ديفيز الوحشية ضد قبائل الكرو ، وعن تصدير العبيد الذى قام به الرئيس كنج إلى فيرناندوبو ، لقد جعلنى التقرير عصبيا ، كما أن وصف السير هارى جونستون لرحلاته داخل تلك البلاد ، والصعوبات المتواصلة التى واجهها مع الحمالين الذى كان يستأجرهم من قرية إلى أخرى ، جعلنى أدرك أن الرحلة ستكون مغامرة قاسية وعسيرة على شاب لم يذهب أبعد من أثينا فى رحلة للآثار الهللينية ، وشعرت بحاجتى إلى

رفيق ، ولكن حين ذهب تأثير الشمبانيا ، ذعرت من اختيارى لهذا الشريك .

لحسن الحظ ، أن ابنة عمي لم تتأثر بقراءة المادة التى أرسلتها لها ، أقول لحسن الحظ لأنها أثبتت انها رفيقة جيدة بقدر ما سمحت به الظروف . وكلما فكرت بالشجارات التى كان يمكن أن تنشب بينى وبين رفيق من الرجال .. أرتعد ، لقد تركت لى ابنة عمى اتخاذ كل القرارات ولم تنقدنى حتى حين أتخذ قرارا خاطئا ، ولاختلاف الجنس كنا مضطرين أن نسيطر على أعصابنا المتوترة ، قرب نهاية الرحلة كنا نلتزم بفترات طويلة من الصمت ، لكن ذلك أفضل من النقاش والأصوات المرتفعة . شيء واحد فقط خيبت فيه ظنى ، أنها كتبت كتابا عن رحلتها تلك ، لكن كرمها كان واضحا فى ذلك أيضا ، فقد انتظرت عدة سنوات حتى نشرت كتابى (الذى اختفى فقد سحب نتيجة لانذار بالقذف من طبيب مجهول) ، ثم نشرت كتابها « أرض داهمها الليل » . لم أعرف انها كانت تكتب ملاحظاتها أثناء الرحلة ، فقد كنت مشغولا بملاحظاتى . قبل أن أبدأ كتابة الكتاب ، بدا لى الأمر سهلا ، لكن حين عدت وواجهت المادة التى أعددتها ، داهمتنى لحظة من اليأس ، ورغبت فى التخلى عن المشروع . يوميات كتبها شخص متعب بقلم رصاص فى حوالى ثمانين صفحة كوارتر من كراسة مفككة ، قطعة ورق دونت عليها حسابات الحمالين التى دفعتها (رئيسهم يأخذ عادة ٩ بنسات ومعظم الآخرين ٣ بنسات فى المرة الواحدة) ، بعض ملاحظات من حاكم مقاطعة تابى تى . ومن الكولونيل ديفيز آمر قوات الحدود الليبيرية ، بعض النشرات السياسية فى منروفيا ، مختارات من الصحف الليبيرية ، بعض السيوف من قبائل البوارى ، وآلات موسيقية (ضاعت وكانت ذات قيمة آنذاك) ، عدة صور فوتوغرافية إلتقطت بكاميرا كوداك قديمة صغيرة ، وذكريات عن الجرذان ، وعن الاحباط ، والملل العميق فى رحلة الغابة الطويلة البطيئة ، كيف يمكننى أن أكتب كتابا فى كل ذلك ؟ ولكنى أنفقت كل ما أعطانيه ناشرى من نقود وقدرها ٣٥٠ جنيها ، ولن أستطيع أخذ المزيد حتى أنهى الكتاب .

المشكلة التى كانت تتطلب حلا قبل الكتابة ، كانت أساسا مشكلة الشكل . كنت مشبعا بالكتب التى تسير على وتيرة واحدة مملة من الألف

إلى الياء ، هذا الكتاب لا يمكن أن يكتب بطريقة كتاب رحلة إلى أوروبا ، فليس هناك مبان معمارية يمكن وصفها ، ولا تماثيل مشهورة ، ولا هو كتاب سياسي كما كان كتاب أندريه جيد « رحلة إلى الكونغو » سياسيا ، ولا هو كتاب مغامرات على غرار كتب بيتر فيلمنج ، لو كان الكتاب مغامرة فهو مغامرة ذاتية فقط ، ثلاثة شهور من الصمت الفعلي ، في بعدك عن أن يتصل بك أحد . أعطاني هذا التفكير مفتاحا إلى الشكل الذى أحتاجه ، هذه الرحلة ـ البطيئة التي تقرح القدمين من المشى في مناطق داخلية غير معروفة ـ ستكون مثيرة للإهتمام فقط إذا وازتها رحلة أخرى . وانها ستفقد تفاهتها بكونها يوميات لرحالة فقط ، إذا اصبحت شخصية تماما .

وليست ميزة أن يكون ـ الأنا ـ الراوى في هذا الكتاب شخصية غير خيالية ، والطريقة الوحيدة للتعامل مع الأنا هو أن تجعله مجردا ، وعلى ما يبدو فقد تجاهلت رفيقتى في هذه الرحلة وزودت السرد الذى بلا أحداث بالذكريات ، والأحلام وتداعي الأفكار ، وإذا أصبح الكتاب أكثر ذاتية من ناحية ، فقد أضحت الرحلة أكثر عمومية إذا صدقنا كلام يونج بأننا نتقاسم أحلامنا . لم يكن هذا الشكل جديدا بالنسبة لى ، فإن فكرة كتابة كتاب من الألف إلى الياء كانت دائما تخيفنى ، فالتسلسل الرتيب يزعجنى ، ودائما اكسر استمرار أو تواصل القصة بذكريات شخصيتى الرئيسية ، بالضبط كما أفعل الآن بكسر تواصل الرحلة بذكريات الأنا عنها .

مرت أكثر من أربعين سنة منذ كتبت ذلك الكتاب ، ولا أستطيع الآن تحمل قراءته كاملا مرة ثانية (آخر مرة قرأت فيها الكتاب بدقة كانت سنة ١٩٤٥ بعد عودتى من مدينة فريتاون حين كتبت مقدمة لطبعة جديدة) .

فكرت الآن أن أقوم بتجربة نفسية صغيرة ، توضح كيف أن حادثة مسجلة في يومياتي ، قد تغيرت عند كتابتي للكتاب ، ثم كيف بدت هذه الحادثة نفسها من وجهة طرف ثالث هو ابنة عمى . ثلاثة أطراف لأنى أنا كاتب اليوميات غير أنا كاتب الكتاب ، لقد كنا شخصين مختلفين .

قرب نهاية الرحلة ، بين جانتا والبحر ، وقعت مريضا . كنا لا نمشى أقل من ١٥ ميلا في اليوم ، وكنت غير معتاد على الجو الذى كان حارا

خانقا خلال ساعات النهار ، وفى الليل تكون البرودة شديدة حتى أن بطانيتين لا تكفيان رغم نومنا داخل كوخ من أكواخ سكان المنطقة .

أصررت على المشى ، لأن الأمطار كانت تهددنا ، وإذا هطلت يصبح من الصعب اجتياز وسط ليبيريا ، لم تدرك ابنة عمى ضرورة الإسراع ، وظنت ان هذا المشى الذى أجبرها عليه هو أحد أعراض توترى العصبى المرتبط بمرضى ، وذات ليلة عند وصولنا لاحدى القرى وقعت مريضا . وهذا ما وجدتنى قد كتبته فى يومياتى :

« يوم طويل متعب حتى وصلنا بلدة زيجى ، بدأنا الساعة ٦,٤٥ واستغرقنا ثمانى ساعات ونصف الساعة فى رحلة طويلة بطيئة سيرا على الأقدام ، بط فى بركة ماء . ارتفعت درجة حرارتى وذهبت إلى الفراش . ارتفعت أكثر وأنا فى الفراش . كنت أعرق طوال الليل وأنا أنام عاريا وسط البطاطين . أخذت جرعة قوية من أجل معدتى . عاصفة رعدية . ظل على الناموسية ، مصباح الأعصاير بضوئه الشاحب ، زجاجة الويسكى الفارغة فوق صندوقه المجوف » .

لم أكتب الكثير ، لكن يوميات اليوم التالى كانت أقل :

« العلبة الأخيرة من البسكويت ، العلبة الأخيرة من اللبن ، القطعة الأخيرة من الخبز » .

فلنقرأ ما كتبته ابنة عمى فى كتابها عن تلك الليلة التعيسة :

« كان جراهام يترنح حين وصلنا بلدة زيجى . يتعثر كأنه مخمور . لا يتركه الحمالون يستريح طالما بقى مستيقظا ، كالعادة يأتون إليه بكل مشاكلهم ، رتبت الأمر باقناعه بالذهاب إلى الفراش ، حرارته مرتفعة جدا ، أعطيته المزيد من الويسكى وأملاح ابسوم ، وغطيته بالبطاطين راجية الله أنى أفعل الصواب .

تعيشت وحدى بينما صوت الرعد يدوى ، وكان الأولاد يخدموننى بوجوه مقطبة ، فالفكرة نفسها تدور فى أذهاننا جميعا ، جراهام سيموت ، ولم أشك لحظة واحدة فى ذلك ، فهو يبدو كالميت فعلا ، الجو العاصف أصابنى بالصداع وأصاب أعصاب الرجال بالتوتر ، كنت أسمعهم يتراشقون بالكلمات اللاذعة ، ولم أتدخل .

قست درجة حرارة جراهام ثانية ، وجدتها قد ارتفعت أكثر ، واستولى على هدوء غريب لفكرة موت جراهام ، وذعرت لعدم احساسى بأية مشاعر

نحو موته ، وأوحى لى عقلى انى مضطربة وغير طبيعية ، لكنى بالفعل كنت متعبةجدا ، وساعدنى على ذلك التركيز على الجانب العملى من المسألة ، كنت عاجزة عن الإحساس بأى شيء آخر . خططت بهدوء كيف سأدفنه ، وكيف يمكننى الوصول إلى الشاطىء ، وإلى من سأرسل برقيات ، لم أكن خائفة من الإستمرار وحدى ، لأنى أدرك انه بوجود الدليل « أميدو » ساكون آمنة تماما . أقلقنى أمر واحد فقط وبشكل غير طبيعى ، جراهام كان كاثوليكيا ، وخطر على ذهنى المضطرب المتعب انه يجب أن أوقد شموعا ، ولا أدرى لماذا ، لكنه إحساس غامض انتابنى بأن روحه لن تجد السلام إذا لم افعل ذلك . وشغلت ذهنى هذه الفكرة طوال الليل ، وبدت لى مهمة لدرجة كبيرة .

خرجت أتمشى فى القرية ، كانت قرية صغيرة وجميلة ، أستمتع بمشاعر الود التى يبديها الأهالى نحوى ، جاء معى لأمينا ومارك ، اخبرتهما أنى فى حالة لا تسمح لى بالحديث ، وبقهم يحمدان عليه تراجعا عشر ياردات خلفى ، مسافة تعطينى احساسا بأننى وحدى ، وفى الوقت نفسه تشعرنى بأنهما هناك لحمايتى . وبقى أميدو قريب جراهام على مسافة تتيح له أن يسمعه لو تكلم .

كانوا جميعا يبذلون جهدهم لاشعارى انه مهما حدث فهم لم ينسوا انهم أعطوا كلمة فى فريتاون بحمايتنا حتى نهاية الرحلة . وفى تلك الليلة فقط ، فى قرية زيجى ، أدركت كم انا مهتمة بهؤلاء الأولاد ، وكم هم أصدقاء مخلصون ومفيدون ، وانفجرت العاصفة ، فأسرعت إلى الكوخ والمطر ينهمر . كان الكوخ كبيرا وينقسم إلى غرفتين ، قبل ذهابى إلى الفراش ألقيت نظرة على جراهام ، كان فى إغفاءة قلقة ، يتمتم لنفسه ، وغارقا فى عرقه .

فى الصباح ، ولدهشتى الكبيرة ، وجدت جراهام لم يمت ، ذهلت وحملقت فيه للحظات دون كلام . دخلت غرفته متوقعة أن اراه يهذى أو يعانى سكرات الموت ، لكنى وجدته مستيقظا ومرتديا ملابسه ، كانت خدوده غائرة ، وهالات سوداء تنتشر تحت عينيه ، ولحيته القصيرة لا تضيف جمالا لصحته المتوعكة ، لكنه كان اكثر طبيعية ، فقد اختفى البريق الغريب القاسى الذى لمع فى عينيه فى اليوم السابق ، قست درجة حرارته فوجدتها دون المعدل الطبيعى ، قال : يجب أن نسرع بالسير فأنا

بصحة جيدة .

سألته : ألا تستريح ليوم واحد فقط ؟

قال بنفاد صبر : لا . يجب أن نهبط إلى الساحل . كان يتوق للوصول إلى الساحل كالحاج الذى يتوق للوصول إلى المدينة المقدسة .

خرجت وجمعت الأولاد وسألتهم عن المسافة إلى « جراند باسا » .

قال مارك : يومان ، وقال لامينا : أسبوعان .

قلت يا إلهى وسألت رئيسهم كم تبعد جراند باسا ؟ ابتسم ابتسامته الغامضة الجميلة وقال بلطف : بعيدة جدا .

وردد الحمالون ككورس غاضب : « بعيدة جدا .. بعيدة جدا » .

لابد لى أن أعترف ان سرد ابنة عمي أكثر احتفاظا بشكل قصة المغامرة من بضعة الأسطر التي كتبتها بالقلم الرصاص ، لأن الرحلة العبثية التى بدت لى مملة جدا آنذاك ، كانت عند استعادتها تبدو كمغامرة لشاب فى الحادية والثلاثين لم يسافر قط إلى افريقيا . وفتاة مثله فى الثالثة والعشرين . ولكن كيف كان انعكاس هذا الحدث على « الأنا » الثاني حين رويته فى الكتاب ؟

وجدت لدهشتي – لأني الآن لا أذكر إلا القليل عن تلك الليلة – أن الأنا قد شاركت ابنة العم خوفها ، هاهي ذى الفقرة التى كتبتها فى كتابى « رحلة بلا خرائط » عن تلك الليلة :

« لا أذكر شيئا عن الرحلة الطويلة البطيئة إلى قرية زيجى ، وأذكر القليل عن الأيام التالية . كنت منهكا لدرجة أني لم اكتب إلا أسطرا قليلة فى يومياتي . آمل ألا اكون متعبا بهذه الدرجة مرة ثانية . أذكر انطباعا عن غابة لا نهائية ، وتلال تبرز فجأة حتى يمكننا أن نلمح من فوقها طرف الغابة الضخمة كحوت كبير يتجه إلى الشاطىء . وهناك مجرى ماء خارج بلدة زيجى يشق منحدرا ، وبضع بطات تعوم تضفى جوا انجليزيا حولها بشكل مدهش ، اذكر أنى حاولت أن أجلس لأستريح قليلا لكن كان على أن اتعامل مع زعيم البلدة من أجل الطعام للحمالين ، وحين حاولت أن استريح ثانية أجبرت أن أؤجل ذلك للبحث عن قطع النقود من ذات الثلاثة بنسات (حيث أن الحمالين فى ليبيريا لا يعرفون قيمة أعلى منها .. كما انهم يطلبون أن يكون على القطع صورة الملكة فيكتوريا) التى يحتاجها الطباخ لشراء دجاجة ، واضطر للقيام ثانية

لأعالج تقرحات فى قدم أحد الحمالين ، لم أستطع الوقوف بعد ذلك ، شربت ملعقتين من ملح ابسوم مع كوب من الشاى الثقيل (أنهينا حليبنا المعلب منذ فترة طويلة) وتركت لأبنة عمى معالجة أى مشكلة تثور .

كانت درجة حرارتى عالية ، ابتلعت عشرين حبة من الكوينين مع كأس من الويسكى ، خلعت ملابسى ولففت نفسى بالبطاطين تحت الناموسية وحاولت النوم .

هبت عاصفة رعدية ، وهى الثالثة التى تواجهنا فى أيام قليلة ، لم يكن لدينا وقت لنضيعه إذا أردنا وصول الشاطىء فى وقت مناسب . استلقيت فى الظلام خائفا كما لم أكن من قبل . لم يكن هناك جرذان ، لكنى أمسكت ببرغوث ضخم عند أصبع قدمى الكبيرة حين حاولت تجفيف نفسى ، فقد كنت أعرق كما لو أنى مصاب بالانفلونزا ، لم أبق جافا لأكثر من ١٥ ثانية ، لم يكن حولى سوى المصباح الذى يرسل ضوءا خافتا فى صندوقه المجوف . وبجانبه زجاجة ويسكى قديمة مملوءة بالماء الدافىء المقطر .

الحت على ذكرى فان جوخ وجسمه يشتعل بالحمى ، قال إن عليك أن تبقى مستلقيا أسبوعا على الأقل فلا خطر من الملاريا إذا استلقيت فترة كافية ، لكنى لا أحتمل فكرة البقاء أسبوعا هنا ، الملاريا أو غيرها لابد من السفر فى اليوم التالى ، وكنت خائفا .

لم تدعن الحمى أنام على الاطلاق ، ولكنها فى الصباح كانت قد خرجت مع العرق ، وغدت درجة حرارتى دون المعدل الطبيعى ، والأهم أن الملل الذى انتابنى فى رحلة السير الطويلة البطيئة كان قد زال ، كما اكتشفت أثناء الليل ، شيئا لفت انتباهى ، واثارتى ، اكتشفت انى أحب الحياة ، وكنت أظن قبل ذلك انى أرغب فى الموت ، وبدا لى تلك الليلة أن هذا اكتشاف مهم ، بدا لى انه تحول فى شخصيتى ، ولم يسبق لى أن جربت تحولا من قبل (لم أتحول إلى الإيمان الدينى بل اقتنعت عقليا بمناقشات نوعية معنية بذلك) .

لو لم تكن تلك التجربة جديدة على ، لعرفت انها لن تستمر ، وحتى لو استمرت فلن تكون أكثر من ذرة صغيرة مترسبة فى قاع المخ ، ولكن لهذه الذرة قيمة ، فتذكرها يعطى بعض القوة فى حالة الطوارىء ، يمكننى القول وقتها انى فى بلدة زيجى قد اقتنعت تماما أن مجرد الحياة

فقط شيء جميل ومرغوب فيه » .

هل تعلمت درس بلدة زيجي ؟ أشك في ذلك .

كان من عادة الروائيين الفيكتوريين أن يعطوا موجزا لمصائر شخصياتهم الثانوية ، بالنسبة للشخصيات في هذا الكتاب لم أفعل إلا القليل ، وهذا القليل لم يكن سارا ، لا مواليد ولا زيجات سعيدة . بعد ست سنوات حين عدت إلى فريتاون زمن الحرب ، قابلت يوما « لامينا » . لم يعد ولدا صغيرا يلبس الشورت ويضع على رأسه « كابا » مزينا بشارة قرمزية ، كنت قد بحثت عبثا عن « اميدو » الذي كان مشرفا على الأولاد ، الذي جعل الرحلة ممكنة وكان بالنسبة لي بلا أخطاء ، لكن أول ما سألت عنه كان الطباخ العجوز الذي لم استطع تذكر اسمه ، والذي كنت أراه فقط كشبح في لباس طويل أبيض يتلاشى ببطء وهو يخطو عبر الدغل وفي يده سكين المطبخ ، فكرت بأنه لابد أن يكون عجوزا جدا هذا لو كان حيا ، قال « لامينا » منفجرا بالضحك من سخرية الحياة : الطباخ العجوز بخير ولكن « اميدو » مات .

ثم شخصية أخرى عرفتها ، ذلك الألماني الغامض الذي ظنه مدير البوليس في كايلاهون خطأ دليلا من ليبيريا جاء ليرشدنا إلى « بولاهن » .

« مرت فترة طويلة قبل أن يفكر أحد في سؤاله إذا كان هو الدليل الليبيرى ، ولكنه لم يكن ، اختفى الدليل الحقيقى ، والغريب أن الألمانى كان يبحث عن مكان ينام فيه ، أسقط في كايلاهون وكأنها قرية ألمانية فقط كان متأكدا أن بوسعه أن يجد فندقا ، كان بريئا وكتوما ولطيفا ، قال انه جاء من الجمهورية وهو عائد إلى هناك ، ولم يعط سببا لماذا جاء ولماذا يعود ، أو ماذا يفعل في أفريقيا على الاطلاق . اعتبرته منقبا عن الذهب ، لكن ثبت أخيرا أن ليس له علاقة بالتعدين لا في الذهب أو الماس ، كان فقط محبا للمعرفة وجاء ليتعلم . يجلس في كرسيه لا يلقى بالا إلى أحد ، وإذا سألته سؤالا يضحك ضحكة مبتسرة ولا يرد (فتظن أن سؤالك سخيف أو غير معقول) ، ثم يجيبك بعد أن تكون قد نسيت السؤال . كان صغير السن على الرغم من لحيته ، وكان يثير حوله جوا ارستقراطيا رغم لباس البحر الذى يرتديه ، كان أحكم من أى فرد منا فهو الوحيد الذى كان يعرف ما الذى يريد أن يتعلمه ، ويعرف مدى حدود جهله بالضبط . كان يتحدث بلغة المندو ويتعلم لغة قبائل البوزى ويتكلم قليلا

من لغة البيلى .. وكل ذلك يستغرق وقتا » .

ومرت سنوات كثيرة قبل أن أعرف مصيره . ووصلتنى أخباره غامضة كأفعاله ، كان ذلك سنة ١٩٥٥ ، كنت أجلس فى فندق فى بلدة كراكو فى بولندا ، أشرب مع روائى بولندى وأتحدث بحذر ، لم يكن جومولكا قد استلم السلطة بعد ، كانت ماتزال بولندا الستالينية ، كان الوقت متأخرا ، وقد جفلنا حين دخل رجل علينا ، فقد خطر بذهننا الإنطباع نفسه انه البوليس السرى ، كان واضحا أن الرجل ألمانى ، نظر إلينا واحدا بعد الآخر ثم سألنى : مستر جرين ؟ قلت : نعم .

قال : أنت عرفت أخى فى ليبيريا .

بحثت فى ذاكرتى عبثا ، قال : سار معك إلى بولاهن . تذكرت وسألته أين هو الآن ؟ قال : لقد قتل على الجبهة الروسية سنة ١٩٤٣ .

واضطرنى الذوق أن اطلب منه أن ينضم إلينا على زجاجة الويسكى ، فلم تكن لدى الرغبة فى الجلوس مع ألمانى فى بولندا وذكرى الحرب تحوم فوقنا ، رغم أن رفيقى الروائى والذى كان ضابطا بولنديا وعضوا فى المقاومة السرية ، كان أقل حساسية من رفقة الألمانى ، كنا قد ذهبنا ذلك اليوم إلى « زاكوبين » وأخبرت الرجل بذلك فعلق على جمال المكان بقوله : « مكثت هناك سنتين أو ثلاثا خلال الحرب » قالها بطريقة عرضية كانجليزى يتحدث عن اجازة قضاها فى سويسرا . وأثبت الرجل انه غامض كأخيه ، من الغريب أن يمكث جندى ألمانى فى مكان واحد هذا الوقت الطويل أثناء الحرب ، لكن كانت هناك مهمات أخرى غير الجيش للألمان فى تلك الفترة . وسألته : ولماذا رجعت إلى بولندا ؟

قال : لأرسم لوحات .

٢

أربع سنوات ونصف السنة من مشاهدة الأفلام عدة مرات أسبوعيا ، أكاد لا أصدق هذه الحياة فى تلك الأيام البعيدة من الثلاثينات . طريقة حياة تكيفت معها برغبتى تماما وباحساس من المتعة . أكثر من أربعمائة فيلم وكانت ستصبح أكثر ، لو لم أعان فى

الفترة نفسها من ضغوطات أخرى . كان لابد من انجاز أربع روايات عدا كتاب رحلات عن المكسيك أخذني بعيدا عدة أشهر عن تلك المتع الساحرة من الترف والتبذير ، وأتساءل متعجبا كيف كتبت كل تلك المراجعات لتلك الأفلام .

أذكر حين كنت أفتح المظاريف التي تحوى الدعوات المذهبة لحضور عروض الإفتتاح الصباحية المخصصة لرجال الصحافة ، بإحساس من حب الإستطلاع والتوقع ، رغم أني في تلك الصباحات أكون مشغولا بعمل آخر ، لكن هذه الأفلام كانت هروبا ، نعم هروبا من تلك المشكلة الجهنمية في معالجة الفصل السادس وتلك الشخصية الثانوية في الرواية والتي ترفض بعناد أن تصبح حية على الورق . هروب لمدة ساعة ونصف الساعة ، من الكآبة التي تتساقط بإلحاح حول الروائي الذى عاش أشهرا عدة في عالمه الروائي الخاص .

واتتني فكرة كتابة مراجعة للأفلام في حفلة كوكتيل ، بعد الكأس الثالثة الخطرة ، كنت أتحدث إلى ديريك فيرشويل المحرر الأدبي لجريدة السيكتاتور ، وكانت الجريدة قد أهملت حتى ذلك الوقت الكتابة عن الأفلام ، وفكرت انه إذا قبل اقتراحي ، فسيكون من الممتع أن اكتب مراجعات لأسبوعين أو ثلاثة ، ولم أتخيل قط أن ذلك المزاح سيستمر لأربع سنوات ونصف السنة ، وينتهي فقط في عالم مختلف ، عالم الحرب .

وحين عدت إلى ملاحظاتي عن تلك الفترة ، وجدت أن مراجعاتي انتهت فجأة بالكتابة عن فيلم « لنكولن الشاب » ، وإذا كان هناك « سرحان » في كتابة تلك المراجعة ، فلأني ما أن بدأت كتابتها في صبيحة يوم ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ حتى دوت أول صفارة انذار بغارة جوية ، فألقيت بالورق جانبا وهرعت لألقي نظرة على الخراب الذى سيحل بلندن ، رأيت إمرأة تسير وهي تسحب كلبا وتتمهل قليلا عند عمود نور ، ثم صفارة الأمان وعدت إلى هنرى فوندا .

لم تكن هذه المراجعات هي أول ما كتبته عن الأفلام ، فأثناء دراستي في اكسفورد ، عينت نفسي ناقدا سينمائيا لمجلة « اكسفورد أوتلوك » وهي مجلة أدبية كنا نصدرها مرة واحدة في الفصل الدراسي . كتبت فيها نقدا لأفلام مثل ظلال منذرة ، ضباب الخريف ، طالب في براغ ، وكلها

أفلام صامتة من العشرينات مازلت أذكر مشاهد كاملة منها ، كما كنت قارئا متحمسا لمجلة « كلوز أب » التي كان يحررها ماكفرسون وبرايز ، وتطبع في سويسرا ، وكان مارك اليجر مراسلها في باريس ، كما كان بودفكين يشارك بكتابة مقالات عن المونتاج . أرعبني ظهور الأفلام الناطقة ، بدت لي آنذاك انها نهاية للفيلم كشكل فني ، بالضبط كما نظرت بشك مماثل للأفلام الملونة بعد ذلك ، فكتبت سنة ١٩٣٥ بأن الألوان تسبب أضرارا فادحة لوجوه النساء ، فكلهن ، صغارا وكبارا ، لهن البشرة الصحية نفسها التي لوحتها الشمس .

وللطرافة ، فإن ما جعلني أتحمس للأفلام الناطقة ، فيلم مقتبس عن قصة بوليسية لشستر موريس ، ولأول مرة بدأت أنتبه للأصوات ، فحتى ذلك الوقت كان كل حذاء يصدر صوتا ، كل أكرة باب لها صرير ، حتى توقعت عند رؤية الفيلم الذي نسيه الجميع الآن « بيكي شارب » ، أن عهد السينما الملونة أضحى قريبا .

عند إعادة قراءة هذه المراجعات التي مضى عليها أكثر من أربعين سنة ، أجد أن هناك تحاملا في كثير منها .

كانت لي تحفظات أساسية على جريتا جاربو التي شبهتها بمهر عربي جميل ، وعلى ألفرد هتشكوك لإحساسه غير الكامل بالواقعية ، كان يؤرقني ، ومازال ، افساده لفيلم « ٣٩ درجة » بلا مبرر ، ومازلت أعتقد اني على حق (مهما كان رأى السيد تروناو) فيما كتبت بأن « أفلامه تتكون من سلسلة من المواقف الصغيرة الميلودرامية والمسلية : زر القاتل يقع على لوحة لعبة البكاراه ، يد عازف الأرغن المخنوق تطيل النغمة في الكنيسة الخالية .. يبني بشكل ميكانيكي دون حماس هذه المواقف الخادعة دون أن يلقي بالا لتنافرها وتعارضها ونهاياتها الفضفاضة ولعبة التحليلات النفسية العبثية ، ثم يلقي بكل ذلك ، مواقف لا تعني شيئا » ولا تؤدي إلى شيء .

وكانت الثلاثينيات أيضا فترة انتاج أفلام السير المحترمة رودس زولا ، باستير ، بارنيل .. وما شابه ، والأفلام التاريخية الرومانسية ، التي عبرت عن الحياة بشكل ساخر على يدى سيسيل دى ميل . كنت أفضل أفلام الجريمة ، وأفلام الغرب الأمريكي ، والفارس ، والأفلام التجارية ، وسعدت أني وجدت في احدى المراجعات لأحد الأفلام

التجارية ترحيبا حارا بظهور نجمة جديدة هى أنجرد برجمان .

واكتشفت آنذاك أن هناك مخاطر لعملية النقد السينمائى . ففى احدى المناسبات ، فتحت خطابا لأجد بداخله قطعة خراء ، ولازمنى وهم بأنها قطعة من خراء ارستقراطى ، فقد كتبت قبل أن يصلنى الخطاب بفترة قصيرة مقالا ساخرا وقاسيا عن ماركيز فرنسى أنتج فيلما تسجيليا لعب فيه دور البطولة .

بعد ثلاثين سنة من الحادثة وعلى عشاء برجوازى فى باريس جلست قبالة ذلك الماركيز وسحرنى حديثه ، وفكرت أن أسأله عن الحقيقة ولكنى تهيبت من فخامة المكان والأثاث . ثم هناك الإنذار بالتشهير والقذف من شيرلى تمبل . كانت مراجعتى لفيلم « وى ويلى وينكى » الذى قامت ببطولته ، هى التى دفعت شركة فوكس للقرن العشرين لرفع القضية ضدى ، وكنت قد اتهمت شركة فوكس بأنها تستغل مس شيرلى تمبل (كان عمرها آنذاك تسع سنوات) لأغراض غير أخلاقية ، وقلت « أن لديها غنجا مغريا يفتن الرجال متوسطى العمر » ، وأرسل قاضى القضاة أوراق القضية إلى المدعى العام ، ومنذ ذلك الحين فتح لى ملف فى سكوتلانديارد كانت الدعوة من شيرلى تمبل وإدارة شركة فوكس وأصحاب شركة فوكس ضد مجلة الليل والنهار وأصحاب المجلة والطابعين والناشرين للمجلة ، وبالطبع ضدى بسبب مقال كتبه مستر جرين ونشره فى عدد المجلة فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٧ .

وقد تمت تسوية بين المجلة وشركة فوكس ، أعلنت التسوية فى المحكمة ، وهى تقضى بأن مس شارلى تمبل تنازلت عن القضية مقابل ٢٠٠٠ جنيه لها ، و١٠٠٠ جنيه لإدارة شركة فوكس و٥٠٠ جنيه لأصحاب الشركة ، وقال الادعاء : أن أصحاب مجلة الليل والنهار التى تطبع فى لندن ، والناشرين والطابعين شركاتهم محترمة وسمعتها لا يرقى إليها الشك وهم بالتالى غير مسئولين فى هذه القضية . وأما مقال جرين فهو مقال بذىء ومرعب ولا يمكن قراءته فى المحكمة ، ويكفى النظر إلى الصورة المرفقة مع المقال لتفهم ما كتب عن الطفلة ، ومن الحق القول أن كل موزع محترم للجرائد فى لندن رفض توزيع هذا العدد من المجلة . ولا يجب أن تؤخذ القضية ببساطة ، فالطفلة دخلها كبير وشركة فوكس ثرية ، ولذا فإن مبلغ الـ ١٥٠٠ سيخصص للأعمال الخيرية ،

والـ ٢٠٠٠ جنيه التي حكم للمس شيرلى بها ستكون تحت حساب تكاليف القضية ، ولو اقتصر الأمر على النقود لكان من الصعب تقدير المبلغ الحقيقى للتعويض ، وقال الدفاع : انه يرغب نيابة عن موكله فى التعبير عن اعتذاره العميق لمس تمبل للألم الذى يمكن أن يسببه لها المقال لو أطلعت عليه (لم تكن شيرلى تمبل تعرف شيئا عن المقال) ، ويعتذر أيضا لشركة فوكس ، ويعترف بأن نقد الفيلم كان قاسيا وظالما ، وأن رب كل أسرة يستطيع اصطحاب عائلته لمشاهدة الفيلم ، ويعتذر أيضا نيابة عن مستر جرين ، ويؤكد بأن الناشرين لم يروا أو يقرأوا المقال قبل نشره .

وسأل القاضي : من كاتب هذا المقال ؟

ـ السيد جراهام جرين .

ـ هل هو ضمن سلطتنا القضائية ؟

ـ لا أعرف يا سيدى القاضي .

وقال محامي دار الطباعة بأنه يعترف بأن المقال ما كان يجب أن ينشر ، وأن التصريح بتوزيع الفيلم عالميا يدحض ما جاء فى المقال وأنه على استعداد للقيام بما يطلب منه لإصلاح أي ضرر على قدر استطاعته .

وسأله القاضي : أين مستر جراهام جرين ؟

ـ ليس لدى معلومات عن ذلك .

ـ هذا المقال لا أخلاقي وانتهاك لحرمة القانون لكنى أوافق على ما جاء فى التسوية المرفقة . سحبت الدعوى .

* * *

بين نقد الأفلام وكتابة السيناريو لها ، خطوة صغيرة فقط ، ولكل مخاطره بالطبع ، لكن بالنسبة لى كان ضرورة آنذاك ، فلدى زوجة وطفلان على أن أعيلهم ، كما انى ظللت مدينا للناشرين حتى بداية الحرب . دأبت على مهاجمة الأفلام التى ينتجها الكسندر كوردا بشكل متواصل ، حتى أصبح لديه حب استطلاع لمقابلة عدوه . فطلب من وكيلى الأدبى أن يحضرنى إلى استديوهات دنهام ، حين أصبحنا وحدنا ، قال لى : هل عندك فكرة فيلم ؟

لم يكن لدى ، لكنى بدأت أرتجل له فكرة لفيلم مرعب « فى الساعات الأولى من صباح أحد الأيام ، وعلى الرصيف رقم ١ فى محطة بادنجتون ،

والرصيف خال إلا من رجل ينتظر آخر قطار إلى ويلز ، نشاهد تيارا من الدم ينساب من تحت معطف المطر الذى يرتديه مكونا بركة صغيرة على الرصيف » .

فوقفت قليلا لأفكر ، فقال : ثم ؟

قلت : سيستغرق سردها وقتا طويلا ثم أن الفكرة تحتاج لمزيد من العمل .

تركته بعد نصف ساعة ، لأعمل فى اعداد ذلك الفيلم ثمانية أسابيع نظير مرتب كبير ، وهكذا ظهر أول اسوأ أفلام كوردا وأقلها نجاحا (كل ما أذكره من الفيلم الآن هو عنوانه الببغاء الأخضر) ، لكن بدأت بينى وبينه صداقة متينة ، استمرت وتعمقت حتى وفاته ، على الرغم من مراجعاتى التى استمرت فى عدم تعاطفها مع أفلامه . لم أقابل شخصا مثله يحمل من الخبث أقله ، وهو منتج الأفلام الوحيد الذى عرفته والذى يمكن أن تقضى معه أياما وليالى فى نقاشات طويلة دون أن يأتى ذكر للسينما فى الحديث ، لذلك تعاطفت معه وأحببته .

بعد سنوات حين انتهت الحرب ، كتبت له فيلمين « المعبود الذى هوى » « والرجل الثالث » وأمل أن أكون قد عوضته قليلا عن الفيلم الفاشل الذى كتبته له .

لو بقيت ناقدا للأفلام ، لكانت تجربتى القصيرة المضحكة فى هوليود ذات فائدة كبيرة لى ، لأنى تعلمت أول ما تعلمت ما الذى يفعله المنتج بالمخرج ، والمدى الذى يتحمل فيه المخرج آراء المنتج أحد أصعب أعمال الناقد ، هو نجاحه فى توجيه مدحه أو قدحه إلى الرجل المناسب ـ المنتج أو المخرج ـ .

اشترى ديفيد سلزنك ـ الذى اشتهر بانتاجه أحد أعظم الأفلام ، ذهب مع الريح ـ حقوق توزيع فيلم الرجل الثالث فى أمريكا ، وبنص العقد الذى وقعه مع كوردا ، كان على مخرج الفيلم أن يأخذ رأيه فى السيناريو قبل بدء التصوير بستين يوما . وهكذا سافرت مع كارول ريد مخرج الفيلم إلى أمريكا لمقابلة سلزنك . كانت المقابلة غير مشجعة ، ومازال الحوار الذى دار بيننا حيا فى ذاكرتى كيوم حدوثه ، بعد تحيات قصيرة ، بدأ النقاش الحاد .

قال . أنا لا أحب عنوان الفيلم .
قلنا : لا تحبه ! ظلنا ..
ـ أسمعوا يا أولاد .. من سيذهب بحق الجحيم إلى فيلم اسمه الرجل الثالث ؟
قلت : انه عنوان صغير ويسهل تذكره .
هز رأسه وهو يقترب مني : يمكن أن تختار إسما افضل يا جراهام .. أنت كاتب وكاتب جيد وأنا لست كاتبا وما أريده الآن .. ليس صوابا ، هل تفهم ؟ بالطبع ليس صوابا ، فأنا لا أقول انه صواب ، ولكنك كاتب وأنا لست كذلك .. ما أريده شيئا .. مثل « ليلة في فيينا » عنوان سيشد الجمهور .
قاطعه كارول ريد بسرعة : أنا وجراهام سنفكر في الأمر .
وهي جملة يكررها ريد كثيرا للتخلص من مثل هذه المواقف ، كما أن العقد لا يلزمه بالأخذ بنصيحة سلزنك بل بالتشاور معه فقط .
وأضاف سلزنك : كما أن القصة لن تنجح يا أولاد ..
لن تنجح .. انها مجرد سفسطة .
ـ سفسطة !!
ـ ذلك الذي تتعلمونه في مدارسكم الإنجليزية .
قلت : لا أفهم قصدك ..
قال : هذا الرجل الذي ذهب إلى فيينا بحثا عن صديقه .. فوجد أن صديقه قد مات .. صح ؟ لماذا لم يرجع إلى بلده وينتهي الأمر ؟
بعد كل تلك الأشهر من الكتابة ، فإن وجهة النظر المدمرة هذه تركتني لا أحرى جوابا .
هز رأسه الرمادي وهو يتجه نحوي « انها مجرد سفسطة يا بني »
وبدأت أناقشه بغير حماس « ولكن هذه الشخصية لديها دافع الإنتقام لقد ضربه شرطي من البوليس الحربي » ثم عزفت على الورقة الأخيرة قائلا « ثم انه خلال ٢٤ ساعة وقع في حب فتاة صديقه هاري لايم » .
فهز رأسه بأسف قائلا : « لماذا لم يعد إلى وطنه قبل ذلك ؟ » .
وكان ذلك فيما أعتقد نهاية اجتماعنا في اليوم الأول ، وانتقل سلزنك إلى هوليود وتبعناه إلى جناح فخم في سانتا مونيكا . وخلال اللقاء التالي مرت أوقات بدا لي فيها أن هناك سببا وجيها .. وقاسيا أيضا في نقد

سلزنك . بالتأكيد هناك خطأ ما فى التتابع أو المواصلة فى السيناريو ، نسيت مؤقتا الدرس الذى تعلمته كناقد سينمائى وهو أن التتابع المنطقى للأشياء غالبا ما يكون مخالفا لطبيعة الحياة ، وقد قال جان كوكتو مرة أن الأخطاء فى التتابع المنطقى فى فيلم ما تنتمى إلى اللاوعى الشعرى للفيلم . كانت هناك سكرتيرة تجلس بجانب سلزنك متأهبة بقلمها . حين أكون على وشك الموافقة على نقطة ما ، كان كارول ريد يتدخل بسرعة قائلا : « سأفكر أنا وجراهام فى الأمر » .

وهناك لقاء أتذكره على وجه الخصوص لأنه كان الأخير قبل أن نغادر إلى انجلترا . كانت السكرتيرة قد كتبت ٤٠ صفحة من الملاحظات لم يكن فيها تنازل واحد من جانبنا . بدأ اللقاء كالعادة فى العاشرة والنصف مساء وانتهى فى الرابعة صباحا ، وحين وصلنا سانتا مونيكا مقر اقامتنا كان الفجر يطلع على الباسيفيك .

قال : هناك شيء لا أفهمه فى السيناريو يا جراهام .. لماذا بحق الجحيم يقوم هارى لايم بعمل ..

وأخذ يسرد بعض الأفعال الغريبة التى قام بها لايم .

قلت : ولكنه لم يفعل ذلك .

نظر إلى لحظات صامتا فى ذهول ، ثم قال :

ـ يا للمسيح يا أولاد .. اختلط على الأمر بسيناريو آخر . استلقى على الكنبة ، ومضغ حبة من البنزدرين ، فى عشر دقائق كان نشطا كعادته .. عكسنا تماما .

نظرت إليه بعطف قبل أن نغادره ، وظلت الصفحات الأربعون فى ملفات المخرج كارول ريد دون أن تفتح ، وبما أن الفيلم قد حقق نجاحا ، فإنى أشك أن سيلزنك قد نسى أن ملاحظاته لم تنفذ . حين ذهبت إلى نيويورك بعد ذلك ، دعانى على الغداء لمناقشة مشروع لديه ، قال : جراهام .. لدى فكرة عظيمة لفيلم .. فيلم لن يستطيع كتابته غيرك .

كنت حذرا هذه المرة ألا أتناول كأسا ثالثة من المارتينى .

قال : حياة مريم المجدلية .

قلت : آسف . لا . إن ذلك ، فى الواقع ، ليس خطى . لم يحاول أن يناقشنى ، لكنه قال : لدى فكرة أخرى ستوافقك ككاثوليكى ، أنت تعرف أن العام القادم سيكون ما يسمونه السنة المقدسة فى روما ، أريد أن

أنتج فيلما أسمه « السنة غير المقدسة » أفضح فيه كل المحتالين .. وتلك الجلبة التي يصنعونها ..

قلت : فكرة طريفة .

قال : وسنصوره فى الفاتيكان .

ـ أشك أن يسمحوا لك .

قال : تأكد انهم سيسمحون .. سنضع شخصية طيبة واحدة فى الفيلم .

هذه كانت حال تلك الأيام . أسفت على الأفلام الصامتة حين ظهرت الأفلام الناطقة ، وأسفت على الأفلام غير الملونة حين غزت الأفلام الملونة الشاشة ، وهذه الأيام وأنا أشاهد الأفلام التى تحوى الدعارة الناعمة ، أتشوق أحيانا إلى الثلاثينيات المنقضية ، إلى سيسيل دى ميل وحروبه الصليبية ، إلى الأيام التى كان يمكن أن يحدث فيها كل شىء .

* * *

٣

أنقذتنى رواية « قطار اسطمبول » من العوز مؤقتا ، لكننى بددت مدخراتى بكتابة رواية « انه ميدان المعركة » التى برغم مديح باوند وبريشت ـ ظلت تقريبا غير مقروءة . تليها فى لامبالاة الجمهورة رواية « انجلترا صنعتنى » ، كان ضرورة ملحة ، أن أكتب رواية ناجحة كروايتى الأولى لو إستطعت . ولم تكن القضية قضية نقود على كل حال .

لقد استمتعت دائما بقراءة الروايات المثيرة ، وبكتابتها أيضا ، كانت كتبى المفضلة فى فترة مبكرة من شبابى ، روايات جون بوخان ، ولكن حين عدت إلى كتبه وجدتنى لا أجد المتعة نفسها فى مغامرات بطله ريتشارد هانيه ، دعك من الحوار والمواقف التى انقضى عهدها ، فإن المناخ لم يعد مناخ صباى . الوطنية فقدت جاذبيتها حتى لتلاميذ المدارس ، وأول ما تثيره لفظة الامبراطورية فى الذهن حروب بيفر بروك

الصليبية ، وكان صعبا أثناء سنوات الكساد تلك أن نؤمن بالأهداف العليا لمدينة لندن أو الدستور البريطاني ، المتظاهرون الجوعى بدوا أكثر حقيقة من السياسيين ، لم يعد العالم عالم روايات بوخان .

الرجل الذى يبحث عن الطرائد فى « بندقية للبيع » الرواية التى بدأت أكتبها ، كان رافن لاهانيه بطل بوخان ، رجلا خرج لينتقم من كل الوسائل القذرة فى الحياة لا لينقذ بلده .

بالنسبة لموضوع الرواية لا أذكر الآن اسم أو طبيعة الهيئة التى كانت تحقق أنذاك فى صناعة السلاح الخاصة والمتاجرة به ، هل أصغيت لبعض ما تردد لأني كنت أكتب بالفعل روايتي ، و أن الفكرة واتتني بعد أن سمعت تلك الأقاويل ؟ كل ما أذكره هو تلك الأقاويل التي تناثرت حول تلك الاستجوابات لبعض الشركات الكبرى التى كانت متورطة فى الموضوع ، أسئلة مهذبة وواهنة وتأجيل بعد تأجيل لعدم توافر الأدلة أو لفقد بعض الأوراق ، كان هناك جو من التراخي من السلطة .

وفى الوقت نفسه كتب شخص ما قصة حياة سير بازيل زاروف ، رجل وغد لكنه مقبول اجتماعيا فى مثل تلك الأيام أكثر من بطل بوخان فى روايته « ٣٩ سلمة » ، لم يكن سير ماركوز فى روايتي هو سير بازل لكنه التشابه فى محيط الأسرة لكليهما واضح .

لم أقابل نموذجا لشخصية ديفيز عميل سير ماركوز فى الرواية ، ولم أقابله قط ، ولكن بعد كتابة الرواية قابلت للمرة الأولى فى حياتي تاجر سلاح متجولا ، كنت أحد راكبين لطائرة صغيرة تطير من ريجا إلى تالين عاصمة جمهورية استونيا أنذاك ، وكنت ذاهبا إلى هناك للا شىء سوى الهروب إلى مكان جديد . وحدث أني كنت أقرأ رواية لهنرى جيمس الرواية نفسها التى أقرؤها ، وكان من النادر آنذاك أن تجد شخصا يقرأ هنرى جيمس.وحين ألقيت نظرة على مرافقي فى الرحلة وجدته يقرأ كما يحدث الآن . والتقتت عيوننا كل إلى كتاب الآخر وبدأنا تعارفنا فى الحال . كان رجلا أكبر مني بكثير ، وكان يعمل قنصلا لبريطانيا فى تالين ، وحيث انه لم يكن مشغولا جدا ، وغير متزوج ، فقد قضينا وقتا طيبا معا ، خاصة حين لم أكن منهمكا فى البحث عن ماخور كانت تديره عائلة واحدة بالتوارث فى البيت نفسه ولمدة ثلاثمائة سنة (صدمني القنصل بخوفه من النساء) ، لم يكن المرء ليتوه فى بحثه فى تلك المدينة

الصغيرة الرائعة ، ومع ذلك فشلت فى العثور على البيت وحين سألت أحد السقاة فى فندق تالين الفخم . حار لاهتمامى بالبيت الأثرى وقال . كل ما تريده يمكن ترتيبه هنا .

كان رجلا فريدا بين تجار السلاح ، لأننى أشك فى أن أحدا من زملائه فى بيع السلاح ، كان سيدعى انه قسيس أنجليكى سابق ، وانه أصبح قسيسا فى الجيش حين بدأت الحرب العالمية الأولى ، ثم تحول إلى الكاثوليكية ، وكان على وشك أن يستقبله رئيس أساقفة زغرب فى الكنيسة الرومانية ليصبح عضوا فيها ، لولا حدوث غارة جوية دفعت رئيس الأساقفة للهروب إلى القبو . حين انتهت الحرب وأصبح بلا عمل ، ولرغبته فى شىء أفضل ، أصبح تاجر سلاح .

كان رجلا لطيفا جدا ووحيدا جدا ، وكان هنرى جيمس سيجد فيه شخصية جيدة (كان سيلفه بطيات من الغموض) ، شىء يشبه قليلا شخصية رالف توشيه بطل رواية صورة سيدة التى كنت أقرؤها فى الطائرة .

كان يتقاضى مبلغا يعادل ستمائة جنيه استرلينى كقنصل ، لكن فى تلك الأيام كانت تكاليف المعيشة فى تالين منخفضة جدا ، كان لديه شقة صغيرة فى العاصمة ، تعتنى بها خادمة يوميا ، وبيت صغير فى الريف ، ومع ذلك كان يترك نصف دخله مع أمه فى انجلترا .

أصبحنا أصدقاء حميمين لمدة خمسة عشر يوما والفضل لهنرى جيمس ، ولا أعرف ما حدث له بعد ذلك ، لابد أنه فقد بيته حين تقدم الروس ، كانت أياما محفوفة بالخطر وعيون الجميع على ألمانيا .

وعلى غير انتظار ، بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ ، تلقيت رسالة منه ، يذكرنى باهتمامنا المشترك بهنرى جيمس ، وأنه قد بلغ الثمانين من العمر ويود أن يهدينى روايات جيمس فى طبعتها الأولى ، وكان ذلك تتويجا لأحد اللقاءات السعيدة ـ التى حدثت بالمصادفة ـ فى حياتى .

الجزء الأكبر من أحداث رواية « بندقية للبيع » يدور فى بلدة نوتونش ، والتى استخدمتها فى وقت لاحق كمكان لمسرحيتى « السقيفة » ، فنوتونش بطبيعة الحالة هى بلدة نوتنجهام ، حيث عشت مدة ثلاثة أشهر ذات شتاء ، مع كلب صغير هجين ، أتدرب فى صحيفة نوتنجهام كما سردت فى كتابى « نوع من الحياة » عن سنواتى المبكرة .

ولا أدرى لماذا أحمل حبا خاصا متعصبا لنوتنجهام ، كالحب الذى انتابنى لفريتاون بعد ذلك ، كانت أبعد نقطة فى الشمال الإنجليزى يذهب إليها وأول مدينة غريبة أقيم فيها وحدى بلا أصدقاء .

الشخصية الرئيسية فى الرواية هي « رافن » القاتل ، ويبدو لى الآن انه كمخطط أولى لشخصية « بنكي » فى رواية « صخرة برايتون » ، كان بنكي هو رافن وقد تقدم فى العمر دون أن يبدو عليه الكبر .

المجرم المحروم من العدالة ، يحتفظ في قلبه دائما بحس لانتهاك العدالة ، فجرائمه لها عنده ما يبررها ورغم ذلك يطارده الآخرون ، مع انهم ارتكبوا جرائم أسوأ من جرائمه ، ويزدهرون . العالم ملىء بهؤلاء ، وهم يرتدون أقنعة النجاح ويعيشون فى أسر سعيدة ، ومهما كانت الجريمة التي يدفع لارتكابها ، فإن الطفل داخله ، لا يكبر أبدا ، ويظل بطل العدالة العظيم : « العين بالعين ، أعطهم جرعة من دوائهم » . ونحن أطفال عانينا جميعا عقوبات عن أخطاء لم نرتكبها ، لكن سرعان ما يندمل الجرح ، مع شخصية كرافن أو بنكي فإن الجرح لا يندمل أبدا .

إذا كان رافن هو بنكي وقد كبر فى العمر ، فإني أتخيل شخصية « ماثر » كضابط بوليس تدرب تحت إشراف المفوض المساعد فى رواية « ميدان المعركة » ، ففيه بعض من مزاجه ووقاره ، ولكن ليس فى عزوفه عن الزواج .

ماذا يمكنني القول عن باقى شخصيات الرواية ؟ د. يوجيل فيه شيء من طبيب شرطة ذهبت إليه مرة فى شبابى خائفا من اصابتى فيما كان يسمي آنذاك بتعبير لطيف ساخر مرض اجتماعى ، أخبرنى الا آكل الطماطم ، تحذير مازلت أتبعه حتى اليوم .

غرفته القذرة فى شقة فى بناية وسط صف من البنايات المتشابهة ، وطريقته الفظة الماكرة ، كل ذلك علق بذهنى وأعتقد انى ألبستها لشخصية د. يوجيل فى الرواية .

هناك مشاهد معينة تعجبني فى هذا الكتاب ، مثلا ، مشهد التدريب على الغارة الجوية فى نوتوتش والذى أتاح لرافن التسلل إلى مكاتب مستر ماركوز . كتبت المشهد سنة ١٩٣٥ ، ولم تكن الحكومة قد وصلت إلى هذه الدرجة من الاستعداد ، الذى أصبح مطلوبا بعد أربع سنوات

أحببت أيضا شخصية آكي وهو الكاهن الذى جرد من سلطته ، وشخصية زوجته ، عجوزان شريران عاشا معا بحب مجرد ، لم أختر كاهنا إنجليكيا بقصد سيىء ، لكنى شككت أن يوجد حب نقى كذلك الحب بين قسيس كاثوليكى محروم من الكنيسة وزوجته . رسمت شخصية أخرى بعد ذلك فى رواية « القوة والمجد » ، شخصية الأب جوزيه ، لكنى كإنسان أفضل شخصية آكى المسكين ، فهو لم يكن من أولئك الخطاة الذين يقومون بأعمال القديسيين ، فإحساسه بالذنب دفعه إلى إرسال خطابات لا حصر لها إلى أسقفه ، لتبرير ذاته أو اتهامها ، هو ينتمى إلى العالم نفسه المملوء بالجروح والذنوب ، عالم كرافن وبنكى .

* * *

٤

بدأت كتابة رواية « صخرة برايتون » سنة ١٩٣٧ كقصة بوليسية ، وظلت تعتبر كذلك ، وفى رأيى أن ذلك حكم خاطىء .

فحتى نشر هذه الرواية ، كنت كأى روائى آخر ، أمدح أحيانا إذا نجحت ، وأذم أحيانا كلما أخطأت فى مهنتى ، ولكنى فوجئت بعد نشر هذه الرواية بلقب بغيض يطلق على بأنى كاتب كاثوليكى . وبدأ الكاثوليكيون يعالجون بعض أخطائى برقة متناهية كما لو أنى عضو فى عشيرة أو جماعة ولا يصح التنكر لى ، بينما بعض النقاد غير الكاثوليك اعتبروا أن إيمانى يعطينى ـ بشكل ما ـ ميزة لا أستحقها ، على زملائى من المعاصرين . لقد أصبحت كاثوليكيا سنة ١٩٢٦ ، وكل كتبى ـ عدا ذلك الديوان من الشعر المؤسف الذى نشرته وأنا فى اكسفورد ـ كتبتها وأنا كاثوليكى ، ولكن لم يلاحظ أحد المذهب الذى انتمى إليه قبل نشر صخرة برايتون وحتى اليوم فإن بعض النقاد يضع حدا فاصلا بين الروايات المبكرة والروايات اللاحقة التى كتبت بعد تحولى إلى الكاثوليكية (والنقاد كفئة ليسوا أكثر حرصا على الحقائق من الصحفيين إلا فيما ندر) . وقد اضطررت أن أعلن عدة مرات منذ نشر هذه الرواية بأنى لست كاتبا كاثوليكيا ولكنى كاتب تصادف انه كاثوليكى .

ولقد وضع نيومان الكلمة الأخيرة فى موضوع الأدب الكاثوليكى أو الدينى فى كتابه « فكرة الجامعة » قائلا :

« إذا كان الأدب موضوعا يدرس الطبيعة البشرية ، فلا يمكن أن يكون لدينا أدب كاثوليكي ، لأن فى ذلك تناقضا فى استخدام المصطلح ، فكيف نحاول كتابة أدب بلا خطيئة عن إنسان خاطيء . يمكنك أن تكتب أو تجمع شيئا عظيما وعالى القيمة وأرقى من أى أدب عرفناه ، وحين تفعل ذلك ستجد أن ما فعلته ليس أدبا على الإطلاق » .

ومع ذلك يمكن القول انني فى سنة ١٩٣٧ شعرت ان الوقت قد حان لأضع شخصيات كاثوليكية فى رواياتي . وفى رأيي أن المرء كي يألف منطقة من عقله يحتاج وقتا أطول من ألفه لمنطقة من البلاد مثلا ، ولكن أفكار شخصياتي الكاثوليكية وحتي أفكارهم الدينية ليست بالضرورة أفكارى .. لقد مضت آنذاك أكثر من عشر سنوات منذ قبولى عضوا فى الكنيسة ، وتم ذلك لأسباب عقلية وليس لأسباب عاطفية ، ومارست الطقوس الدينية الشكلية ، أذهب إلى القداس كل أحد ، وإلى الاعتراف مرة فى الشهر ، وفى أوقات فراغي اقرأ فى علوم الدين ، أحيانا بافتتان وأحيانا بسخط ودائما تقريبا باهتمام .

مازلت لا أكسب من كتبى ما يكفى لاعاشتى أنا وعائلتى ، لكن كتابتى عن الأفلام بانتظام للسبكتاتور ، ومراجعتى للروايات مرة كل أسبوعين ، كانت توازن الأمور . ثم قذفنى الحظ الحسن بضربتين ، مكنانى أن أنظر قليلا إلى المستقبل . تسلمت عقدا من كوردا لكتابة سيناريو لفيلم ثان (وكان مريعا ، وهو مأخوذ عن قصة جلزورثى القصيرة « الأول والأخير » ، وقام ببطولته لورنس أوليفييه وفيفيان لى .. وقد قاسيا كثيرا ، ولعلهما يغفران لى الكثير مما يحتاج إلى غفران) ، ثم عملى كمحرر شارك مع جون مارك فى مجلة الليل والنهار الأسبوعية . وقد كانت حياتى المهنية وحياتى الدينية ، كل فى غرفة مستقلة تماما ، ولم يكن لدى طموح لجمعهما معا ، لكنها الحياة الخرقاء بتصرفاتها الغبية هى التى فعلت ذلك ، من ناحية كان هناك الاضطهاد الدينى فى المكسيك ، ومن ناحية أخرى هجوم الجنرال فرانكو على أسبانيا الجمهورية ، وهكذا ربط الدين بالحياة برباط لا انفصام له .

أعتقد انه تحت تأثير هذين الموقفين ، وتأرجحى بين التأييد

والمعارضة ، بدأت اتفحص بشكل أدق تأثير الإيمان على العقل . لم تعد الكاثوليكية مجرد طقوس شكلية ، احتفال عند المذبح مع العدد القانوني من الشموع ، وجماعة المصلين من النساء اللاتي يلبسن أفضل قبعاتهن ، أو صفحة فلسفية في كتاب الأب داركي « طبيعة الإيمان » ، إنها أقرب الآن إلى الموت في الظهيرة .

ومع قلق وجدت نفسي أعيشه ، ولم يهدأ أبدا ، ورغبة أن أكون شاهدا على التاريخ ، التاريخ الذي شعرت انه يخصني . حاولت الطيران من تولوز إلى بلباو ، لأن عواطفي كانت مرتبطة أكثر بالكفاح الديني ضد فرانكو منها عن التنافس الطائفي في مدريد . حملت خطاب توصية من ممثل جبهة الباسك في لندن إلى صاحب مقهى صغير في تولوز ، وكان الرجل يتخطى الحصار حول بلباو بطائرة صغيرة بمقعدين . وجدته يحلق ذقنه في ركن من المقهى الساعة السادسة صباحا ، ناولته خطاب التوصية مختوما بالشمع ، ولكن بدا أن أى كمية من الاختام لن تقنعه أن يعاود الطيران بطائرته الصغيرة إلى بلباو ، فقد أثبتت مدافع فرانكو ، في طيرانه الأخير ، انها فعالة وتقلق راحته .

في المكسيك كنت أكثر حظا ، فقد ساعدتني الدفعة التي دفعها الناشر مقدما لكتابة كتاب عن الاضطهاد الديني هناك ، أن أسافر إلى تاباسكو وشياباس حيث الاضطهاد على أشده بعيدا عن المناطق السياحية ، وفي المكسيك صححت بروفات رواياتي « صخرة برايتون » .

وهناك اكتشفت الإيمان القلبي ، وسط الكنائس الخربة والخالية التي طرد منها القسس ، في القداسات السرية التي كانت تقام في لاس كاساس دون دق الأجراس ، وسط حاملي المسدسات الذين يمشون مختالين ، لكن عاطفتي الدينية كانت مستيقظة قبل ذلك ، وإلا كيف تفسر أن الكتاب الذي عزمت أن أكتبه كرواية بوليسية بسيطة ، يحتوى على مناقشات واضحة ومباشرة عن الفرق بين الخير والشر ، وبين الخطأ والصواب ، واللغز الغريب لرحمة الله المروعة ، لغز سيكون محورا لثلاث روايات تالية . الصفحات الخمسون الأولى في رواية « صخرة برايتون » ظلت بوليسية . وهي تؤرقني لو نظرت إليها الآن ، كان يجب أن يكون عندى من قوة الإرادة ما يجعلني أحذفها وأن أبدأ الرواية ثانية مهما كانت صعوبة المراجعة ، لكن لا الشيء المفقود تجده ثانية ولا الشيء المكسور يمكن إصلاحه .

بعض النقاد ، أرجعوا الأحداث العنيفة فى الرواية ، إلى منطقة غريبة عنيفة فى ذهنى أسموها « أرض جرين » ، وأتساءل أحيانا هل يسيرون فى العالم معصوبى الأعين ؟ وأريد أن أصرخ « هذه هى المكسيك فعلا ، هذه هى الهند الصينية ، هذه هى سيراليون موصوفة بدقة وحرص . لقد كنت مراسلا صحفيا كما انني روائى ، أؤكد لكم أن الطفل الميت والملقى فى خندق على جانب الطريق كان موجودا فعلا ، وأن الجثث كانت تطفو فوق الماء فى قناة فات ديام » .

ولكنى أعرف أن النقاش لا فائدة منه ، فهم لن يصدقوا عالما لم يلاحظوه ، أو يدركوا أن العالم الذى يعيشون فيه يشبه ذلك .

ومع ذلك . فمن الممكن أن يكون إطار رواية « صخرة برايتون » جزئيا مكانا متخيلا ، لكن الأحداث حقيقية والأماكن أيضا ، فمنطقة نيلسون أزيلت منذ بدأت الحرب ، وسباق عصابات برايتون سحق للأبد بناء على رغبة الجميع فى لويس اسايز كتهديد خطير وذلك قبل قليل من تاريخ قصتى ، وصالة رقص شيرى قد اختفت ، ولكن كل ذلك كان حقيقيا وموجودا ، وفى منطقة نيلسون الخطرة إختطف رجل فى وضح النهار فى الثلاثينات ووجدت جثته خارج المدينة مطروحة خارج سيارة ولكن ليس فى الظروف نفسها التى اختطفت فيها هيل فى الرواية ، حتى كولونى زعيم العصابة ، كان له نموذجه الواقعى ، وقد أحال نفسه على المعاش سنة ١٩٣٨ وعاش حياة متدينة كريمة فى أحد أحياء برايتون ، وظل لاسمه سلطانه فترة من الزمن ، وأذكر أنى رغبت فى دخول أحد الأندية الخاصة الصغيرة فى لندن يسمى العش خلف شارع ريجنت ، ولم يساعدنى فى الدخول إلا ذكر إسم هذا الرجل ـ ولقد تذكرته أخيرا حين شاهدت رجل العصابات الأمريكى الشهير ، وهو رجل أنيق ذو شعر أبيض ومن رجال لاكى لوشيانو ، يقضى أمسيات هادئة بين بيازا فى كابرى وحمام السباحة الفخم فى مطعم كانزون دى لامير فى مارينا بيكولا .

على كل حال لابد أن أقر بالذنب لأنى أقمت مدينة برايتون بالشكل الذى تخيلته لا كما هو فى الواقع ، وهو ما لم أصنعه حين كتبت عن المكسيك أو الهند الصينية ، لم توجد نماذج حية لرجال العصابات الذين وصفتهم ، ولا لشخصية الساقى التى بقيت تنقصها الحياة ، ولقد قضيت ليلة واحدة فى صحبة شخص من عصابة نبكاى ، علمنى اللغة العامية السائدة ولكن هل يتعلم المرء لغة فى ليلة واحدة مهما بلغ طولها !

وأبدت سلطات برايتون حساسية قليلة تجاه الصورة التى رسمتها لمدينتهم ، وربما أغاظهم أن يروا كتابى يعلن عنه ـ بشكل غير متعمد ـ « إشتروا صخرة برايتون » ، لكن النجاح الجماهيرى كان محدودا أكثر مما توقعوا ، فقد بيع من الرواية حوالى ثمانية آلاف نسخة ، بالكاد سددت ديونى للناشرين .

هل كانوا سيمتعضون بشكل أكبر لو علموا أن وصفى لبرايتون كان عملا من أعمال الحب لا الكره ؟ لا توجد مدينة قبل الحرب . لا لندن ولا باريس ولا إكسفورد ، كان لها أثر برايتون على نفسى ، عرفتها أول ما عرفتها وأنا طفل فى السادسة حين ذهبت مع عمتى لأنقه من مرض اليرقان على ما أظن ، وفى ذلك الوقت رأيت أول فيلم فى حياتى ، وهو فيلم صامت بالطبع ، وأسرتنى القصة للأبد ، كانت قصة أنتونى هوب « سوق من كرافونيا » ، عن خادمة مطبخ أصبحت ملكة ، حين ركبت الخادمة مع جيشها وسارت عبر الجبال لتهاجم الجنرال المتمرد الذى حاول إنتزاع العرش من زوجها المتوفى . كانت تصاحبها فى زحفها سيدة عجوز تعزف على البيانو ، وظل مشهد ذلك العزف غير المسموع فى ذاكرتى ، بينما تلاشت ألحان أخرى ، وكذلك الزحف الرمادى اللون للملكة الشابة وجيشها .

وهكذا كانت البلقان بالنسبة لى دوما هى كرافونيا ، منطقة المستحيلات غير المحدودة ، وعبر جبال كرافونيا قضيت أصيافا عديدة فى فترات لاحقة ، كنت أحلم بكتابة مثل ذلك الكتاب يوما ، القصة الرومانسية الراقية ، تأسرنا فى شبابنا بالآمال نحلم بها ، والتى تتمخض مع الزمن عن أوهام وخيبة ، فنعود إليها حين نكبر هربا من الواقع الحزين .

كانت رواية « صخرة برايتون » بديلا فقيرا لكرافونيا ، ومع ذلك فهى من أفضل الكتب التى كتبتها .

لماذا استبعدت الكثير من برايتون الحقيقية عن روايتى ؟ لقد كان فى نيتى أن أصف برايتون التى عرفتها وغيرت الصورة كلها ، (لم أشعر بعد ذلك أنى كنت ضحية للشخصيات التى إبتدعتها) ، إن برايتون التى ابتدعوها وجدت يوما ، لكن فى برايتون التى عرفتها هناك شخصية واحدة ظلت فى الرواية هى شخصية السيد بريويت المحامى البائس

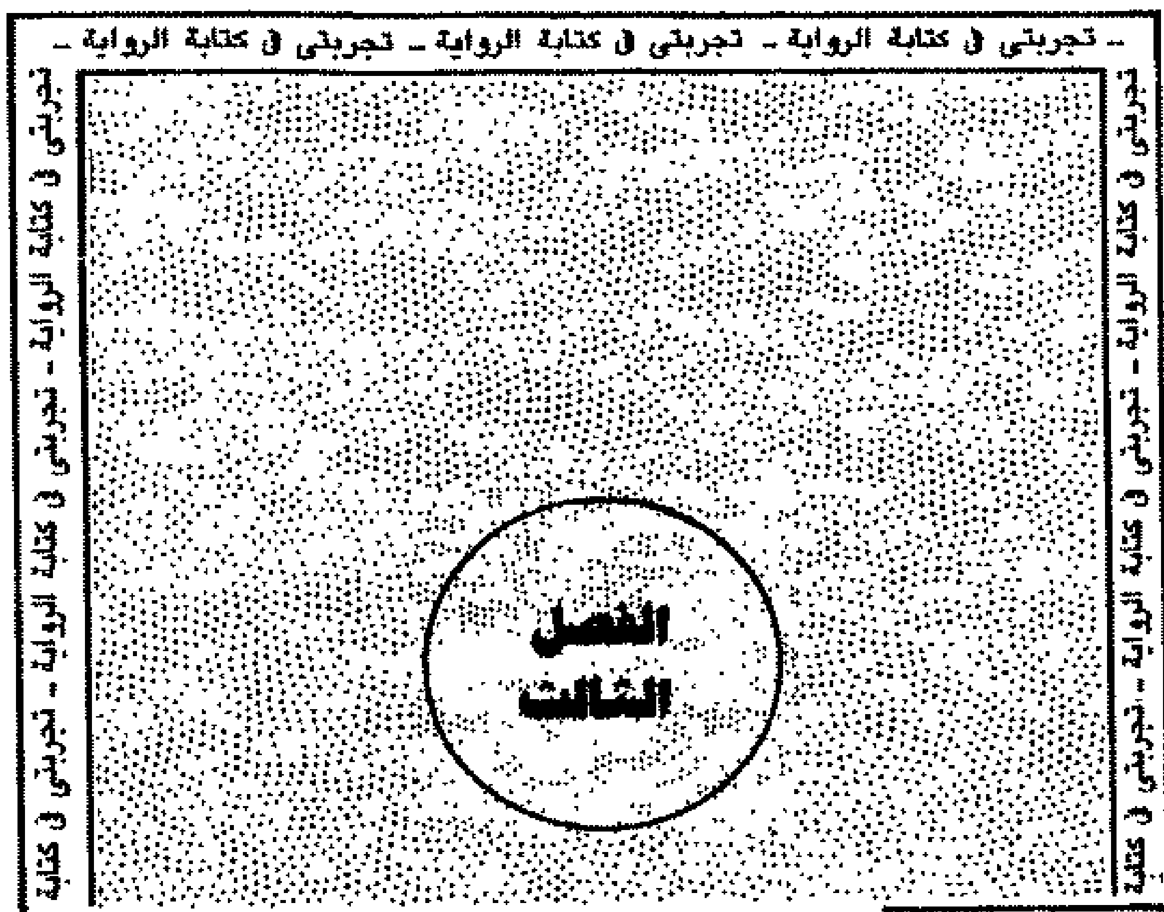
المسكين ، الذى يشاهد بحسد وهو حزين « الطابعات على الآلة الكاتبة يسرن حاملات حقائبهن الصغيرة » ـ أعتقد أن أحدا لم يلاحظ صدى بياتريكس بوتر فى هذه الجملة .

إن مستر بريويت ، مستوحى ، مع اختلاف طفيف ، من شخص تحدث إلىّ فى إحدى ليالى ديسمبر قبل عشر سنوات من كتابة الرواية ، فى عشة على شاطىء البحر ، سألنى الصوت بحزن « هل تعرف من أنا ؟» لكن لم أكن قد رأيت فى الظلام أن هناك أحدا فى العشة .

قال الصوت « أنا مور العجوز » وهو إسم المنجم المجهول الذى مازالت نبوءاته تظهر كل سنة ، أضاف « أعيش وحيدا فى هذا الدور الأرضى أخبز خبزى » .

ثم قال مفسرا ـ لأنى لم أفهم ما يقصده ـ « التقويم .. أنت تعرف أكتب تقويم الأيام والأشهر .. الروزنامة » .

* * *



١

إنها لتجربة غريبة أن تقرأ ماضيك بقلم إنسان ليس هو أنت : فالانسان منذ أربعين سنة ليس هو نفسه اليوم ، ولقد قرأت كتاب « طرق لا قانونية » كشخص غريب تماما ، لا ككتاب كتبته بنفسي ، كثيرٌ من أحداثه دفنت في اللا وعي ، وكثير منها أستعيده كلحظات باهتة مرت في رواية قرأتها ذات يوم وأنا صغير . ومع ذلك فإن كتاب « طرق لا قانونية » ليس رواية ، وإنما هو انطباع شخصي عن منطقة صغيرة من المكسيك في فترة معينة - ربيع ١٩٣٨ - بعد وقت قصير من معاناة البلاد على يد الرئيس كاليس - باسم الثورة - أقسى إضطهاد ديني وقع في أي مكان منذ حكم إليزابيث ، وقد إستمر هذا الإضطهاد فترة أطول في

تاباسكو وشياباس . قلت لنفسي كل هذا الذى كتبته حقائق ، وقد حدثت لى فى سنة ١٩٣٧ و١٩٣٨ ، أو على الأقل حدثت لذلك الشخص الذى كنته ومات منذ زمن ، ويحمل الإسم نفسه فى جواز السفر الذى أحمله .

وكذلك تغيرت المكسيك ، تغيير لم يمس الأساسيات ، ولا العنف والظلم والقسوة . كل الثورات الناجحة ، مهما كانت مثالية ، مع الوقت تخون نفسها ، ولكن الثورة المكسيكية كانت زائفة منذ البداية .

مررت بالمكسيك منذ أكثر من اثنتى عشرةسنة وأنا فى طريقى إلى هافانا ، وتجولت فى الضاحية الجديدة التى بنيت للأثرياء ، كان أفخم بيت فيها لمدير الشرطة ، تلك هى المكسيك التى أعرفها ، حيث الفقر المدقع يعيش فى مناطق لا تبعد عن الفنادق الأمريكية ومحلات السياح إلا شوارع قليلة ، تظاهرت الحكومة المكسيكية بأنها تقدم خدمة لكوبا بتشغيل خط طيران بين مدينة المكسيك وهافانا ، ولكنه خط فى اتجاه واحد ، إذا غادرت إلى هافانا فمن الصعب أن تأخذ تأشيرة عودة إلى المكسيك ، واستخدمت هذه الوسيلة لتقليص عدد الطلبة الأمريكيين الذين يزورون كوبا بطرق لا مشروعة ، فلكى يعودوا إلى الولايات المتحدة عليهم أن يقوموا برحلة دائرية مكلفة عبر مدريد ، وهناك دافع آخر غير هذا يحد من زيارة كوبا ، فحين يخطو المرء باب العبور فى المطار تبرق أضواء الكاميرا ، وتصب صورة كل مسافر إلى هافانا فى ملفات المخابرات الأمريكية أو إدارة المباحث العامة . بعد نقاش طويل ، وبصعوبة شديدة حصلت من السفارة المكسيكية فى هافانا على تأشيرة للعودة عن طريق المكسيك ، صالحة لمدة ٤٨ ساعة فقط . كانت الطائرة فى رحلة العودة تقل ٢٤ مسافرا ، واستغرقت ثلاث ساعات فى منطقة الجمارك للتفتيش ، حتى أن صفحات كتاب ديفيد كوبر فيلد الذى كنت أحمله ، فتشت بدقة شديدة ، وبهذه الطريقة كانت حكومة الثورة فى المكسيك تتظاهر بتأييد كاسترو بأن تمد له يدا ، بينما يدها الأخرى تمتد لمساعدة سلطات الولايات المتحدة الأمريكية أثناء إقامتى القصيرة هناك ، وعلى دعوة عشاء من صديق مكسيكى ، قال لى : لا تحتاج أن تغير شيئا فى كتابك الذى نشرته . فكل شيء كما هو » .

حين كتبت طرق لا شرعية . وهو الكتاب الذى كلفنى به الناشر حول الاضطهاد الدينى ، لم يكن فى نيتى أن أكتب كتابا آخر عن المكسيك ،

وحتى عودتى إلى الوطن لم تكن لدى فكرة عن رواية « القوة والمجد » والتى ستنبثق من ذكرياتى هناك ، فانشغالى برواية « صخرة برايتون » وتصحيح بروفاتها شغل كل أفكارى . فقد يكون المتطوعون إلى جانب فرانكو ، والذين رأيتهم على ظهر السفينة الألمانية التى حملتنى إلى أوروبا ، قد أثاروا تيارا من الأفكار فى ذهنى إنتهى بكتابتى لرواية « العميل السرى » ، ولكنى حين أعيد قراءة « طرق لا قانونية » الآن ، أستطيع بسهولة أن أكتشف خلفية كثير من شخصيات « القوة والمجد » .

الأسكتلندى العجوز د. روبرتو مثلا ، والذى قابلته فى فيلا هرموزا ، بعقربه المدلل الذى يحتفظ به فى زجاجة صغيرة ، وأخبرنى أثناء سرده لقصة حياته عن بادريه وزوجته وابنته ولطفهم وسوء سمعتهم والفئران التى يحتفظون بها فى زجاجة مصباح ،، مما وضعنى على خطى شخصية الأب جوزيه فى روايتى . وأرشدنى إلى طريق ينما الذى أجلت زيارته أربعين سنة ، وأكثر من ذلك لقد ألهمنى شخصية بطل رواية القوة والمجد حين سألته : هل حدثتنى عن قسيس شيباباس الذى هرب ؟

قال : إنه من نطلق عليه القسيس المخمور أو قسيس الويسكى .. لقد أخذ احد أبنائه ليعمده ، ولأنه كان مخمورا فقد أصر على تسمية الولد بريجيتا .. لقد كان رجلا ضائعا .. مسكينا .

وهناك شخصية أخرى طرأت على ذهنى وأنا على ظهر ذلك المركب اللعين فى فرونتيرا ـ الميناء فى المشهد الافتتاحى فى الرواية ـ طبيب الأسنان الذى أسميته د. تنش ، والذى كان يتعيش بحشو الأسنان بالذهب فى ذلك الميناء الصغير المهجور ، كان أمريكيا وليس إنجليزيا كما فى الرواية ، وكان متزوجا من مكسيكية تمت بصلة قرابة لحاكم الولاية ، صعد على سطح السفينة هربا من زوجته وأطفاله ، وكان قد لجأ إلى فندقى فى فيلاهرموزا ـ لا أعتقد أنه كان هناك فندق آخر ـ ولكن بعد أيام كمنت له عائلته فى ممرات الفندق ، أتذكره « بكابه » البحرى القديم الذى يرتديه حتى أثناء تناوله الوجبات ، يأخذ جرعات كبيرة من زيت الزيتون حفاظا على صحته كما يعتقد ، شخصية لا تحتاج إلى تنقيح ، كانت شخصية كاملة فى « طرق لا قانونية » كما هى فى رواية « القوة والمجد » .

وكلما تقدمت فى قراءة الكتاب ، قابلتنى شخصيات كنت نسيتها ، تبرز فى الصفحات تشير ساخرة « هل تصدق انك اخترعتنى ؟» .

مثلا شخصية رئيس الشرطة اللطيف والمرتشى الذى قابلته فى فيلا هرموزا ، ثم شخصية ذلك الرجل المولد الذى قابلته فى قرية ياجوابن ، بشاربيه المعقوصين ونابيه الأصفرين ، والصخب الرهيب الذى كان يثيره ، وضحكته السخيفة التى تظهر لثته الفارغة من الأسنان ، كان يرتدى قميص تنس مفتوحا من الأمام ، ويمد يده ليحك جسمه من تحت القميص . بعد اسبوع من صحبة هذا الرجل وجدت من المستحيل التخلى عنه وهكذا أصبح يهوذا روايتى .

ثم هناك آل لير ، وهم ليسوا ابتداع خيال ، لأنهم هنا فى كتاب طرق لا قانونية يجيرون مسافرا متعبا بالطريقة نفسها التى عاملوا بها القسيس العجوز فى الرواية . لم يكن هناك شخصيات مبتكرة تماما إلا القليل . حين بدأت كتابة الرواية أخذت أوزع مصائر متغيرة على أناس حقيقيين قابلتهم فى رحلتى . رحلة لا أتمنى أن أقوم بها الآن ، ركبت ثلاثة أيام على ظهر بغلة من يا جالون عبر جبال شياباس دون أن أدرى أن هذه ستكون رحلة هروب القسيس المخمور من ضابط البوليس ، فى تاباساكو كانت كل الكنائس مخربة ، أما هنا فى نهاية الرحلة عند لاس كاساس كانت الكنائس مازالت قائمة بل ومفتوحة ولكن دون السماح للقسس بدخولها . ولأنه كان اسبوعا مقدسا فقد كانت هناك طقوس غريبة يقوم بها الهنود من التلال المجاورة ، فى محاولة لتقليد بعض ما تعلموه ، فتات من لغة لاتينية طقوس عجيبة غير كنسية . كنت اقل سعادة فى هذه المدينة ، فقد كان المكان مملوءا بحاملى المسدسات المختالين — وقد اخترت نموذج شخصية ضابط البوليس من وحيهم — وكان من المستحيل أن تجلس فى ساحة عامة دون أن تلحقك إهانة ، أو تطلب شرابا فى حانة دون أن يرفض طلبك ، فقد كانت العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا مقطوعة تلك الأيام بسبب تأميم شركات البترول .

وهكذا فإن مادة الرواية كانت تتراكم دون إدراك المؤلف ، لكن بتعب وألم وخوف ولم يكن الأمر سهلا دائما .

أعتقد أن « القوة والمجد » هى الرواية الوحيدة التى كتبتها بناء على

قضية غير مؤكدة ، كنت دائما ، حتى وأنا صبي في المدرسة ، أصغي بنفاد صبر إلى قصص السياح عن فضائح القسس الذين قابلوهم في قرى نائية صغيرة في أمريكا اللاتينية (هذا القسيس له عشيقة وذاك دائما مخمور)، وكنت دائما أفرق ـ حتى وأنا بعد في المدرسة التي درست فيها بدقة ما يعتقده الكاثوليك عبر كتب التاريخ البروتستانتي ـ بين الرجل ووظيفته .

بعد ذلك ، وأنا في المكسيك قرأت وسمعت عن قصص الفساد والرشوة التي قيل أنها كانت التبرير للاضطهاد الديني تحت حكم كاليس ثم خلفه ومنافسه كارديناس . لكنني لاحظت بنفسي كيف تفجرت الشجاعة والإحساس بالمسئولية تحت هذا الاضطهاد ، لقد رأيت تقوى وتفاني الفلاحين ، الذين يصلون في كنائس بلا قسس ، وشهدت قداسات تقام في غرف علوية مهجورة دون أجراس تدق خوفا من الشرطة ، المثالية والاستقامة التي تمتعت بها شخصية ضابط البوليس في «القوة والمجد »، لم أجدهما في الواقع في أحد من ضباط الشرطة أو حملة المسدسات الذين قابلتهم ، وكان عليّ أن أخترع صفات ذلك الضابط كمقابل للقسيس الفاشل . ضابط الشرطة المثالي الذي يخنق الحياة في أوج إزدهارها ، والقسيس المخمور الذي يدفع الحياة للاستمرار مهما كان بؤسها .

كنت مقتنعا بالكتاب أكثر من أي كتاب آخر كتبته ، ولكنه استغرق عشر سنوات حتى حقق النجاح ، في انجلترا كانت الطبعة الأولى في ٣٥٠٠ نسخة وهو عدد يزيد بألف نسخة عن أول كتاب نشرته ، وذلك قبل شهر من غزو هتلر للأراضي الواطئة . في الولايات المتحدة نشرت الرواية تحت إسم مضلل وصعب « طرق التيه » . وذلك بناء على رغبة الناشر الذي باع منها فيما أعتقد حوالي ٢٥٠٠ نسخة .

بعد انتهاء الحرب ، نجح الكتاب في فرنسا بفضل مقدمة فرانسوا مورياك الكريمة ، وأثار المتاعب من جهتين : هوليود والفاتيكان ، فقد أخذ فيلم عن الرواية باسم « الهارب » ، لم أستطع تحمل رؤيته ، فقد أعطى جين فورد كل الأمانة والاستقامة للقسيس ، والفساد لضابط الشرطة حتى أنه جعله والد طفل القسيس . بينما نجاح الرواية في الأوساط الكاثوليكية الفرنسية تسبب فيما نسميه الآن رد فعل معاد ، فقد أرسل القسس إلى روما إدانتهم للرواية مرتين . وبعد حوالي عشر

سنوات من نشر الرواية ، قرأ لى كاردينال ويستمنستر خطابا من المجمع الكنسى يدين الرواية للمفارقة التى فيها ولأنها تتعامل مع ظروف غير عادية . إن ثمن تخطى الآداب العامة ، حتى داخل النظام الكنسى ، يتطلب يقظة دائمة ، لكننى أتساءل هل كانت أى من النظم الشمولية ـ من اليمين أو اليسار ـ والتى تقارن بها كنيسة روما ، ستعاملنى بلطف كما عاملتنى الكنيسة حين رفضت تغيير بعض ما فى الرواية بحجة أن حقوق ذلك فى يد الناشر ؟

لم تكن هناك إدانة علنية وتركت القضية لتسقط فى بحور النسيان . بعد سنوات حين قابلت البابا بولس السادس أشار إلى أنه قرأ الرواية ، قلت له إنها قد أدينت من المجمع الكنسى ، قال : من أدانها ؟ قلت : الكاردينال بيسارده .

ردد الاسم بابتسامة ساخرة وقال :

ـ سيد جرين .. من المؤكد أن بعض أجزاء روايتك تزعج بعض الكاثوليكيين .. ولكن عليك ألا تعير ذلك التفاتا .

* * *

٢

كان يدهشنى فى تلك الأيام المبكرة ، أنى أستطيع كتابة الرواية فى تسعة أشهر ، لكن أن أكتب رواية فى ستة أسابيع ..؟ إن رواية « العميل السرى » كتبتها فى ستة أسابيع سنة ١٩٣٨ بعد عودتى من المكسيك .

زودتنى الحرب الأهلية الأسبانية بفرشة الرواية ، لكن إتفاقية ميونيخ هى التى جعلتنى أسارع فى إتمامها ، فى ذلك الوقت كانت الخنادق تحفر فى لندن ، ويجلى الأطفال إلى الريف حاملين أقنعة الغاز فى صناديق كرتونية . وانضم معظمنا من المهنيين والصحفيين وموظفى البنوك والله أعلم من أيضا ، إلى تنظيم غامض سمى : ضباط الاحتياط للطوارىء ، وحين أقول غامض فإنى أعنى أن دوافعه غامضة كقوى الطبيعة ، وانتهت الطوارىء ، وتركت الخنادق دون إكمال وعاد الأطفال ، لكن بقى

الاحتياط ، وانتابنا القلق ، فإذا قامت الحرب ـ وبلاشك كانت مسألة أشهر ـ فسنجد أنفسنا فى الجيش يوما تاركين عائلاتنا دون معين .

كنت أكافح فى كتابة « القوة والمجد » ، وهى رواية ـ كما أتنبأ ـ من الكتب التى لا تجلب النقود ، وبالتأكيد فإن زوجتى والطفلين لن يستطيعوا الحياة على ريع كتاب لا يبيع بينما أنا أرضى ضميرى الوطنى فى الجيش . فصممت أن أكتب رواية تسلية أخرى بأسرع وقت وذلك فى أوقات الصباح ، بينما أكتب بعد الظهر فى رواية القوة والمجد براحتى ، ولكى أوفر جوا مناسبا للعمل ، بعيدا عن جرس التليفون وصياح الأطفال ، إستأجرت مكانا فى ميدان ميكلنبرج ، وكان آنذاك ميدانا جميلا من القرن الثامن عشر ، ولكن معظمه بما فيه المكان الذى إستأجرته دُمّر قطعا بعد سنتين .

وهكذا وقد هيأت المكان ، وبقيت الفكرة . كان المشهد الافتتاحى بين عميلين متنافسين على ظهر مركب تقطع القنال ، أسميتهما دال ولام لأنى لم أرغب فى جعل صراعهما محليا . كان ذلك كل ما فى ذهنى إضافة الى طموح غامض ان أخلق شيئا أسطوريا من رواية رعب معاصرة . الرجل المطارد الذى يصبح بدوره صيادا ، الرجل المسالم الذى يتحول حين يجد نفسه فى وضع حرج إلى إنسان آخر ، الرجل الذى تعلم أن يحب العدل يعانى من الظلم . ولكن عم ستكون الأسطورة ، أو كيف أكتبها بمصطلحات حديثة ، لم يكن لدى فكرة . ووقعت لأول وآخر مرة فى حياتى ضحية للبنزدرين . ولمدة ستة أسابيع كنت أبدأ يومى بحبة منه . ثم أجدد الجرعة فى منتصف النهار وكل يوم أجلس للكتابة وليس لدى فكرة عما ستؤول اليه الأحداث ، أكتب بآلية اللوحة التى تكتب بمجرد اللمس بمعدل ألفى كلمة يوميا ، بدلا من المعدل العادى ٥٠٠ كلمة ، وفى العصارى تتقدم القوة والمجد بالمعدل البطىء دون أن تتأثر الرواية النشطة الصغيرة التى تغلبت عليها .

« العميل السرى » إحدى رواياتى القليلة التى عنيت بإعادة قراءتها بعد الإنتهاء منها ، ربما لأنى شعرت إنها ليست قصتى تماما ، كما لو أن رجلا آخر هو الذى كتبها . كانت الرواية تسير بسرعة لأنى لم أتوقف عن المشاكل التقنية الخاصة ، كنت كمن يؤلف رواية لكاتب عجوز سيموت بعد فترة قليلة ، وينسف المكان الذى يعمل به ، وكل ما أستطيع

قوله ، أن العميل السرى كرواية إثارة ، أفضل من روايات فوكس مادوكس فورد حين كتب هذا النوع من الروايات .

كنت أجبر نفسى على زيادة سرعة الكتابة ، وعانيت من ذلك ، ستة أسابيع من استخدام البنزدرين تركت أعصابى ممزقة ، وعانت زوجتى من النتيجة . أعود إلى البيت فى الخامسة مساء ، بأيد مرتجفة وكآبة تتساقط فوقى كانتظام الأمطار الإستوائية ، أجد فى كل كلمة إهانة ، وأسبب الأذى للآخرين بلا سبب .

وكان علىّ بعد انتهاء الأسابيع الستة ، ولمدة طويلة ، أن أستمر فى جرعات أقل وأقل حتى أحطم عادة الإدمان . إن لمهنة الكتابة جحيما يشكل بصيغ غريبة ، وحين أتطلع إلى الوراء أعتقد أن تلك الأسابيع الستة من الإدمان هى المسئولة بدرجة أكبر عن تحطيم زواجى من مشاكل البعد فى الحرب أو خياناتى لزوجتى .

القلق الذى دفعنى لأكتب بتلك السرعة إنتهى بطريقة ساخرة ، فلقد استدعيت للتوزيع على أحد فروع الجيش كإحتياطى فى شتاء ١٩٣٩ ، واستغرق الأمر عدة أسابيع قبل أن تصل السلطات لحرف جى أول حرف فى إسمى . كنت قد شفيت من الإدمان وتوقفت يداى عن الإرتجاف فاجتزت الكشف الصحى بنجاح ، ثم أدخلت على اللجنة المكونة من ميجر جنرال وإثنين من الكولونيلات لتوزيعى ، كان يبدو انهم فى حيرة ، ويعرفون قليلا مثلى عما يمكن أن يفعله ضباط إحتياط غير مدربين ، وسألنى الجنرال بطريقة مثيرة للشفقة .

« أين تتخيل نفسك ضمن ضباط الإحتياط ».

تمتمت بشىء ما عن الإعلان الخاص بضباط الإحتياط ، وعن أن الصحفيين ضمن المطلوبين لذلك ، وأنى كنت صحفيا ذات يوم .

قال الجنرال بلا اهتمام : نعم .. نعم .. لكن أين ترى نفسك ؟ كان الثلاثة يراقبوننى بقلق ، كنت منتبها لتنفسهم البطىء ، وشعرت ببعض التعاطف معهم لما قاموا به من جهد يوما بعد يوم ، مع زملائى من ضباط الاحتياط من الالف حتى الجيم .. وأدركت إنهم سيفزعون لو ذكرت لهم كلمة المخابرات ، فكل من سبقنى كان يقولها ولم يرغب أحد فى دخول سلاح آخر فى الجيش ، إندفعوا إلى الامام قليلا فى مقاعدهم وانتابنى إحساس أنهم يمدون لى فى يأس حزمة من ورق اللعب لأختار ورقة

يريدونها ، فقررت أن أساعدهم ، وأخذت الورقة التي يريدونها قلت : « أتخيل نفسي في سلاح المشاة » .

تنهد أحد الكولونيلات بارتياح ، وقال الجنرال بسعادة ظاهرة :

ـ لا أعتقد أنه من الضروري أن نسأل مستر جرين أسئلة أخرى أليس كذلك ؟

لقد رأيت أنني أرحتهم . وفكرت أنه يمكنني أن أطلب منهم معروفا دون خوف ، قلت أحتاج لأشهر قليلة لإكمال روايتي القوة والمجد هل يمكن تأجيل إستدعائي قليلا ؟

إبتسم الجنرال إبتسامة مشجعة ، وقال بالطبع يمكنك أن تنال هذه الأشهر الثمينة .. هل نقول حتى يونية القادم .. لكن حافظ على لياقتك في الوقت نفسه .. ما أعنيه هو .. (تردد بحثا عن الكلمة المناسبة) .. أعني .. مثلا بدل أن تركب الحافلة .. سر على قدميك .

وكما حدث بعد ذلك ، لم يصعب عليهم في سلاح المشاة إكتشاف عدم لياقتي ، وحتى وأنا في المدرسة كنت أعني من الاستعراضات الهامة لفشلي في السيطرة على تثبيت الحربة مثلا ، وفي سنة ١٩٤١ تخلوا عن فكرة تعليمي ركوب الدرجات البخارية بعد أن حطمت إثنتين وقرروا إدخالي دورة تدريبية في المخابرات . ليس من السهل أن تهرب في الحرب من أذرع المخابرات المتعددة .

هناك أشياء معينة أحببتها في رواية « العميل السرى » ، مثل ورطة العميل مع فكرة الشك ، فحزبه لا يثق فيه ، وهو يدرك أن حزبه على حق في عدم الثقة به ، وفي الرواية كان المأزق يتعلق بالعميل الشيوعي (رغم أن دال لا يحمل بطاقة الحزب) . وككاتب كاثوليكي لا أستطيع إلا أن أتعاطف مع أي إنسان يتمسك بعقيدته بإخلاص مهما كانت هذه العقيدة . وكنت سعيدا حين استشهد كيم فيلبي بهذه الرواية ، بعد عشرين سنة ، ليفسر موقفه من الستالينية . ويبدو أني لم أخطيء كثيرا خاصة أني حين كتبت الرواية لم أكن أعرف شيئا عن عمل المخابرات .

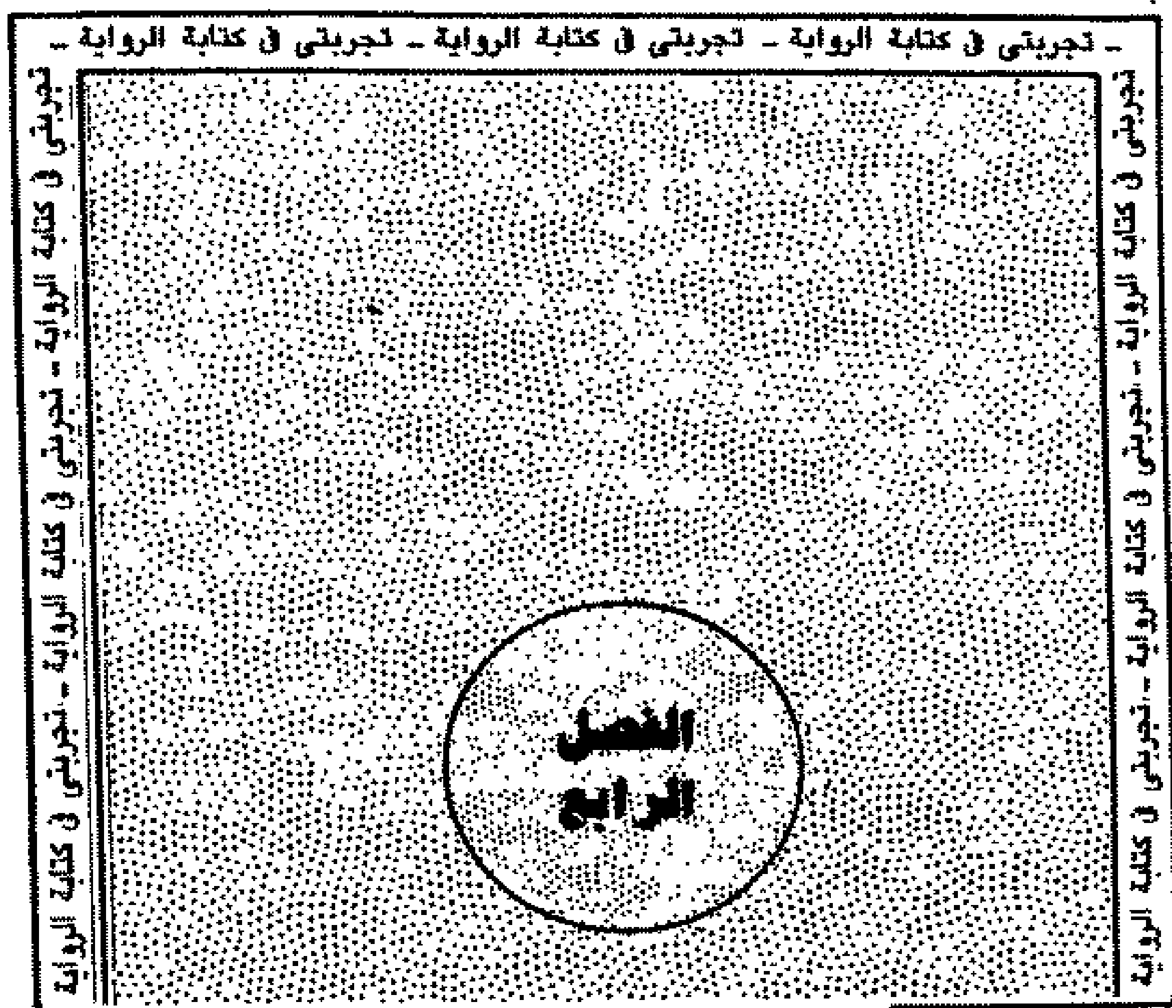
وهناك لحظات أخرى في الرواية تنتمي لفترة لاحقة وكأنه نوع من التنبؤ ، فالعصابة المنتهكة للقانون في ولبتن والتي ساعدت دال في تخريب المنجم ومصانع آبائهم من أجل المرح فقط ، من الاشياء التي تنتمي لفترة ما بعد الحرب ، وكذلك الفندق الرهيب في ساوثكرول المسمى

الليدو ، ببرامج اللهو المنظم فيه ، يشبه معسكر تبلن لقضاء الاجازات فى كلاكتون ، والذى أقيم بعد فترة لاحقة للرواية .

كتب « دن » فى كتابه « تجربة مع الزمن » عن الأحلام التى تأخذ رموزها من المستقبل كما الماضي . أمن الممكن أن الروائى يفعل الشيء نفسه . حيث أن معظم عمله يأتى من مصدر شبيه بالأحلام ؟ إنها فكرة مزعجة ، هل كان زولا وهو يكتب عن عمال المناجم الذين حوصروا فى منجمهم وماتوا اختناقا بالغاز السام ، يستلهم شيئا من ذاكرة المستقبل عن موته الخاص الذى حث نتيجة لاستنشاقه الغاز السام الصادر من موقده الذى يعمل بالفحم ؟

من العدل إذن ألا يعيد الكاتب قراءة رواياته ثانية ، فهناك إشارات كثيرة عن مستقبل غير سعيد . لماذا كتبت سنة ١٩٣٨ أن دال يصغى إلى الراديو وهو يعرض لشكلة الهند الصينية ؟ أكانت هناك أيامها مشكلة خطيرة كهذه يتحدث عنها راديو لندن ؟ مرت ست سنوات قبل أن تبدأ الحرب الفرنسية فى فيتنام ، وثمانى سنوات أخرى لتصبح مشكلة الهند الصينية حيوية بالنسبة لى حين وقفت بلا حراك قرب كاتدرائية فان ديام لأرقب القناة المليئة بجثث الفيتناميين .

* * *



١

فى شتاء سنة ١٩٤١ وجدت نفسى على ظهر سفينة شحن تمخر شمال الأطلنطى كجزء من قافلة تسير ببطء قاصدة غرب إفريقيا عن طريق دائرى . كنت قد جندت فى المخابرات فى الفرع المعروف بـ م١٦ أو إس . أى . إس . مع شقيقتى إليزابيث . بعد أن جندت فقط عرفت معنى كل تلك الأقسام عن طريق مستر سميث الغامض الذى دعيت لمقابلته فى لندن ، وبالرغم من الغارات الجوية وتوزيع الطعام بالحصص ، كان يبدو أنه لا تعوزه كافة أنواع المشروبات . فتشت وفحصت بدقة ، كما وقفت سكوتلانديارد فى تاريخ حياتى وهى التى لاحقت آثار قضية شيرلى تمبل .

خلال الرحلة أنهيت كتابا صغيرا بعنوان « دراميون بريطانيون » ، وسط الحراسات اليومية ، طائرة تحرسنا من الجو وغواصة من البحر . بعد عشرة أيام من إبحارنا من بلفاست وصلنا آخر خط عرض على الأرض ، شمالا قرب إيسلندا ، وبذا بدا شاطىء إفريقيا الغربي بعيدا جدا . أحضرت معي صندوقا من الصلب مليئا بالكتب ، على أن يكفيني حتى أنتهي من الخدمة بعد سنتين ، لذلك بدأت أقرأ الكتب الموجودة في مكتبة السفينة . أحد تلك الكتب كان بقلم مايكل إنز ـ مؤلف لم أكن قد عرفته قبل ذلك ، فلم أكن أهتم بالقصة البوليسية الإنجليزية بكل مراجعها الموثقة بعناية وجداولها وتقنيتها وجغرافيتها وخطتها الكاملة ، كنت أجدها تفتقر إلى الواقعية ، فيها الكثير من الشخصيات التي يحوم الشك حولها بارتكاب الجريمة ، وعادة ما يكون المجرم منتميا إلى ما يسمى بالطبقة المجرمة . أما خارج هذه الطبقة فإن دوافع القتل هي الجنس أو الجشع ، ولكن الكاتب البوليسي الإنجليزى مُنع من التطور بسبب فجاجة جمهوره الدائمة ، وهي صفة لا تمنع تعامل أستاذ جامعة مثلا مع العاطفة الجنسية بشكل واقعي ، وهكذا يضطر الكاتب لاشراك قرائه بقصة تحتوى على وصايا مزيفه ، وأشخاص مجرومين من الميراث ، .وورارثين بخلاء وبالطبع جداول مواعيد القطارات لأرضاء الجمهور .

لكن كتاب مايكل إنز كان يقدم شيئا مختلفا ومدهشا ، كانت رواية بوليسية طريفة وغريبة .

أثناء الليل وأنا مستلق في سريرى ، بنصف أمل أن أسمع صفارة إنذار تكون مقدمة للعودة إلى إنجلترا ، راودني خاطر أن أكتب رواية فكهة وخيالية ومرعبة ، إذا استطاع إنز أن يفعل ذلك فلماذا لا أستطيع أنا ؟ وقدمت الظروف المعاصرة ـ ديسمبر سنة ١٩٤١ واليابان قد ضربت بيرل هاربر قبل وقت قصير ، والقوات الألمانية تشق طريقها نحو موسكو ، وكنا نصغي للأنباء كل ليلة من جهاز الراديو الخاص برئيس الخدم ، حبكة روايتى « وزارة الخوف » ، وبدت الرواية طريفة ، رجل تبرئه المحكمة من تهمة قتل زوجته ، يجد نفسه مطاردا بسبب جريمة هو برىء منها تماما ولكنه يعتقد أنه ارتكبها ، طبعا تبدو القصة غير واضحة حين أرويها بكلمات قليلة ، لكنى قبل أن أنهيها بفترة أدركت أنها ليست فكهة

رغم أن فيها مزايا أخرى .

ولم تكتب الرواية فى ظروف سهلة ، بعد أشهر من التدريبات وجدتنى مسئولا عن مكتب لا أحد فيه غيرى فى فريتاون (بعد حوالى أربعة أشهر جاءتنى سكرتيرة) ، لم أفكر فى بدء الكتاب فى لاجوس حيث تزدحم أيامى بالارسال بالشفرة ثم حل الشفرة ، وفى الليل أقضى الوقت مع زميل فى بيت قديم مهمل للشرطة على شاطىء نهير يعج بالناموس ، وللترفيه عن أنفسنا إعتدنا اصطياد الصراصير على ضوء البطاريات ، ونضع بقلم رصاص على الحائط درجة لموت الصرصور المؤكد . ونصف درجة إذا إنزلق داخل حوض التواليت ، وقد وصفت هذا بعد ذلك فى رواية « لب القضية » . أما فى فريتاون فإن البيت الذى أقمت فيه ، يقوم على أرض مسطحة أسفل محطة هل ، فى مواجهة معسكر تجنيد نيجيرى يجذب الذباب والنسور . كان البيت قد بناه شخص سورى ويتميز بأن له سلما يؤدى إلى دور أول فى هذه البلاد ذات البيوت من الطابق الواحد . وكان قد تقرر عدم صلاحية البيت للسكنى من طبيب الجيش المسئول عن الصحة ، ولكن لم يكن سهلا الحصول على بيت فى فريتاون حيث فرق من المشاه والبحرية والطيران تعسكر هناك . حين سقطت الأمطار عرفت السبب فى عدم صلاحية للسكنى ، فقد أصبحت الأرض التى بنى عليها مستنقعا كبيرا ، تمتد بينه وبين البحر عدة أفدنة من الشجيرات الصغيرة . كانت تستخدم كمرحاض يقضى فيها سكان الأحياء الفقيرة من الأفارقة المقيمين فى الجوار حاجتهم .

أستيقظ فى السادسة صباحا وأتناول إفطارى ، كانت أدوات المطبخ محدودة ، وقد استيقظت ذات صباح على صراخ طباخى (الذى جن أخيرا) وهو يطارد الخادم بفأس قصيرة لأن الصبى استعار علبة السردين الفارغة التى يسلق لى فيها الطباخ البيض . كان الحياة تختلف عن الحياة فى لندن تحت الغارات الجوية حيث تدور أحداث روايتى ، ولكن دائما من السهل وصف شىء أنت بعيد عنه . فى السابعة أركب عربيتى الموريس الصغيرة وأتجول فى فريتاون ، وأشترى ما أحتاجه ، وآخذ البرقيات التى وصلتنى من قسم البوليس الذى أنتمى إليه شكليا كغطاء لعملى فى المخابرات . تصل البرقيات مكتوبة بشفرة غير مفهومة للشرطة ، وتسلم لى باليد من مفوض الشرطة نفسه ، وهو رجل فى أواخر

سنوات منتصف العمر ، وقد ملت اليه كثيرا .

أعود إلى البيت وأحل شفرة البرقيات وأجيب عليها قدر استطاعتى ، ثم أكتب تقاريرى أو أنظم تقارير الآخرين بشكل مقبول ، وعند موعد الغداء يكون العمل قد انتهى إلا إذا جاءت برقية عاجلة ، أو حقيبة مرفقة مع قافلة عسكرية يجب فتحها والتعامل مع ما جاء فيها من الأوراق .

بانتهاء الغداء ومع حرارة الجو العالية ورطوبته ، أنام قليلا ، لكن تقلق نومي حركات النسور الثقيلة على السطح الحديدى فوقي (رأيت ستة منها تجثم على السطح كمظلات قديمة مكسورة) ، وحين يطير أحدها أو يهبط يبدو صوت قدميه كلص يحاول اختراق السقف ، في الرابعة والنصف أتناول الشاى ، ثم أتمشى وحيدا على خط سكة حديد مهجور أستخدم ذات يوم من الأوروبيين ، يقع في منتصف الطريق على المنحدرات أسفل محطةهل . كنت أشرف على منظر واسع لخليج فريتاون حيث كانت ترسو هناك أحيانا السفينة كوين مارى في ملاذ كما لو أنها خطفت من شمال الأطلنطى ، وتبدو السفينة المسماه « اندنبرج كاسل » وهى جانحة على الشاطىء فوق مجموعة كبيرة من الزجاجات الفارغة ، يأكلها الصدأ ، وتستخدم الآن كمخزن للذخيرة .

حين تبدأ الشمس في الغروب ، تتحول المرات الصخرية إلى لون الورود ، وكانت تلك الساعة وذلك المكان هو ما افضله . عند الغسق يكون موعد العودة إلى البيت قد حان ، وأسميه بيتا لأنى اعتدت عليه بعد سنة من الإقامة فيه .

آخذ حماما قبل هبوط الليل فجأة في السادسة مساء، وتلك الساعة أسميها ساعة الفئران ، فلقد أقمت ممرا بين المطبخ والبيت مما شكل قنطرة للغزاة من الفئران ، وذات مرة في السادسة والنصف وجدت فأرا يقضي حاجته على حافة التواليت (الفئران دقيقة دائما) ، ولم أستحم في وقت متأخر عن ذلك أبدا . ومن الممكن أن أستيقظ بالليل لأرى الفئران تتأرجح بستائر غرفة النوم ، من المؤكد أن كل ذلك سلب روح المرح من رواية « وزارة الخوف » والذى حاولت أن أضفيه عليها ، ومع ذلك فإنى أقسم أنى كنت سعيدا في الأشهر الستة الأولى من إقامتى هناك . كنت في أرض أحبها ، ولقد كتب كبلنج « لدينا عذرية واحدة نفقدها ، وحيث

نفقدها تظل قلوبنا متعلقة هناك » . وفى القرن التاسع عشر قام هنرى جيمس برحلة إلى أوروبا وفقد قلبه مرة وإلى الأبد فى حب إيطاليا « لا أحد أحب روما كما يحبها المرء فى شبابه ، ويرغب فى التوقف عن حبها » .

ولقد فقدت قلبى فى إفريقيا الغربية فى ليبريا وأنا فى الحادية والثلاثين من عمرى .

وهكذا ، لا يتبقى وقت كثير للكتابة ، ففى أى فترة من النهار يمكننى أن أحشر وقت الكتابة ؟ أيكون بين موعد تناول الشاى والنزهة على خط السكة الحديد ؟ أو بين مشروب الساعة السادسة والعشاء ؟ من المؤكد أن كأس الويسكى الذى أتناوله فى السادسة لا يستغرق وقتا ، كان لدى تموين من الويسكى عبارة عن زجاجة واحدة تصرف لى كل شهر مع زجاجتين من الجن وست زجاجات من البيرة ، وبعد فترة مؤلمة من الحرمان ، إستطعت بمساعدة ضابط فى المخابرات الجوية أن أحصل على عدة زجاجات اضافية من النادى الكندى ، وعن طريق ضابط فى الأسطول كان يأخذ سفينة الحراسة المضادة للغواصات كل شهر إلى بيساو فى غيانا البرتغالية ليحضر بريد القنصل ، استطعت الحصول على دمجانات من النبيذ البرتغالى الممتاز الابيض والأحمر ، أستمتع بتذوقه بكل ما فى الكلمة من معنى حيث أنه معفى من الرسوم الجمركية أيضا .

بقيت مشكلة الجن ، وقد ثبت أن الجن الكندى خطير ويسبب التسمم ، وأمر الأدميرال بالقائه فى القمامة ، وإرتفع كوم الزجاجات التى تستريح عليها السفينة « إدنبرج كاسل » .

حين اكتملت الرواية بشكل ما ، وأتوقف قليلا عند كلمة شكل ما ، لأن إتمام الرواية أزاح كل تلك العقبات التى اعترضتنى وضايقتنى ، عقبات بعضها كنت أرحب به مثل تلك الرحلة الى داخل البلاد بالقطار ، على خط صغير يسير قريب الحدود الليبرالية وغيانا الفرنسية ، وكنت قد ركبت هذا القطار منذ سنوات عند بدء رحلتى الطويلة التى وصفتها فى كتابى « رحلة بلا خرائط » ، لا شىء قد تغير بعد سبع سنوات ، على المرء أن يستأجر خادمه الخاص ، وأن يتزود بالمعلبات ، وبالكرسى والسرير وحتى المصباح الذى يعلقه بخطاف فى مقصورته . يتوقف القطار عند بلدة « بو » حيث توجد إستراحة حكومية ، ثم يصعد القطار الجبل ببطء إلى

« بندميو » ، وتوجد هناك أيضا إستراحة حكومية مهملة نوعا ما من الرقيب المحلى ، ولذلك فضلت تناول وجباتى فى القطار . صادفتنى مشكلة بسبب تكاليف هذه الرحلات ، لكن ليس بالشكل المفترض أن تحدث به .

إعتدت أن أنفق خمسة شلنات كل يوم وهو معدل انفاق ضابط فى المستعمرات بما فيه فرق السعر بين الطعام المعلب والطازج ، طبعا السفر والاقامة مجانا ، تلقيت برقية شديدة بالشفرة من لندن تخبرنى بأن « النفقات اليومية لضابط فى رقبتى يجب الا تزيد عند ثلاثة جنيهات ، ومن فضلك كيفّ نفسك على ذلك واثبته فى الدفاتر » . أطعت بنشاط ، فتحت خزانة المكتب وحولت مبلغ أربعين جنيها إلى جيبى ، وأرسلت بالشفرة أن كل شىء تمام ومثبت .

كما واجهتنى عقبات تفسد أقل بهجة ، مثلا علاقتى مع الضابط المسئول عنى فى لاجوس ، والتى تبعد عن المكان الذى أقيم فيه بألفى ميل ، كانت علاقات محبطة . لقد تبادلنا الكراهية بمجرد النظر ، كان خبيرا فى المهنة وكنت هاويا ، وضايقته اللهجة الساخرة التى تسرى فى تقاريرى أحيانا بل وفى برقياتى ، أشعر بالأسف الآن للرجل المسكين الذى كان عليه أن يتعامل فى السنوات الأخيرة من عمل مع روائى ، كان رجلا مريضا وعلى جهل تام بإفريقيا ، وكنت لا أدرك ذلك آنذاك ، وقد علمت فيما بعد أنه كان يترك حقيبة فريتاون مغلقة على مكتبه أياما خوفا مما تحتويه ، وفكر ذات يوم أن يؤدبنى بوقف مستحقاتى التى كان من المفروض أن يرسلها شهريا بالحقائب من لاجوس ، لكنى كنت أقترض من مدير البوليس ، وهكذا فشلت خطته لمضايقتى وأخيرا وصلنا إلى الحرب المعلنة ، فقد كنت على موعد فى كالاهون على الحدود الليبيرية مع شخص ما ، فأرسل برقية يمنعنى من مغادرة فريتاون بحجة أن سفينة برتغالية على وشك الوصول ، وكانت السفن البرتغالية تفتش بدقة بحثا عن الماس الصناعى والمراسلات المحظورة ، لكن هذا الأمر لم يكن من اختصاصى بل من اختصاص المفوض الذى يمثل م ١٥ ، بعد مناقشة بيننا أطعت ، لكنى كتبت تقريرا دقيقا ومفصلا إلى لندن محذرا من الأحداث السيئة التى قد تنشأ إذا ألغيت هذه المقابلة وقدمت إستقالتى ، لم تقبل إستقالتى ، وبقيت ستة أشهر أخرى ، لكنى تحررت من سيطرة لاجوس ، وبالتأكيد إحساسى بالحرية ساعدنى على الاستمرار فى كتابة الرواية .

وعلى كل حال أتساءل أحيانا كيف أمكنني أن أنهي هذا الكتاب ؟ عنوان الرواية « وزارة الخوف » أخذته من قصيدة لوردزورث (مختارات أرنولدز لقصائده كان أحد المجلدات التي حملتها معي في إنجلترا) ، ولقد إشترت شركة سينمائية أمريكية حقوق إنتاج الرواية سينمائيا دون أن يقرأوها وذلك على حس عنوانها .

واجهتني بعد ذلك مشكلة إرسال المخطوطة إلى إنجلترا ، وأنت في فريتاون لا يمكنك أن تنسى تهديد الغواصات في البحار فهو جزء من حياتنا اليومية ، وهو سبب بقاء الزوجات بعيدات عن أزواجهن ، وأيضا هو السبب في عدم وجود ثلاجة لدى فقد فقدت في الطريق .

بانتهائي من الرواية ، بدأت العمل المتعب وهو طباعتها على الآلة الكاتبة بأصبع واحدة بعد العشاء كل يوم ، وكنت محظوظا أن أنهيتها قبل الإنزال الألماني السريع في شمال إفريقيا الذى أثر حتى على المنطقة التى نقيم بها بالبرقيات المتواصلة في كل الساعات .

تحدثت هنا قليلا على الرواية نفسها . رغم أنها المفضلة لدى وسط ما أسميته آنذاك بروايات التسلية تمييزا لها عن الروايات الجادة الأخرى التى كتبتها ، أود لو أني عالجت عنصر التجسس في الرواية بواقعية أكبر ، رغم إعتقادى أن مستر برنتيس من الفرع الخاص كان واقعيا بما فيه الكفاية ، وقد عرفته تحت إسم مختلف في منظمتى حين تتلمذت عليه ، إن المشاهد الخاصة بعيادة الأمراض العصبية من أفضل أجزاء الرواية في رأيي ، ومن الغريب أن المخرج فرنزلانج قد حذف هذه المشاهد من فيلمه مما جعل القصة كلها بلا معنى .

كما أعتقد أن جو الغارة الجوية قد نفذ بشكل جيد ، والتوهجات الثلاثة التى رآها « رو » تسير ببطء وجمال كعنقود من لمع شجرة عيد الميلاد ، شاهدتها بنفسى تدمر متجر مابل ليلة الغارة الكبيرة على لندن في ١٦ إبريل قبل مغادرتى إلى إفريقيا ببضعة أشهر . كانت لندن في تلك الأيام مناطق منعزلة كعنقود من القرى ، ومن الصعب على المرء أن يتجول في أماكن بعيدة عن منطقته ، وعلى الرغم من الحرب فإن البعض كان يخرج في نزهات هادئة في نهاية الإسبوع .

بينما كنت أكتب « وزارة الخوف » بعيدا في إفريقيا الغربية ، وأذكر ما يحدث في لندن ، زحف قليل من الحب إلى صفحات الرواية ، ووجدت

هذا الحب أيضا فى مقتطفات احتفظ بها وكتبتها أثناء الغارة الجوية الكبرى أسميتها لندنيات .

* * *

٢

كتب لى الروائى إيفلين وو ذات يوم قائلا : إن العذر الوحيد الذى يقدمه لعدم ظهور روايته « زيارة بروستدثانية » بالشكل الذى يريده هو « علبة اللحم المحفوظ ، وفترات التعتيم بسبب الغارات ، وأكواخ بنسين (وهى أكواخ برميلية الشكل تقام من صفائح حديدية جاهزة)» . وأشعر بالشىء نفسه نحو رواية « لب القضية » ، رغم أن أسباب إعتذارى ستكون مختلفة ، فهى « المستنقعات ، والمطر ، وطباخ مجنون » . لأن حرب كل منا كانت تختلف عن حرب الآخر .

فى السنوات الست التى تفصل بين انتهائى من رواية « القوة والمجد » ، وبداية رواية « لب القضية » ، علا الصدأ أسلوبى من الإهمال وسوء الإستعمال (سوء الاستعمال يشمل أسلوب البرقيات الكثيرة والتقارير التى أرسلتها من فريتاون إلى الرئاسة فى لندن) .

بدأت الرواية مباشرة بعد إنتهاء الحرب سنة ١٩٤٦ ، بعد ثلاث سنوات من إغلاقى مكتبى الصغير فى فريتاون ، وإحراق ملفاتى وكتب الشفرة ، ولم أكن أستطيع الإحتفاظ بيوميات منتظمة عن تلك الفترة لأسباب أمنية . لكنى عند تفحص بعض الملاحظات العشوائية التى كتبتها ، بدا كأنى كنت أداعب فكرة الرواية بين التقارير والبرقيات ، مع أنها ليست الرواية نفسها التى أكتبها .

قابلت بالمصادفة أثناء إحدى رحلاتى فى أعالى البلاد الأب « ب » الذى لا أذكره الآن إطلاقا ، ولابد أنى كنت أذكره جيدا حين كتبت « لب القضية » ، وصورته فى شخصية الأب كلاى الذى قابله سكوبى حين سافر إلى « بامبا » ليحقق فى قضية إنتحار الشاب بمبرتون .

قرأت فى ملاحظاتى العشوائية « الولد الريفى الصغير المسكين ذو

الشعر الأحمر الذى أهمله رفاقه » ، « أصابته بحمى البول الأسود » ، « أسير جيئة وذهابا هنا » وهى الكلمات نفسها للأب كلاى فى الرواية ، ولم يكن لدى فكرة عن الميجور سكوبى فى تلك الأيام ، كل ما طرأ على خيالى هو القسيس الشاب من الريف فى الشمال ، ووجدت أطرا قليلة مكتوبة بقلم رصاص باهت تبدأ فكرة القصة :

« لو كنت كاتبا حقا ، فلابد أن تغرينى هذه الشخصية لوضعها فى رواية . أتخيل أن هذا ما يشعر به الكاتب من الحضور الطاغى لفرد يرغبون فى فهمه ، لكنى لا أملك الوقت أو المهارة لعمل كهذا الآن . وكل ما أستطيع عمله هو جمع الإنطباعات التى يتركها هذا الرجل على كل من عرفه ، وأخشى أن أجد صعوبة فى خلق الشخصية من مجموعة انطباعات كهذه ، أثناء مراجعتى للكتب قرأت أن الروائيين قد يُمدحون أو يُذمون لنجاحهم أو فشلهم فى رسم الشخصية ، لكن شخصيات كهذه تبدو علاقاتها مع الحياة كالصور التى نراها فى هذا البلد أو ذاك مرسومة على الجدران الطينية لبيوت السكان ، القطار يعبر عنه بصف من المستطيلات ، وكل مستطيل يقف على دائرتين ، وهكذا يبسط المؤلف الشخصية ، والتناقض الذى يحمله الإنسان بين جوانبه يزال أو يهذب ، والنتيجة فن منظم ومهذب لتصوير حالة عقلية معينة ، وهذا الكتاب الذى أنوى كتابته سيكون على خلاف ذلك ، فقد تركت الشخصيات بكل تناقضاتها ، فهدفه الوحيد هو تقديم شخصية غامضة بكل الصدق الذى نعرفه عن الشخصيات الغامضة » .

لكن الرواية لم تتقدم بأكثر من هذه الملاحظات ، وكانت مشروعا آخر هجرته على الشاطىء مع الأشياء الأخرى التى هجرتها ، وأنا سعيد إذا أثبت تلك الملاحظات من مفكرتى ، وربما لو كتبت تلك الرواية لكانت أفضل من « لب القضية » .

فى مفكرتى القديمة أحداث وشخصيات متفرقة كان من الممكن أن تضمها روايتى ، أحداث وشخصيات تشكل جزءا من الحياة الروتينية لممثل لفرع إس . أى . إس . فى فريتاون ، لابد أن أحدا منهم قد وجد له ركنا فى الرواية ، ولكننى لا أريد البحث عنهم الآن .

« رسائل العميل الألمانى ، وقائمة السفن التى خابرت « تيل » ، كان متفائلا جدا حين قال لا يمكن للسفن أن تخابر أحدا هنا » من كان ذلك العميل ؟ نسيته تماما كالأب « ب » .

وهناك نبذة أخرى من مفكرتي آنذاك « الجماهير التي إشتركت في الجنازة تعود إلى البيت . ظننت أنها حفلة عرس ، حشد من النساء في ملابسهن الوطنية البراقة ، نوع من المرايل السوداء وقميص فوقها ، وعازف المترددة يضرب دم دم دم،والنسوة يتحركن بخطوات صغيرة راقصة ويصحن ويشرن إلى الجنود في المعسكر ، الكل يترنح كالسكارى ، وفي البيت الفتيان يلعبون الكرة ، والنساء الأكثر حزنا يحملن مناديل وتبدو عليهن الرزانة والكآبة ، إمرأة برداء أوروبي أبيض تسير وحدها . الولد الذي يعمل عندي .. قال لي أخي يحتضر من الأسهال ، ولدي أيضا عقدة إسهال وعالجته ، قلت : بالحقن ، قال لا وأشار بيده إشارة معبرة « الدكتور طرد الإسهال » ، رائحة الخمر تفوح منه وهو يسير بمشية متكلفة تبرز رد فيه يقول « أنت تشرب إذا رأيت أخاك أو أمك أو أباك في الفراش يحتضر ولا يستطيع رؤيتك » تشرب لتمنع الماء من النزول من العين ، لا أستطيع أن أخبر أحدا ، إذا عرف الناس أنه يحتضر سيأتون ويسرقون أشياءه ».

يقيم حفلا طوال الليل ، ويشرب حتى لا تخرج الدموع من عينيه ، ويستكشف ممتلكات أخيه ، ويأمر أخاه الأصغر بتدوينها . في الصباح التالي أخبرني باهتمام أن هناك « ماكينتين » للخياطة ، ولكن أخاه لم يمت بعد » .

ربما هذا هو الولد الوحيد الذي استأجرته ولم أسترح له ، وقد حاول طباخي المجنون قتله بفأس ذات يوم ، سجن الولد بتهمة اليمين الكاذبة ، وهي تهمة تستعصي على فهمه ، ومع ذلك جعلت أفضل محاميا أسود في فريتاون يدافع عنه أمام القاضي الانجليزي السخيف لابس الباروكة ، لكن حظي مع القانون ضئيل ، فقد اتهم طباخي أيضا بأنه أخذ نقودا مقابل القيام بعمل سحري لم يحقق نتيجته المرجوة . فقد عدت ذات ليلة الى البيت بعد نزهة طويلة على الأقدام فلم أجد أحدا يعد لي وجبة المساء ، وأخبرني جار لي أن الطباخ في السجن ، حين زرته لم أتحمل رؤيته في زنزانته المثيرة للاشمئزاز ، اتصلت ـ ولم يكن ذلك سهلا أثناء الحرب ـ بمفوض من حكومة فيشي عبر الحدود في غيانا الفرنسية ، ورتبت عودته إلى قريته الأصلية حيث يجد من يعتني به ويتحرك بحرية عدا حلقة حديدية حول كاحله تشير إلى أنه آثم .

هناك حادثة أخرى لم أستطع أن أصفها بالتفصيل في مفكرتي ، وقد أمرضتني هذه الحادثة . وهي استجواب بحار شاب إسكندنافي إتهم بأنه عميل ألماني . عرفت من التقرير المرفق معه أنه يحب فتاة من بوينس ايرس - ربما مومس - لكنه يحبها حبا حقيقيا بطريقة رومانسية ، قلت له لو ثبتت براءتك ستعود إليها ، وإذا لم تتكلم ستعتقل طوال فترة الحرب .. وكم من الوقت ستظن انها ستظل مخلصة لك ؟

كان الإستجواب عملا بوليسيا من أعمال م ١٥ ، وكنت غاضبا أني تورطت فيه ، وتركت استجواب الفتى قبل أن اتمه كارها نفسي ، ربما يكون بريئا ، وقلت في نفسي إلى الجحيم بالمجموعة م-١٥ .

كانت تجربتي في سيراليون غنية بدرجة كبيرة ، ولم أكن مقتنعا بما صنعت من هذه التجربة . لقد اشتكى النقاد - ومعهم الحق - في أن الرواية مكثفة بشدة ، ولكن ماذا أفعل والمادة نفسها كانت غزيرة . الغلطة الحقيقية ، كما قلت بنفسي . تكمن في الصدأ الذي علا أسلوبي من طول الكسل ، فما انغمست في أدائه خلال سنوات الحرب لم يكن عملا أصيلا . كان هروبا من الواقع والمسئولية ، فبالنسبة للروائي فإن واقعه الوحيد ومسئوليته الوحيدة هي روايته . وكالرجل الذي يعاني من الجوجو ، كان عليّ أن أعود إلى مكاني الصحيح والطبيعي حتى أشفى .

في سنة ١٩٤٦ شعرت أني في ضياع ، كيف أمكنني في الماضي أن أتقدم من مشهد روائي إلى آخر في يسر ؟ كيف أقصر السرد على وجهة نظر واحدة أو حتى اثنتين ؟ دستة من الأسئلة الفنية عذبتني ، بينما قبل الحرب كان الحل ينبثق بسرعة . لم يعد عمل الكتابة سهلا ، بسبب انفجار أفخاخ الغفلة التي زرعتها بطيش في حياتي الخاصة ، فقد ظننت دائما أن الحرب ستأتي بالموت بشكل أو بآخر ، في غارة جوية ، في سفينة تضربها غواصة ، في إفريقيا بحمى البول الأسود ، ولكني مازلت هاهنا ، حي أعيش ، أحمل التعاسة للناس الذين أحبهم ، وما كرهته حقيقة في الكتاب هو ذكرى الألم الشخصي ، وكما كتب سكوت فيتزجيرالد مرة « مزاج الكاتب يجعله يفعل دائما أشياء لا يستطيع إصلاحها بعد ذلك » ، وكنت أفكر ذات ليلة بالخطوة الأولى نحو الإنتحار ، حين تلقيت برقية في العاشرة مساء (لم أكن أعلم انهم يسلمون برقيات في ذلك الوقت المتأخر) من شخص سببت له المعاناة ، ويشعر بقلق حول سلامتي .

ولكن لفترة طويلة قبل الوصول إلى نقطة اليأس هذه ، وجدت نفسى تفتقد الثقة وإنى عاجز عن مواصلة الكتابة حتى أنى لأشهر عديدة لم أستطع أن أخرج ويلسون من شرفة الفندق التى كان يقف فيها يراقب سكوبى ، مفوض البوليس ، يعبر الشارع الواسع غير المرصوف ، أن أخرجه من الشرفة معناه أن أتخذ قرارا ، روايتان مختلفتان تماما ، بدأتا فى الشرفة نفسها وبالشخصية ذاتها ، وعلىّ أن أختار إحداهما لأكتبها . إحداهما رواية جادة والأخرى رواية تسلية . وكنت لفترة طويلة مطاردا بفكرة كتابة قصة جريمة يكون فيها المجرم معروفا للقارىء بينما الغموض يلف رجل البوليس أو المخبر الذى يتخفى بأشكال عدة تضلل القارىء ، حتى تصل الذروة ، وسترورى الرواية من وجهة نظر المجرم ، لكن شخصية ويلسون لم تقنعنى لهذه الرواية ، ولذا فحين تركته فى الشرفة وارتبطت بسكوبى فقد آثرت الرواية الأخرى .

لقيت الرواية نجاحا من الجمهور والنقاد أكثر ما لقيت عند المؤلف ، فقد بدت لى المعايير التى استخدمتها غير موزونة جيدا . عقدة الرواية محملة بأكثر من طاقتها ، شكوك سكوبى الدينية متطرفة أكثر من اللازم ، وقد عنيت بقصة سكوبى أن أوسع الموضوع الذى لمسته فى رواية « وزارة الخوف» وهو الأثر المدمر على الإنسان حين يتحول التعاطف إلى شفقة وقد كتبت فى « وزارة الخوف » الشفقة قاسية ، مدمرة ، ولن يكون الحب فى سلام إذا طافت حوله الشفقة ؟ ، وأردت من شخصية سكوبى أن تبين أن الشفقة يمكن أن تكون تعبيرا عن كبرياء وحشى قاس ، ولكنى وجدت أن أثرها على القراء مختلف تماما ، بالنسبة للجمهور كانت شخصية سكوبى مبرأة ، واعتبر القراء أن سكوبى ، كان رجلا طيبا ، وكانا مساقا لقدره بسبب قسوة زوجته .

وهنا خطأ فنى أكثر منه خطأ نفسيا . فزوجة سكوبى أساسا تقدم فى الرواية من منظور سكوبى نفسه ، وليس لدينا فرصة لمعرفة وجهة نظرها ، فى المسودة الأصلية للرواية كان هناك مشهد بين مسز سكوبى وويلسون الذى يحبها أثناء نزهة مسائيه على خط السكة الحديد المهجور ، يضع مسز سكوبى فى ضوء أكثر مودة ، لأن المشهد يقدم من وجهة نظر ويلسون ، ولكنى حذفت هذا المشهد عند تقديم الرواية للطبع ، لأنه يحطم وجهة نظر سكوبى بسرعة ، ويجعل سرعة السرد

تتباطأ ، بحذف هذا المشهد كسبت الرواية قوة دافعة ، لكنى ضحيت بالنغمة الصحيحة ، فى طبعات تالية أعدت هذا المشهد إلى الرواية .

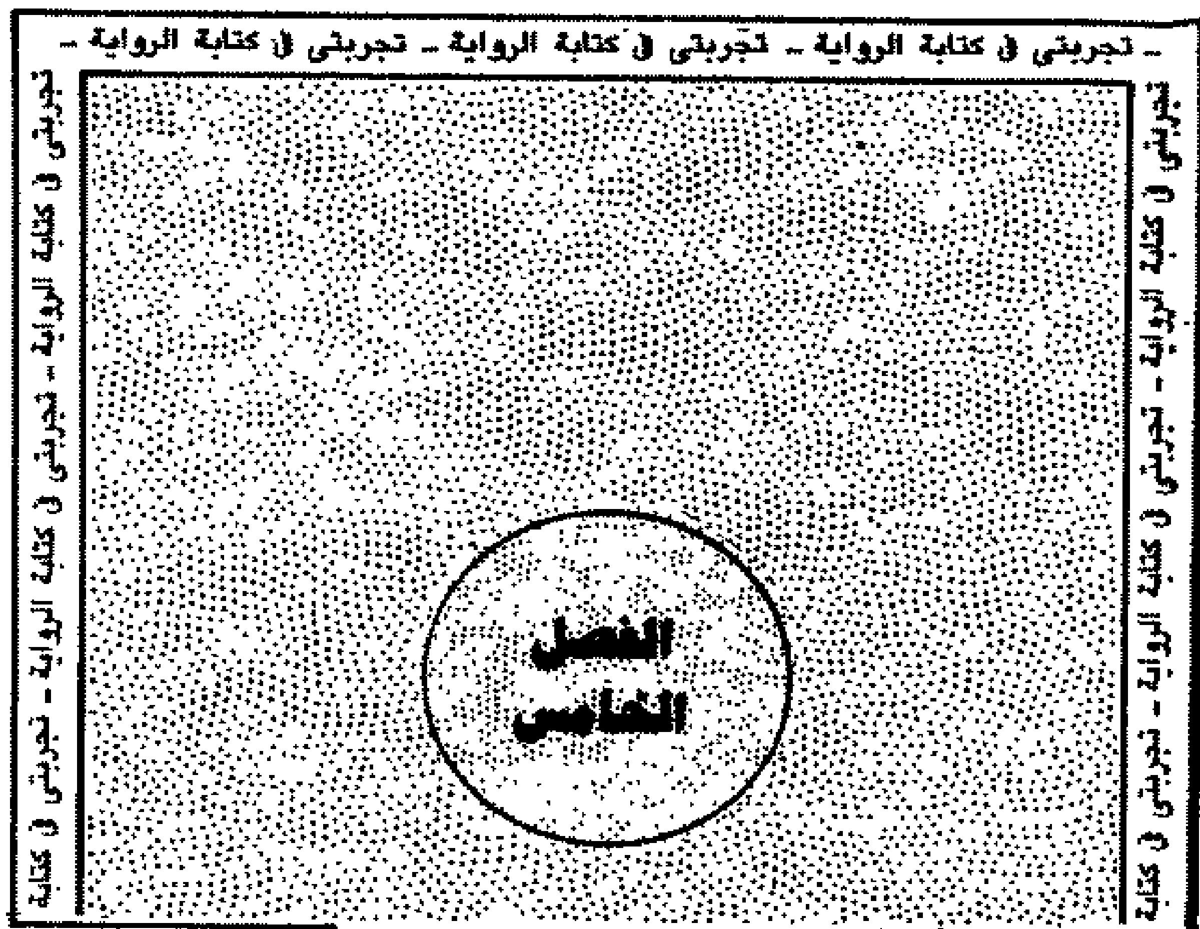
ربما أكون قاسيا على الكتاب ، ضجر كعادتى من المناقشات المتكررة للشيء نفسه فى الصحافة الكاثوليكية عن خلاص سكوبى أو إدانته ، ولم أكن غبيا لدرجة أن أصدق أن محور الرواية هو هذا الخلاص ، إضافة إلى أنى أومن قليلا بمبدأ العقوبة الأبدية (ذلك كان اعتقاد سكوبى لا اعتقادى) ، والانتحار كان النهاية الحتمية لسكوبى ، لا خلاص ولا إدانة ، كان الدافع لانتحاره آخر قشة فى كبريائه المفرط ، ومن المؤكد أن شخصيته تصلح موضوعا لكوميديا سوداء أكثر منها لمأساة .

ومع ذلك . فهناك صفحات فى رواية « لب القضية » وشخصية واحدة هى يوسف فشدنى إليها ، فوصف مدينة فريتاون والمناطق الداخلية فى سيراليون تعيد لنفسى ذكرى أشهر كثيرة من السعادة ، وقله من أشهر تعيسة ، السفن البرتغالية برسائلها وماسها المهرب كانت جزءا من الحياة الغريبة التى عشتها هناك فى سنة ٤٢ ، ١٩٤٣ .

شخصية سكوبى لم تكن مبنية على أساس واقعى فهى من لا وعيى الخاص ، لا تربطه صله بمفوض الشرطة الذى عرفته والذى كانت صداقته هى الشيء الإنسانى الأكثر تقديرا عندى خلال ١٥ شهرا من الوحدة ، كذلك فإن شخصية ويلسون ـ والتى تنقصها الحياة فى الرواية ـ لم يكن لها أى أصل واقعى من عملاء م ١٥ الذين كانوا ينتشرون فى غير إتساق على ساحل إفريقيا الغربية فى تلك الايام .

تلك الأيام ، آنى سعيد إنى عشتها ، فحبى لأفريقيا تعمق هناك ، خاصة لما يسمى بالساحل ، هذا العالم من أسطح الصفيح وأصوات أرجل النسور تهبط هناك ، الممرات التى من صخور اللترايت تتحول إلى اللون الوردى فى ضوء الشفق ، طباخى الذى سجن بتهمة السحر ، خادمى الذى سجن ظلما بتهمة الحلف كذبا والذى جاء من الغابة دون توصية من أحد ليعتنى بى بإخلاص ، كما فعل الصبى على مع سكوبى فى الرواية ، رافضا الرشاوى من عميل لادارة مخابرات أخرى تحثه على ترك خدمتى .

هل هم جزء من أرض جرين فقط ؟ وكما قال رجل يحب إمرأة إنها فقط جزء ثانوى من خياله .



١

قصة فيلمي « الرجل الثالث » لم تكتب أبدا لتُقرأ ولكن لتشاهد القصة مثلها مثل قصص الحب الكثيرة بدأت على عشاء وانتهت بصداع في أماكن عدة : فيينا ، فينيسيا ، مرافيلو ، لندن ، سانتا مونيكا .. إلخ .

افترض أن معظم الروائيين ، يحملون في أذهانهم أو مفكرتهم ، فكرة اولية لقصص لم يتح لهم أن يكتبوها ، وأحيانا بعد سنوات كثيرة ، يرجعون إليها وياسفون ، فقد كانت فكرتها عظيمة آنذاك لكنها ماتت الآن .

وهكذا ، فإني منذ زمن بعيد كتبت على غلاف مظروف فقرة إفتتاحية نصها « قمت بزيارتي الأخيرة الى هاري الإسبوع الماضي ، حين أنزل كفنه في الأرض المتجمدة في فبراير ، ولم أصدق رؤيتي له وسط جمهرة

من الغرباء فى فندق ستراند دون أن تبدو منه إشارة إنه يعرفنى ».

ولم يكن لدى ، مثل بطلى فى الرواية ، فكرة لتفسير ذلك . وحين طلب منى الكسندر كوردا ، ونحن على العشاء . أن أكتب له فيلما يخرجه كارول ريد ، بعد فيلمنا المشترك « المعبود الذى هوى » والذى اقتبسته عن قصتى القصيرة « غرفة فى الطابق الأرضى » . لم يكن لدى لأقدمه له سوى هذه الفقرة . كان كوردا يريد فيلما عن احتلال الدول الأربع الكبرى لفيينا ، ففى سنة ١٩٤٨ كانت فيينا مازالت مقسمة إلى مناطق أربع بين الأمريكيين والروس والإنجليز والفرنسيين ، وكان وسط العاصمة يدار كل شهر من إحدى هذه الدول بالتناوب ، كماكانت هناك دوريات ، كل منها تتكون من أربعة جنود يمثل كل جندى دولة من الدول الأربع ، كان هذا الوضع المعقد هو الذى يريد كوردا أن يبرزه فى الفيلم ، ولكنه كان على استعداد أيضا ليتركنى أتتبع آثار هارى فى هذه المدينة ، وهكذا سافرت إلى فيينا .

وكان مستحيلا بالنسبة لى أن أكتب سيناريو الفيلم قبل أن أكتب القصة أولا ، فالفيلم يعتمد على شىء أكثر من العقدة ، يعتمد على معيار معين من رسم الشخصيات ، على المزاج والجو ، وهو ما يستحيل السيطرة عليه من الاختزال المبتسر للمعالجة التقليدية ، لابد أن يكون لدى الإحساس بمادة أكثر مما احتاج إليه (فالرواية المكتوبة عادة تحتوى على الكثير) .. وهكذا كان علىّ كتابة الرجل الثالث كقصة أولا قبل أن أعد لها المعالجة السينمائية ، ولم أقصد أن تنشر القصة فى كتاب . وللاستمرار ومتابعة خط القصة ، عملت أنا وكارول معا حين عدت إلى فيينا لكتابة السيناريو ، نقطع أميالا على بساط الغرفة يوميا ، ونمثل المشاهد معا (من الحقائق الغريبة انك لا تستطيع أن تعمل بنجاح واستمرارية فى سيناريو وأنت جالس إلى مكتب ، عليك أن تتحرك مع شخصياتك) . لم ينضم إلى اجتماعنا ثالث ولا حتى كوردا نفسه ، وهناك قيمة حقيقية كبيرة فى النقاش بين شخصين ، بالطبع بالنسبة للروائى فإن روايته هى أفضل ما يمكن أن يقدمه حول موضوع ما ، ولا يستطيع إلا أن يمتعض من التعديلات الضرورية الكثيرة التى تدخل عليها لتحويلها إلى فيلم ، ولكن الرجل الثالث لم تكن سوى مادة خام لفيلم .

وسيلاحظ القارىء اختلافات كثيرة بين القصة والفيلم ، وليس له أن يتخيل أن هذه التغييرات قد فرضت على مؤلف يرفضها ، فالفيلم فى الواقع أفضل من القصة ، لأنه فى حالتى هذه ، هو النسخة النهائية من الرواية .

أحد موضوعات الخلاف الكبيرة والقليلة بينى وبين كارول ريد ، كان فيما يختص بالنهاية ، وقد انتصر رأيه أخيرا ، كانت وجهة نظرى أن فيلما خفيفا من هذا النوع لا يحتمل نهاية غير سعيدة أو مأساوية ، وشعر ريد من ناحيته بأن النهاية التى كتبتها غير محددة وغامضة ، أن تتجه الفتاة بصحبة هولى خارج المقبرة دون كلام ، فذلك سيصدم الجمهور الذى شاهد لتوه موت هارى ودفنه . كنت نصف مقتنع ، وكنت أخاف أن يغادر الجمهور السينما ـ إذا ما نفذ ريد رؤيته ـ تحت انطباع أنها النهاية ، والقليل من المشاهدين هم الذين سيظلون فى مقاعدهم خلال سير الفتاة من القبر إلى هولى ، لكننى لم أقدر تماما إخراج ريد الرائع وسيطرته .

كذلك تخلصنا فى مرحلة أخيرة من حادث اختطاف الروس « لأننا » وهى حادثة كانت عادية فى فيينا تلك الأيام ، لكن الحادثة لم تكن مقنعة تماما فى السيناريو وكانت تهدد بتحويل الفيلم إلى دعاية مضادة للروس ، ولم نكن نريد إثارة مشاعر الناس السياسية ، أردنا إمتاعهم ، وإخافتهم قليلا وحتى إضحاكهم ، خططنا أن تكون الواقعية خلفية فقط لقصة خيالية ، ومع أن قصة المتاجرة بالبنسلين مبنية على حقيقية مروعة ، إلا أن كثيرا من التجار كانوا أبرياء ليس مثل لايم ، وقد اصطحب جراح أعرفه صديقين لمشاهدة الفيلم ، ودهش لأن الفيلم أصابهما بالكآبة والقهر ، مع أنه استمتع به ، أخبراه أنهما عند نهاية الحرب ، وحين كانا ضمن السلاح الجوى الملكى فى فيينا ، قاما ببيع البنسلين فى السوق السوداء ، نتائج سرقاتهما التافهة ، لم يدركاها حتى شاهدا الفيلم ورأيا مستشفى الأطفال حيث استخدم البنسلين المغشوش فى معالجتهم .

حين أتى كارول ريد إلى فيينا ليرى المواقع التى وصفتها فى السيناريو ، ارتبكت ، لأنى وجدت فيينا قد تغيرت تماما بين فصل الشتا وفصل الربيع . فمطاعم السوق السوداء حيث يعتبر المرء محظوظا لو وجد فيها عظمة توصف بأنها ذيل ثور ، تقدم الآن وجبات قانونية

ورخيصة وجيدة ، كما أزيلت الخرائب من أمام مقهى موزار ومشاهد فيينا القديمة ، ووجدت نفسي أكرر لكارول ريد مؤكدا مرة بعد أخرى أن فيينا كانت تشبه ما كتبته منذ أشهر قلائل . وثبت أنه من الصعوبة أن أجد قصتي في فيينا الجديدة ، جنازة هارى المزيفة هى القصاصة الوحيدة التى اتمسك بها ، أما الباقى فقد أتى من مرور الأيام حيث وجدنا أماكن مناسبة للتصوير . النادى الليلى الشرقى ، بار الضباط (واستطاع كوردا أن يرتب لى غرفة فى الفندق من الغرف التى كانت محجوزة للضباط) ، غرفة تغيير الملابس الصغيرة التى تشكل جزءا من قرية داخلية فى مسرح جوزيفتات القديم ، المقبرة الضخمة حيث احتجنا المثاقب الكهربية لنقب الأرض فى فبراير أنذاك . وقد سمحت لنفسى بقضاء أسبوعين فى فيينا قبل سفرى لمقابلة صديق فى إيطاليا ، على أن أكتب القصة خلال هذين الأسبوعين . ولكن أية قصة ؟ مضت أيام ثلاثة ولم يكن لدى قصة ، ولا حتى راوى الرواية كولونيل مالواى ، الذى أراه الآن أمامى بملامح تريفور هوارد ، فى اليوم قبل الأخير لمغادرتى فيينا ساعدنى الحظ الجيد بأن أتناول الغداء مع ضابط مخابرات بريطانى شاب ، (الذى أصبح دوق سانت الباتز فى المستقبل) ، إن علاقتى أثناء الحرب مع فرع إس . أى . إس . عادت علىّ بفائدة تلك الأيام ، حكى لى أنه عندما تولى الأمر فى فيينا طلب من السلطات النمسوية قائمة بأسماء افراد شرطة فيينا ، وكان هناك قسم فى القائمة تحت عنوان « شرطة تحت الأرض » ، فأمر بتسريحهم لأن الأمور قد تغيرت ، لكنه بعد شهر وجد أن شرطة تحت الأرض مازالت تعمل ، فكرر أمره بغضب ، وأنذاك فسروا له الأمر بأن شرطة تحت الأرض لا تعنى الشرطة السرية ولكنهم رجال الشرطة الذين يعملون بالفعل تحت الأرض على طول النظام الهائل لشبكة المجارى فى فيينا ، ولا توجد فى هذه المجارى أماكن الحلفاء ، وكانت مداخل هذه الشبكة مموهة بأكشاك إعلانات ، ولسبب غير معروف رفض الروس إغلاقها ، وكان العملاء يتحركون من منطقة إلى أخرى تحت الأرض دون سيطرة أو رقابة .

بعد الغداء ارتدينا أحذية طويلة ومعاطف واقية من المطر ، وتمشينا أسفل المدينة ، المبنى الأساسى للمجارى كان يشبه نهرا كبيرا فى حالة مد وجزر ، وكان الضابط قد أخبرنى أيضا عن تجارة البنسلين فى السوق

السوداء ، ونحن نسير فى المجارى أخذت القصة شكلها الكامل . الأبحاث التى قمت بها حول وظائف الإحتلال الرباعى ، زيارتى لخادمة عجوز كانت لأمي فى المنطقة الروسية ، الأمسيات الطويلة مع الشراب منفردا فى الأورينتال ، لا شيء من هذا كان سدى ، لقد كان لدى فيلم .

فى الأمسية الأخيرة فى فيينا ، دعوت على العشاء صديقتي إليزابيث بووين التى جاءت إلى فيينا لتحاضر فى المعهد البريطانى ، أخذتها بعد العشاء إلى الأورينتال ، ولا أعتقد أنها دخلت يوما ناديا ليليا رثا كهذا من قبل . قلت لها : سيداهمون هذا المكان عند منتصف الليل .

قالت : كيف عرفت ؟ قلت لها لى إتصالاتى .

وبالضبط عندما دقت الساعة الثانية عشرة ، وكما طلبت من صديقى ترتيب الأمر ، علت ضجة صوت قدمي سيرجنت بريطانى ينزل السلالم ويتبعه رجال بوليس من الدول الثلاثة الاخرى ، كانت الأضواء خافتة لكنه اتجه نحو إليزابيث دون تردد (فقد وصفتها بدقة) وطلب أن يرى جواز سفرها ، نظرت نحوه باحترام وكانت أمسية درامية لم يقدمها لها المعهد البريطانى .

فى اليوم التالى كنت فى طريقى إلى إيطاليا ، لقد تم كل شيء فى ذهنى وبقيت كتابته .

* * *

٢

موقف الشخص الغريب القادم من خارج البلاد ، فى وقت ثورة ، موقف غريب وساخر ، فهو أحيانا لا يعي شيئا مما يحدث حوله على الاطلاق ، أذكر أني فى الثلاثينات ، حين عدت من إجازتي فى إستونيا ، قررت أن أقضى عدة أيام فى زيارة لأخى هوج الذى كان مراسلا لجريدة الديلى تلجراف فى برلين النازية . وكان عليّ أن أغيرّ القطار فى ريجا عند منتصف الليل ، وكانت هناك ساعتان من الفراغ ، وفكرت أن أتجول فى الشوارع حول المحطة المركزية ومكتب البريد . أعجبت بسائقى عربات

الدوشكي العواجيز بلحاهم التى تشبه لحية تولستوى ، ينامون على خيولهم النائثة العظام ، وبالعاهرات اللواتي يذرعن الطريق كعاهرات لندن الفيكتورية ، يقفن فى أركان الشوارع ، وحين يمر بهم الأجنبى الشاب يرفعن « الجونلة » بدرجة تظهر كاحل دقيق وجزء من بضة ساق رائعة .

حين وصلت فى موعد القطور إلى برلين سألنى أخى :

ـ ماذا عن ريجا والثورة ؟

قلت : ثورة !؟

قال : هناك إنقلاب وقع عند منتصف الليل ، استولوا على مركز البريد الرئيسي والمحطة المركزية .. وهناك مدافع رشاشة فى كل مكان .

وكان ذلك حقيقيا ، فقد قرأته بعد ذلك فى الصحف ، لكن كل ما رأيته كان سائقى عربات الدوشكي وموسسات فيكتورية .

كانت الطريقة الوحيدة للحفاظ على موعدى فى روما ، وبدء كتابة السيناريو ، هى الطيران من فيينا عن طريق براغ ، وفكرت فى انتهاز الفرصة والبقاء عدة أيام فى براغ لرؤية ناشرى كتبى ، احدهما ديمقراطى إشتراكى ينشر ما أسميه بالروايات المسلية ، والآخر كاثوليكى نشر القوة والمجد ، فى مساء مغادرتى لفيينا راجت شائعات عن سيطرة الشيوعيين فى براغ على السلطة ، لكنني كنت مهتما أكثر بالثلج الكثيف الذى أخر إقلاع الطائرة .

كان على الطائرة مراسلان صحفيان إنجليزيان . أخبرانى إنهما فى طريقهما إلى براغ لتغطية أخبار الثورة .

قلت: الثورة !؟ وتذكرت ما حدث منذ سنوات فى ريجا .

سألنى أحدهما : هل حجزت غرفة فى براغ ؟

قلت : لا .. ولا أعتقد انه ضرورى فى مثل هذا الوقت من السنة .

ـ الفنادق تكون دائما ممتلئة حين تكون هناك ثورة .

وقال الآخر بمعرفة مهنية : لقد حجزنا غرفة معا .. وكانت آخر غرفة لديهم .. من الأفضل أن تبقى معنا .

وتساقط الثلج بكثافة أكثر وأكثر ، وتأخرت الطائرة جدا ، هبطنا براغ بعد منتصف الليل ولم يكن أحد منا قد ذاق الطعام منذ الغداء . ويبدو الطعام أحيانا أهم من السرير ، لكن ، على الأقل ، لن نجد صعوبة فى

الحصول على طعام فى فندق دولى .

وكم كنت مخطئا ، لم يكن هناك سرير ، لكن تلك مشكلة حلت بسرعة ، فهناك كنبة فى غرفة الصحفيين يمكننى أن أنام عليها ، لكننا ، والساعة الآن الواحدة والنصف صباحا ، نريد بعض الطعام الخفيف .

قال الخادم : آسف . المطعم أغلق وكذلك كل مطاعم براغ .

إقترحت يائسا : سندويتش ؟

قال : آسف .

ثم رق قلب الخادم فقال : ربما توجد طريقة .. نقيم فى الطابق الأرضى حفلة للخدم .. لابد أن هناك بعض الطعام الخفيف .. إذا حاولتم ربما سمحوا لكم ..

وجدنا فى الطابق الأرضى اننا لسنا وحدنا الذين نبحث عن طعام . كان السفير الفنزويلى هناك يرقص بعدم رشاقة مع طباخة بدينة ، وكان هناك أعضاء آخرون من السلك السياسى ، خادمة غرف لطيفة وسعّت لنا على مائدتها وأشارت الى المحتفلين تعرفنا بهم :

هذا هو السكرتير الأول فى سفارة أورجواى ، وذلك خادم خاص فى الطابق الثالث ، وذلك يوسف المسئول عن الفطائر ، وشخص ما من البنك المركزى لا أعرف عمله ..

إذا كانت هذه هى الثورة فهى ليست سيئة ، كانت الفرقة الموسيقية تعزف والسعادة تغمر الجميع ، وتدفقت البيرة ، بعد الكأس الثالثة فكرت فى كلمات وردزورث « مبارك أن تكون حيا فى ذلك الفجر » ، عاد السفير الى مائدتنا تصحبه الطباخة البدينة ، وضع يده حول خصرها وضغط بلطف ومثابرة ، وهو منهمك فى تناول البطاطس والسجق ، وطلب منها أن تعده بقطعة كبيرة من البفتيك حين يأتى إلى المطعم فى المرة القادمة ، وأشار بأصابعه قائلا « بهذا السمك » .

من كان يتكهن فى تلك الليلة الغريبة ، بمحاكمة سلانسكى ، وبكل الرعب الستالينى ، وبدبشك وسمركوفسكى يجرون كأسرى سجناء إلى موسكو ؟ .بعد ٢١ سنة فى عام ١٩٦٩ عدت إلى براغ ، كانت القوات الروسية تحتل البلد ، وكان لى لقاء ذات صباح مع سمركوفسكى وكان مريضا بسرطان العظام ، سألته : هناك إنطباع فى الغرب أن كوسيجين متعاطف مع قضيتك أكثر من بريجينيف .. هل ذلك صحيح ؟ .

قال : الرجال الثلاثة .. بريجنيف وكوسوجين وسوسلوف دخلوا الغرفة معا وجلسوا أمامنا .. لم أر أى فرق على الإطلاق بين بريجينيف وكوسجين .. كانت هناك لحظة تخيلت فيها أنى أرى لمحة تعاطف فى عينى سوسلوف .. لكنه تكلم بالضبط مثلهما ، وبدا لى أنى حضرت حفلة الخدم من فترة تزيد على واحد وعشرين عاما .

تلك الليلة فى سنة ١٩٤٨ لم أنم جيدا ، ولم يكن العيب فى الكنبة ، لكننى كنت متشوقا لرؤية طريقة عمل المراسلين أثناء الثورة .

بدأت الضجة والغناء مبكرا فى الشوارع ، ولكن حتى الساعة الثامنة والنصف لم يتحرك أحد من الرجلين ، لم أرد إيقاظهما مع أنى كنت تواقا للخروج ، وأخيرا فى التاسعة والنصف جر أحدهما نفسه ليذهب إلى الحمام ، والآخر تحرك والنعاس فى عينيه إلى التليفون جارا وراءه حبل الروب الذى يرتديه وطلب رقما قال « حسنا .. سأتحقق بعد ذلك .. حوالى الحادية عشرة .. لقد ظللت مستيقظا متوترا لفترة متأخرة أمس » . بدا دهشا وهو يرانى مرتديا ملابسى ، سألنى : هل أنت خارج ؟ أخبرنا حين تعود إذا رأيت شيئا طريفا . لم يكن الأمر كما تصورت ، كنت أظن أن المراسل الخاص ينتمى إلى مهنة ديناميكية جدا وخطرة .

كانت الشوارع تمتلىء بالمواكب والأعلام الحمر والهتاف ، مشيت عشوائيا . تربكنى أسماء الشوارع التشيكية ، حتى رأيت مبنى مكتوبا عليه مكتب المعلومات البريطانى . فدخلت فى محاولة لاستعارة أو شراء خريطة ، حين خرجت لاحظت أن هناك من يتبعنى ، إستدرت إلى شارع فشارع آخر ، لكن الرجل النحيف ببدلته السوداء وقبعته المحترمة مازال يتبعنى ، توقفت اخيرا حتى لحق بى .

قال : من فضلك .. أمن الممكن أن ندخل يسارا هناك؟ دخلنا فى شارع هادىء صغير وتركنا ضجة المواكب خلفنا ، كنت منزعجا قليلا من الجو الذى يثيره حوله .

قال : أنت بريطانى ؟ قلت : نعم :

ـ هل تؤدى لى خدمة .. خدمة مهمة .. إن قدر بلادى على كف عفريت .

ـ ما الذى يمكننى أن أفعله ..؟

ـ عليك أن تقابل سفير بلادك وتخبره .. أنى أشرح لك الأمر بطريقة سيئة .

كان يتوقف عن الكلام حين يظهر شخص ما فى الشارع . ويستأنف كلامه حين يصبح العابر بعيدا لا يستطيع سماعنا .

قال : يجب أن أخبرك .. أنا مخترع .. وقد إخترعت مظلة تمكن الهابط بها أن يقودها لمسافة ٥٠ كم . أعطيت اختراعى لوزارة الدفاع ولكن هؤلاء الذين سيتولون السلطة سيعطون خططى للروس .. أترى كم هو مهم هذا لبلدى وبلدك ؟

كان مقنعا جدا رغم ميلودرامية الموقف ، بدأت أتخيل كيف أن الجيش يمكن أن يقاد عبر السماء ، لن يكون القتال عقبة أنذاك .

طلبت منه أن يخبرنى باسمه ، فكتبه على قصاصة من الورق ، كنت بالفعل فى منتصف الطريق إلى السفارة ، لكن الحذر جعلنى أسأله سؤالا أخر : هل اخترعت شيئا أخر ؟

أجاب فورا وبحماس : اخترعت آلة لبناء الحوائط .. تلك أيضا سأعطيها للحكومة البريطانية .. تبنى الحائط بمعدل قدم فى الثانية .

بإحساس بخيبة الأمل ، قررت أنه من الأفضل الا أذهب للسفارة .

لا شىء خلال الاسبوع الذى قضيته فى براغ كان فى حيوية وبهجة حفلة الخدم أو حتى فى طرافة قصة المظلات ، وبدأت تنتشر بالفعل نكات الهزيمة المرة خاصة حول وزن زوجة القائد الشيوعى البدينة .

زرت ناشرى الكاثوليكى مرتين ، فى المرة الثانية كان هناك كشك حراسة عند السلم المؤدى لمكتبه ، وقد اختفى ناشرى فى السجن لمدة عشر سنوات .

أخذنى وكيل أدبى شيوعى إلى الحصن الذى جعل مقرا لاتحاد الكتاب ، كان فى المقر كاتب واحد فقط ، وكان يصعد سلما فى المكتبة ليحضر جزءا من دائرة المعارف البريطانية ، أخبرنى الوكيل ونحن نشرب الشاى أن هذا الكاتب هو المرجع الرئيسى لشكسبير هنا ، وفى غرفة الاستقبال الفخمة التى تتدلى منها الثريات بدأ الخبير يتحدث عن هاملت ، فلكزه الوكيل الأدبى بشدة من تحت الطاولة قائلا « مستر جرين لم يقطع كل هذه المسافة ليسمعك تتحدث عن شكسبير ».

بدأت أدرك إنك إن تكون حيا فى هذا الفجر ليس نعمة بالضرورة .

فى مكتبة فى المدينة القديمة ناولنى شخص ما ورقة صغيرة ، كان سيقودنى إلى مندوب كاثوليكى يختبىء فى مكان ما ، ظننت أنه يحتاج لمساعدة كى يهرب ، فحملت معى نقودا متنوعة ، ولكنه أوضح بأنه لا يريد مساعدة من هذا النوع ، لكنه ظن أن الوضع سيثير اهتمامى لأنى كتبت رواية القوة والمجد .

كما جاء لزيارتى الروائى إيجون هوستوفسكى الذى كان يعمل فى وزارة الخارجية وجلس على سريرى .. وكنت قد حصلت على غرفة آنذاك .. وأخبرنى كيف ودع الوزير مازاريك رجاله ذلك اليوم ، بكى وهو يحكى القصة وأنهينا زجاجة ويسكى ونحن جالسان . بعد أيام قليلة كان مازاريك قد مات .

كنت سعيدا بركوب طائرتى إلى روما ، لم يكن هناك ركاب سوى وعروسان شابان ، كان العريس هو الأمير شورزنبرج وقد عين سفيرا فى الفاتيكان من الحكومة السابقة . لاحظت أن معه كمية كبيرة من الحقائب ، ولم أدهش حين سمعت بعد عدة أسابيع عن ارتداده .

قبل إقلاع الطائرة مباشرة ، أعلن إسمى فى مكبر الصوت للعودة إلى قسم الجوازات ، طلبوا رؤية جواز سفرى ثانية ، وتساءلت هل أستطيع المحافظة على موعدى فى روما ، وتذكرت كشك الحراسة عند سلم ناشرى ، وهونونسكى يبكى على سريرى ، والنائب الكاثوليكى المختبىء فى مكان فى أحد الشوارع الجانبية فى المدينة القديمة ، فحص الضابط جواز السفر وقال :

ـ هذا الجواز صالح لزيارتين . هذه زيارتك الأولى يمكنك أن تأتى ثانية . ولكن مرت إحدى وعشرون سنة قبل أن أعود إلى براغ ، وآنذاك كان الروس هناك دون مساعدة من المظلات .

* * *

٣

كتبت فى إيطاليا سيناريو فيلم الرجل الثالث ، ولكن الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لى هو عثورى على البيت الصغير فى أنا كابرى ، حيث كتبت كل كتبى التالية أو على الاقل جزءا منها وأنا فخور الآن بأنى مواطن شرف فى تلك البلدة الصغيرة ذات الخمسة آلاف نسمة .

كتابة الرواية لا تصبح أسهل بالمران أو التكرار ، إكتشاف الروائى لطريقته الخاصة فى الكتابة يمكن أن يكون مثيرا ، لكن تأتى لحظة فى منتصف العمر حين يشعر أنه لم يعد يسيطر على طريقته ، بل أصبح أسير هذه الطريقة ، وتحل به فترة طويلة من الملل ، ويبدو له أنه جرّب كل شيء ، ويصبح أكثر خوفا عند قراءة نقاده المتعاطفين معه ، من قراءته لنقاده القادمين ، فالمتعاطفون يفردون أمام عينيه بصبير مرعب النموذج اللا متغير للبساط الذى نسجه ، فيما إذا اعتمد بنسبة كبيرة على لا وعيه وعلى مقدرته لنسيان كتبه بمجرد أن تصبح على رفوف المكتبات ، فهم يذكرونه بأنه تناول هذا الموضوع منذ عشر سنوات مثلا ، أو أن التشبيه الذى جرى على قلمه منذ أسابيع استخدمه تقريبا فى فقرة منذ عشرين سنة .

كنت أحاول الهروب من سجنى بالكتابة للسينما لكنى وقعت فى سجن آخر أكثر رفاهية .

قبل عودتى إلى ما أعتبره عملى الحقيقى ـ الرواية ـ قرأت رواية آمال عظيمة لديكنز ، لم أر من قبل فى ديكنز كاتبا عاطفيا متجانسا ، ولكن الآن أسرتنى السهولة البادية التى أستخدم فيها ضمير المتكلم فى القصة . ويبدا لى هذا مهربا من النمطية ، فهى طريقة لم أجربها . فهناك دائما ميزة فنية واضحة فى الرواية المكتوبة بضمير المتكلم ، فوجهة النظر قد تحددت وتأكدت ولا مجال للانحراف هنا أو هناك ، كانت تكتب ما تلاحظه الشخصية فقط (هكذا خدعنا بروست بلا خجل) .

لكن حين اقابل ، أحيانا ، رواية مكتوبة بضمير المتكلم عند سومرست موم ومقلديه ، تبدو لى الطريقة سهلة جدا ومملة وبلا لون ، وقريبة جدا من الحديث العادى الأخرق .

من الممكن أن تكون مملة وجافة وبلا لون ، لكن أن تكون سهلة .. فلا .

وكثيرا ما أسفت وأنا أتتبع ضمير المتكلم فى طريقه الكئيب ، وفكرت فى إعادة كتابة بداية « نهاية المسألة » بأسلوب الغائب ، فلم يحدث لى من قبل أن وجدت صعوبة فى توجيه واسترسال السرد ، مثلا كيف أستطيع عن طريق ضمير المتكلم أن أنوع فى نغمة السرد إذا كانت شخصية واحدة هى التى تعلق على الحدث دائما ؟ خاصة أن نغمة السرد والتى جاءت فى الصفحة الأولى على لسان بندركس الشخصية الرئيسية هى قوله :

« هذه الرواية سجل للكراهية أكثر منها سجل للحب » .

وفزعت ، معنى ذلك أن كل الرواية ستكون كالسمكة المدخنة مشبعة بالكراهية التى يحملها البطل . كان ديكنز يغير النغمة بشكل معجز ، وحين حاولت تحليل سبب نجاحه ، شعرت كأنى رجل لديه عمى ألوان يحاول بفذلكة أن يميز لونا عن آخر .

فى روايتى كان هناك ظلان من العجينة نفسها ، هاجس الحب وهاجس الكراهية . وكانت محاولتى أن أقدم نغمتين بأسلوبين مختلفين عن طريق مستر باركنز المخبر الخاص وصبيه ، نغمة ساخرة ونغمة حزينة .

ولدت الرواية فى ديسمبرة سنة ١٩٤٨ فى غرفة نوم فى فندق بالما فى كابرى وذلك قبل أن أنتقل إلى بيتى الصغير . وتخيلت أنى فى كتابة هذه الرواية قد تأثرت بآخر كتاب كنت أقرؤه فى ذلك الوقت ، وهو كتاب « مختارات من بارون فون هوجل » خاصة بفقرة كتبها عن سانت كاترين مدينة جنوا ، وكان من عادتى أن أضع علامات تحت الفقرات التى تروقنى فى الكتب التى أقرؤها ، ومع ذلك لم أجد أى فقرة معلمة بخصوص سانت كاترين لها علاقة بالموضوع ، ولكن عثرت فى مقال آخر لفون هوجل على هذه الفقرة وقد وضعت تحتها خطا « إن تكوّن البنية البطيء للفرد ونقائه ليتحول إلى إنسان عن طريق حتمية القانون الطبيعى أمر لابد أن نعترف به ، وأن يكون لهذا « العنصر ـ القوة » مكان ما فى حياتنا ، لأننا إن لم نملكه كوسيلة فسيستحوذ علينا حتى نهايتنا » .

ولا شيء أبعد عن معنى فون هوجل هذا من الرواية التى بدأت تهريش مخى ، فالقصة عن رجل يُساق ويُقهر بتراكم مصادفات طبيعية ، حتى

انكسر وبدأ يتقبل غير المعقول . أشعر أني خنت الهدف الأساسي الذي كنت أعتزم أن تدور الرواية حوله .

لكن هناك الكثير الذي يعجبني فى الكتاب . فقد كتب ببساطة ووضوح أكثر من الكتب السابقة . كما أن بنية الرواية تجنب القارىء ملل تتابع الزمن (تعلمت قليلا من قراءتى المتكررة للرواية الرائعة « الجندى الطيب » التى كتبها فورد مادوكس فورد) . ولم أدرك المشكلة المرعبة التى أوقعت نفسى فيها حتى وصلت إلى الجزء الأخير من الرواية .

كانت سارة الشخصية الرئيسية فى الرواية قد ماتت فى منتصف الكتاب ، وتركت وراءها فكرة فلسفية تعبر عنها ، ولم يكن لدى الرغبة فى إستدعائها أو إعادتها ، وبدأت أسرع نحو النهاية قبل أن أدرك أنى خُدعت ، خدعت القارىء وخدعت نفسي وخدعت البارون فون هوجل ، فوحمة ثمرة الفراولة فى جسد سميث والتى عولجت ظاهريا واختفت بواسطة سارة بعد موتها يجب الا يكون لها مكان فى الكتاب ، فكل ما يسمى بمعجزة يجب أن يكون له تفسير طبيعى تماما ، لا مانع أن تستمر المصادفات فى حدوثها مع السنين ، تسحق عقل بندركس وتضغط عليه بشك يزعزع إلحاده ـ وفى الواقع فإنى قد أحببت الصفحات الأخيرة وكان لابد أن تبقى بالشكل الذى كتبت به ـ لكنى فى طبعة أخيرة للرواية غيّرت موضوع الوحمة ، وجعلت سميث يصاب بمرض جلدى له سبب عصبى ، ويشفى بالإيمان .

وهناك حادثة فى الرواية لم تعجب كثيرا من النقاد ، وهى حادثة إكتشاف أن سارة قد عمدت ككاثوليكية حين كانت طفلة ، وهذا يعطى الانطباع للقارىء ـ الذى اتعاطف معه ـ أنى أشير إلى السحر . ولكن إذا كان علينا أن نؤمن بقوى غير نهائية أكبر منا معرفة وقدرة فإن السحر لا يشكل بالضرورة جزءا من اعتقادنا ، أو أن السحر هو الإصطلاح الذى نستخدمه للتبعير عن الغامض وغير القابل للتفسير ، مثل أثر الجرح الذى رأيته عند « بدربيو » من على بعد عدة أقدام ، وهو يحمر بلون الدم ، أثناء إقامته القداس فى صباح أحد الأيام فى ديره فى جنوب إيطاليا .

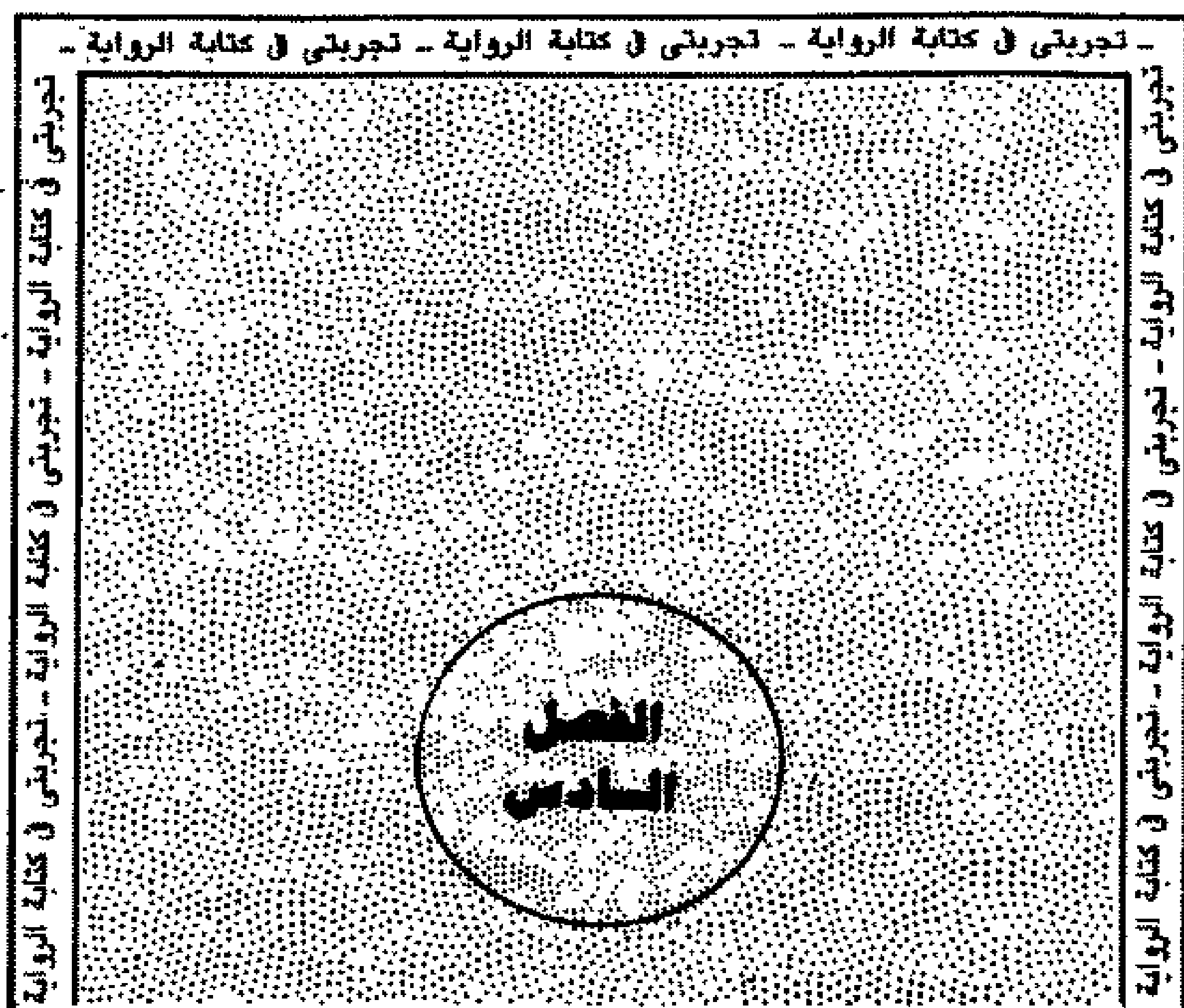
حادثة تعميد سارة السرى إستوحيتهامن حياة « روجر كاسمنت » ، الذى قدم طلبا لقسيس السجن لقبوله فى الكنيسة ، واكتشف القس بعد

التحقيق أن السجين قد عُمد سرا حين كان طفلا . نحن لسنا بالضرورة فى دنيا السحر أو حتى المصادفة هنا ، ربما نكون فى العالم الذى شرحه « دون » فى كتابه « تجربة مع الزمن » .

حققت رواية « نهاية المسألة » نجاحا أكبر لدى القراء منه لدى النقاد . شعرت بشك نجاحها بعد أن أنهيتها حتى أنى أرسلت المخطوط إلى صديقى إدوارد ساكفيل وطلبت مشورته وسألته هل أضع الرواية فى الدرج وأنساها ؟ وأجابنى بصراحة بأن الرواية لا تهمة ومع ذلك ينبغى نشرها ، قال يجب أن يكون لدينا حيوية الفيكتوريين الذين لم يترددوا فى نشر الجيد والردىء .

ونشرت الرواية ، ولقد أراحتنى كلمات الثناء التى قالها وليم فوكنر فى الرواية . وحمدت لنفسى استخدامى ضمير المتكلم وإلا كنت سأتردد فى استخدامه فى رواية « الأمريكى الهادىء » ، رواية كان ضروريا استخدامه فى سردها .. وهى ، فنيا على الأقل ، رواية ناجحة جدا .

* * *



١

كانت الخمسينات فترة قلق كبير بالنسبة لى ، وببعض الحدس فإن البابا بيوس الثانى عشر أخبر هينان الذى كان أسقفا آنذاك ، بعد أن قرأ رواية « نهاية المسألة » (إختيار غريب لبابا) ، قائلا :

« اعتقد أن هذا الرجل يعانى من المتاعب ، إذا حدث أن جاء إليك.. ساعده » (وغنى عن القول إنى لم أذهب إلى هينان) . كنت فى مزاج تواق للهروب ، وهو مزاج ينتاب معظم الرجال ـ على ما أظن ـ عند منتصف العمر . بالنسبة لى إنتابنى مبكرا . حتى فى مرحلة الطفولة . هروب من الملل ، من اليأس ، لو كنت موظفا فى بنك لخنت الثقة وهربت إلى أمريكا الجنوبية .

فليبارك الله الجزر العاقلة
حيث الأمان المطلق
فليبارك الله الجمهوريات العادلة
التى توفر للإنسان بيتا

قصيدة كبلنج كانت دائما تروق لى ، لكن لم يكن لدى مستخدم أهرب منه إلا نفسى ، والثقة الوحيدة التى يمكن أن أخونها هى ثقة أولئك الذين يحبوننى . طلبت من صديق يعمل طبيبا نفسيا أن يعالجنى بالصدمات الكهربية فرفض . بدا لى أن أتجه إلى الطريق الطويل ثانية ، إلى بركها مستد مسقط رأسى ، وحيث لعبت وأنا يافع لعبة الروليت الروسى هربا من حب تعيس .

فى رواية « نهاية المسألة » وصفت عاشقا كان خائفا من انتهاء حبه يوما فحاول الإسراع إلى النهاية ليتغلب على الألم ــ وقوع البلاء ولا انتظاره ، ولكن لا توجد قصة حب فاشلة لأهرب منها هذه المرة ، بل كنت سعيدا بالحب ، هناك صعوبات بالطبع تعترض علاقات الحب ، لكن الصعوبة الأساسية تكمن فى مزاجى المتقلب ، وهكذا فى الخمسينات وجدت نفسى تبحث عن النهاية كبندركس ، ولكنها كانت نهاية الحياة وليست نهاية حب . لم تكن لدى الشجاعة على الإنتحار ، ولكن أصبحت عندى عادة وهى الرغبة فى زيارة الأماكن المضطربة فى العالم ، ليس بحثا عن مادة لرواياتى ، ولكن لأستعيد حس الخطر وعدم الأمان الذى إستمتعت به فى ثلاث غارات على لندن .

وهكذا قضية سنة ١٩٥١ ثلاثة أشهر فى الملايو أثناء حالة الطوارىء مراسلا لمجلة لايف ، وقضيت أربعة فصول شتاء من ١٩٥١ ــ ١٩٥٥ فى فيتنام أرسل بتقارير عن الحرب الفرنسية الفيتنامية إلى الصنداى تايمز ، وذهبت إلى كينيا سنة ١٩٥٣ لأكتب تقريرا عن ثورة الماو ماو للصنداى تايمز أيضا ، وقضيت فى بولندا الستالينية سنة ١٩٥٦عدة أسابيع لم أستشعر الخطر فيها إلا حين حاولت إيصال ساعة ذهبية إلى موسيقى فى بيته لأقدم له وسيلة تساعده على الهرب إلى الغرب ، لكنه لم يكن يريد الهرب فطلبت منه أن يحتفظ بالساعة ، لكن أبعد هروب قمت به ــ ولا أقصد البعد الجغرافى ـ فقد كان سنة ١٩٥٨ إلى مستعمرة جذام فى الكونغو فى الأيام الأخيرة للأستعمار البلجيكى هناك .

٢

وقعت فى حب الهند الصينية بمحض الصدفة تماما ، ولم يدر فى ذهنى أثناء زيارتى الأول لها أنى يوما ما سأكتب رواية تدور أحداثها هناك . كان قنصلنا آنذاك فى هانوى « ترينور ويلسون » وهو صديق قديم من أيام الحرب فكرت أن أزوره بعد زيارتى للملايو ، وكانت الحرب قد نشبت فى الهند الصينية وتجاهلتها الصحافة البريطانية تقريبا . والقليل الذى كتبته تلك الصحافة إستقته من وكالة رويتر أو من باريس كما فى حالة جريدة التايمز .

وهكذا توقفت فى فيتنام لزيارة صديقي دون أن يكون لدى فكرة أنى سأقضى شتاء سنوات عديدة قادمة هناك .

وجدت الملايو مملة فى أوقات اللا حرب ، كما تكون المرأة الجميلة أحيانا ، إعتاد الناس قول « يجب أن ترى هذه البلاد وقت السلم » . وكنت أريد أن أجيب « ولكن كل ما يمنعني ويهمني هنا هو حربكم » . إن الملايو فى حالة السلم ستكون أكثر شبها بالنوادى الإنجليزية ، وشرب الجن ، والحديث عن الفضائح الصغيرة التي تنتظر شخصا كسومرست موم لتسجيلها . ولكنى فى الهند الصينية أخذت جرعة سحرية ، كأس حب أقتسمها منذ ذلك الحين مع كثير من الضباط المتقاعدين الذين تلمع عيونهم عند ذكر سايجون أو هانوى .

مكثت فى تلك الزيارة أكثر قليلا من اسبوعين ، وملأت هذه الدقائق الحاسمة حتى الثمالة ، تبعد هانوى عن سايجون مقدار ما تبعد لندن عن روما ، ونجحت بالاضافة الى الاقامة فى هاتين المدينتين أن أقوم بأول زيارة من عدة زيارات إلى الدلتا الجنوبية ، أولا لزيارة طائفة دينية غريبة هى الكاودية نسبة إلى مؤسسها كاوداى سنة ١٩١٩ ، والذى يعتبر المسيح وبوذا وسن ياتسن وفيكتور هوجو (لتصوفه) ، قديسين لطائفته ، وثانيا لزيارة مقاطعة صغيرة كأنها من إقطاعيات العصور الوسطى ، تأسست فى مستنقعات بنتر على يد الكولونيل « ليروى » الشاب الذى كان شبه منتم لاحدى طوائف الهندوس المنغلقة على

نفسها ، والذى قرأ دو ثوكوفيل ، وضرب بقسوة النمر ومطاردته الشيوعيين فى منطقته . منذ سنوات قليلة كان طفلا صغيرا يركب جاموسة فى حقول الأرز المغمورة بالماء ، والآن هو ملك غير متوج . سعدت بعد سنوات أن أكتب مقدمة لسيرته الذاتية الصريحة والتى لم يحاول فيها أن يخفى وجه النمر بإبتسامة ، وكان ذلك ردا صغيرا لمعروف . فقد أنقذ حياتى ، كان ذلك سنة ١٩٥٥ حين كان الفرنسيون يخلون المنطقة الشمالية ، وكنت أنتظر فى سايجون للسماح لى بدخول هانوى التى كانت فى أيدى الفيتناميين . ولكى أقضى الوقت فكرت أن أطلب مقابلة جنرال إحدى الفرق الفيتنامية التى حاربت فى الجنوب .

تلقيت مكالمة من « ليروى » أن أحضر إليه فى مكتبه فى سايجون ، كان عنده رجل فرنسى قدمه لى كمدير العلاقات العامة للجنرال الذى سأقابله . قال الرجل أن الجنرال تسلم رسالتى ويسعده أن يرانى فى مقر القيادة على الغداء . ونصحنى الرجل برفض الدعوة ، فقد قلّب الجنرال فى ملفاته ووجد أنى منذ ثلاث سنوات وصفته فى مجلة « بارى ماتش » بأنه كان قبل إلتحاقه بالجيش سائق عربة تريشو ، ويعتبر هذا تشهيرا به ، فلم يكن أبدا سائق ترشيو بل كان كمساريا فى حافلة ، وأنه يحذرنى لأنى صديق « لليروى » ، وقال أن الجنرال سيبدى كل لطافة وكياسة فى معاملتى إذا ذهبت ، لكنى يجب أن أتأكد أن حادثة ستقع لى فى طريق العودة إلى سايجون .

كنت تواقا فى زيارتى الأولى تلك سنة ١٩٥١ أن أقوم بزيارة إلى فات ويام أحد أسقفى الشمال (الآخر كان بوى شو ، عرفته بعد سنوات وأنذاك كنت سأفقد حياتى لولا انهم إكتشفوا اللغم المدفون على الطريق قبل لحظات من عبور عربة الجيب فوقه) ، كان الأسقفان حليفين ، ولهما جيشان صغيران ومستقلان عن القيادة الفرنسية . كنت آنذاك مازلت أتدفأ بكرم الجنرال دى لاتر الذى وضع طائرة صغيرة تحت إمرتى ، كان يتوقع أن أطير بها متجولا حول مواقعه الأمامية المسماة خطة بخطوط هانوى ، لكنى طرت مع تريفور ويلسون لنزور الجيش الصغير لفات ويام . فى طريق العودة أطلقت النار على الطائرة ، وأخطأت إذ ذكرت الحادث للجنرال على العشاء تلك الليلة ، بدا الإمتعاض عليه ، وبدأت علاقتنا تفتر منذ ذلك الحين ، لم يهمنى الأمر لكنه كان كارثة بالنسبة

لصديقى تريفور القنصل البريطانى هناك .

لم يكن التغير فى معاملته ملحوظا ، وكنت الضيف المبجل عنده فى هانوى ، بل وأهدانى الشارة التى تعلق على الذراع للجيش الفرنسى الأول، الذى قاده عند سقوط ستراسبورج ، منذ أشهر قليلة أجليت جميع العائلات الفرنسية عن هانوى ، فالمدينة كانت على وشك السقوط ، والروح المعنوية منخفضة ، لكن دى لاتر قال لرفاقه « أنا عائد الآن إلى سايجون ولكنى أترك لديكم زوجتى كرمز أن فرنسا لن تترك أبدا هانوى » . كان من الصعب على المرء أن يتخيل أنه فى أقل من سنة سيموت فى باريس بالسرطان حزنا على الهزيمة ، وأنى فى أقل من أربع سنوات سأتناول الشاى مع هوشى منه فى هانوى .

رجعت إلى إنجلترا وأنا مصمم على العودة لفيتنام ، ولكنى مازلت غير واع أنى سأجد موضوع رواية هناك . المقال الذى كتبته عن الملايو أعجب هيئة تحرير مجلة لايف ، ووافقوا على إرسالى إلى فيتنام فى الخريف التالى .

حين عدت بعد ثمانية شهور فى أكتوبر سنة ١٩٥١ ، كانت التغييرات مروعة ، أصبح الجنرال دى لاتر رجلا آخر بعد أن فقد ابنه الوحيد فى كمين نصبه الفيتناميون فى منطقته فان ديام ، تغلفت آماله بالألم ، وأصبح ضباطه يوجهون له النقد علنا ، ملوًا من تكراره الحديث عن تضحيته الخاصة ، فالآخرون قد ضحوا بأبنائهم أيضا ولم يستطيعوا نقل جثثهم إلى الوطن لتقام لهم جنازة رسمية فى باريس كما حدث لابنه ، وكان الجنرال يعانى دوما من عقدة الإنجليز ، وبالرغم من عطفه الشديد على زوجته ، كان كثير الشك بالكاثوليكية ، ولقد ربط بطريقة مرضية غريبة بين زيارتى لفات ديام ومقتل إبنه ، وحقيقة أنى وتريفور كاثوليكيان . وبعقليته المريضة حملنا مسئولية مقتل إبنه ، وكتب إلى مكتب العلاقات الخارجية أن تريفور ويلسون ـ الذى منح وساما لخدماته التى اداها لفرنسا أثناء الحرب ـ أصبح شخصا غير مرغوب فيه ، وطرد تريفور من الهند الصينية وفقد مكتب العلاقات الخارجية قنصلا متميزا ، وفقدت فرنسا صديقا مخلصا .

حين عدت إلى هانوى كان تريفور ويلسون قد غادرها ، ولكن سمح له بالعودة لمدة إسبوعين لحزم حقائبه وأوراقه ، وفى الوقت نفسه وجدت

نفسي تحت مراقبة أمنية من شخص لطيف إعتدت تسميته بمسيو دوبو ، وقد سببنا له متاعب عديدة أنا وتريفور فى الفترة القصيرة التى أصبحنا فيها معا ، إعتدنا أن نقابله فى مقهى لوبى فى هانوى ونخبره بخططنا وتحركاتنا لليوم التالى ، ونجلس لنشرب الفيرموت ونلعب ، وكان تريفور يلقى بالنرد الرابح دوما .

كان مسيو دوبو لا يقوى على السكر ، ويعود إلى البيت دائما مخمورا وفى حالة رثة ، وهكذا أضيفت متاعبه العائلية لمتاعبه المهنية ، فزوجته ترفض أن تصدق أن ارتشافه لقليل من الخمر كان بسبب تأديته لواجبه . وفى إحدى المناسبات الحزينة ، رافقنا إلى هاينونج حيث أراد تريفور توديع بعض أصدقائه ، وكان لتريفور ضعف نحو الحمامات الصينية غير التقليدية ، فاقف عربة مسيو دوبو الرسمية عند أول المدينة حيث جذبه اعلان عن حمام صيني . وأخذ مسيو دوبو المغطس المجاور له كما يحتم عليه واجبه ، لكن الحمام كان يشتمل على مساج صينى خاص لم يتحمله قلب مسيو دوبو ، أخرجوه وحاولوا إنعاشه بكثير من الويسكى الذى لم يكن معتادا عليه ، كما عولج فى الصباح التالى بجرعة من فرينت برانكا التي لم يشربها من قبل ، إضافة إلى كل هذه المتاعب فقدَ أثَرِى وكنت قد ذهبت إلى منطقة فان ديام مع القسيس العسكرى الشجاع .

أشعت أنى أكتب رواية بوليسية عن الهند الصينية ، وان عنوانها الذى إخترته بالفرنسية هو « هذا هو مسيو دوبو » ، وهكذا ذات مساء وأنا جالس على الرصيف خارج مقهى دولوبى ، لاحظت إقتراب مسيو دوبو العصبى ، وعيناه تتجهان نحوى كعينى كلب ينتظر أن تمازحه .

الرقابة التى وضعت علىّ بدأت قبل وصول تريفور ، وبعد أيام قليلة من وصولى لهانوى - جاءنى مسيو دوبو ومعه كتابان لى فى طبعتهما الفرنسية ، فوقعتهما له وشربنا معا كأسا من الليمون . فى اليوم التالى جاء ومعه كتاب آخر وطلب منى كتابة إهداء عليه لزوجته ، وفى الأيام التالية أحضر كتبا لأوقعها لأصدقائه ، وحين حاولت الحصول على بضعة نسخ لى لإهدائها وجدت أنه قد نظف كل مكتبات هانوى من كتبى . بعد ذلك أسقطنا حكاية التظاهر هذه ورتبنا اللقاءات المسائية معا ، لكن ما أدهش له كيف كان يبرز لى فى جولاتى اليومية ؟ فى مقهى بينما أتناول

الشراب ، فى حانوت حيث اشترى بعض الصابون ، فى شارع أتمشى فيه من أجل رياضة المشي ، بدأنا نتآلف معنا ، وبعد رحيل تريفور بدأ يشعر نحوى بمسئولية أبوية . كنت أدخن أيامها قليلا من الأفيون ، مرتين أو ثلاث مرات فى الاسبوع ، وكان يناشدنى بحرارة أن أعود إلى البيت وأنام بهدوء بعد لعب النرد ولا داعى لتدخين الأفيون .

بدأ الشك يحوم حولى حين تسلمت برقية غير موقعة يعلمنى فيها تريفور بقرب وصوله إلى باريس ، إن غرابة تصرفاته الإقتصاديه تجعله يرى أنه لا ضرورة لتوقيع برقية ، لكن من الواضح أن ذلك يعتبر محاولة للخداع بالنسبة للأمن ، وأعتقد أن الأمور وصلت إلى ذروتها حين تسلمت من إدارة الأمن دعوة للغداء مع الجنرال دى لاتر ، وكان مسافرا الى باريس فى اليوم التالى .

وعلى الغداء لم نتحدث فى شيء ، كان ضيف الشرف ممثلا سويسريا للصليب الأحمر كان يحاول ترتيب عملية لتبادل الأسرى . جلست قرب السيد تام مدير البوليس الفيتنامى ، وهو رجل مشهور بالوحشية منذ مقتل زوجته وابنه وفقده لإصبع فى عملية عسكرية ، حين إنتهى الغداء قال لى : يا جراهام جرين المسكين .

لم يتمكن من الحديث معى ، وطلب منى أن أحضر حفلة الكوكتيل ذلك المساء وأبقى للعشاء .

واستمرت الحفلة طويلا ، كانت حفلة وداعه لهانوى ، وسرت إشاعة بأنه لن يعود ، وأن النصر الزائف فى معركة « هاوبنه » هو الهدية الغالية التى إشتراها ليعود بها إلى باريس ، وغادر الكل أخيرا عدا الضباط الذين بقوا للعشاء ، كان بعض الجنود يغنون جماعيا ، بينما جلس الجنرال دى لاتر على كنبة ممسكا بيد زوجته . لو علمت بأنه كان يحتضر لرأيت فيه مرة ثانية البطل الذى قابلته قبل عام ، ولكن بدا لى الآن أن حديثه طويل ممل ، وسحره قد تلاشى ، ينتقده ضباطه ، لهب ينطفىء ويبدو كأنه لم يكن سوى دخان .

فى العاشرة توقف الغناء . والتفت الجنرال لى قائلا :

ـ والآن يا جراهام جرين .. لماذا أنت هنا فى فيتنام ؟ كانت إنجليزيته مكسرة ، ولهجته بها جافة متبجحة بطريقة لم يقصدها .

قلت : أخبرتك من قبل .. أنى أكتب لمجلة لايف .

قال : إنى أدرك انك عضو فى المخابرات البريطانية .
كان الجنرالان ليناروسالان يجلسان على حافة كراسيهما متظاهرين بعدم الإصغاء .
ضحكت . قال : عرفت أنك كنت فى الخدمة السرية لمدة ثلاث سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية .
وأوضحت له أننا أثناء الخدمة الوطنية لا نختار عملنا . ولا نستمر فيه حين تنتهى الحرب .
قال : أعرف أنه لا أحد يترك المخابرات إذا دخلها .
قلت : قد يكون ذلك حقيقيا بالنسبة للمكتب الثانى .. ولكن ليس حقيقيا مع أمثالنا .
وأعلن الخادم أن العشاء جاهز .
جلست بجانبه ، وتبادلنا حديثا رقيقا ، كانت زوجته ترمقنى بعبوس ، فلقد أزعجت سلام رجل مريض تحبه فى آخر ليلة له فى هانوى مشهد نصره وهزيمته ، حتى ذلك الوقت لم أكن أدرك كم هو مريض ، شعرت بالحقارة بعد ذلك . كان يستحق صحبة أفضل منى .
حين نهضنا عن المائدة ، سألته إذا كان بالإمكان أن أراه على انفراد ، طلب منى أن أمكث حتى يغادر الآخرون ، وفى الواحدة والنصف صباحا أرسل لى لمقابلته فى مكتبته ، تمنت لى زوجته ليلة طيبة بطريقة باردة . ألم يكن لدى زوجها ما يكفيه من المنغصات ؟ كنت قد أعددت فى ذهنى ما سأقوله له بما فيه المبلغ الذى تدفعه لى مجلة لايف مقابل مقالى ، سمعنى وعبّر عن اقتناعه بكلام طنان (لكن تلك كانت طبيعته) ، قال :
« أبلغت إدارة الأمن أن جراهام جرين صديقى ، ولا أصدق ما تقولونه عنه ، عادوا ثانية ليقولوا لى إنك ذهبت هنا وهناك . قلت لهم لا أصدق فجراهام جرين صديقى ، وعادوا مرة ثانية » .
صافحنى بحرارة قائلا كم هو سعيد أن يعرف أن كل تلك الشكوك كانت على خطأ .
ولكن فى اليوم التالى ، وقبل مغادرته إلى باريس ، عادت إليه شكوكه وهواجسه ، فلقد تسلمت برقية ثانية غامضة وغير موقعة ، وكانت هذه المرة من وكيلى الأدبى فى باريس يقول فيها :

« صديقك يصل الخميس . دوروثى تحت رعاية فيليب » .
والجملة الأخيرة تشير إلى دوروثى كلوز التى ترسم كتب الأطفال التى ألفتها والتى قررت أن تصبح كاثوليكية ، وفيليب كان الأب فيليب كارمان الجزويت اللندنى المشهورة ، لكن كان من الواضح ما الذى إستنتجته إدارة الأمن منها .
قال دى لاتر لأحد أصدقائه قبل صعوده إلى الطائرة :
« كنت أعرف أنه جاسوس . وإلا لماذا يكلف نفسه القدوم إلى هذه الحرب من أجل أربعمائة دولار ثمنا لمقال » . ونسيت كم كانت إنجليزيته مكسرة ، فقد نسى أن يضيف صفرا للمبلغ الذى كان أربعة آلاف دولار للمقال .
لم أكتب أبدا رواية : ها هو مسيو دوبو ، ولكن وأنا عائد إلى سايجون بعد قضاء ليلة مع الكولونيل لوروى ، لمعت فى ذهنى فكرة رواية « الأمريكى الهادىء » .
تقاسمت تلك الليلة ، غرفة مع أمريكى ملحق ببعثة المساعدة الإقتصادية ، أعضاء هذه البعثة ، كما يرى الفرنسيون وهم على حق ، أعضاء فى وكالة المخابرات المركزية ، رفيقى هذا لا يحمل أى شبه مع بايل بطل روايتى « الأمريكى الهادىء » ، فهو رجل اشد ذكاء وأقل براءة ، حاضرنى طوال طريق العودة إلى سايجون عن ضرورة وجود طرف ثالث فى فيتنام ، لم اقترب قط ، لهذه الدرجة ، من الحلم الأمريكى الكبير الذى سيفسد الأمور فى الشرق كما سيفسدها فى الجزائر .
القائد الوحيد الذى يمكن القول أن هذه القوة الثالثة تعده ليكون رجلها ، كان الجنرال المزيف « تيه » . عند زيارتى الأولى إلى طائفة الكاوداى كولونيلا فى جيش البابا الكاوداوى ، فى قوة من عشرين الف جندى تحارب نظريا بجانب الفرنسيين ، لهم مصنع السلاح والذخيرة الخاص بهم فى « تاينن » يزودون الأسلحة الصغيرة التى يبتزونها من الفرنسيين بمواسير مصنوعة من انابيب العادم فى السيارات القديمة . لتصبح كمدافع الهاون .
ومن الصعب الا يشك المرء فى أنهم هم الذين صنعوا قنابل الدراجات التى انفجرت فى سايجون فى العام التالى ، ففيها طابعهم الناص ، كانت القنابل تخفى فى أنابيب بلاستيكية تموه بشكل منفاخ الدراجة ، وتترك

الدراجات فى الحدائق العامة وخارج الوزارات مستندة إلى الحوائط ، والدراجة لا تثير الإنتباه فى سايجون ، فهى مدينة مملوءة بهم مثل كوبنهاجن .

فى الفترة بين زيارتى الأولى والثانية ، كان الجنرال تيه (كما رقىّ نفسه) قد انفصل مع عدة مئات من الرجال عن الجيش الكاوداوى ، وتمركزفى الجبل المقدس خارج تاينن ، وأعلن الحرب على كل من الفرنسيين والشيوعيين .

حين ظهرت روايتى « الأمريكى الهادىء » ، وكتبت عنها مجلة نيويورك الأمريكية ، أداننى المراجع لأنى اتهمت أعز أصدقائى (يقصد الأمريكيين) بالقتل حين القيت عليهم مسئولية الإنفجار الكبير فى ميدان سايجون الرئيسى ـ وهو أسوأ بكثير من قنابل الدراجات الموقوتة والتى تعتبر تافهة بالنسبة لما فعلوه ـ حيث فقد الكثيرون ارواحهم .

ولكن ما هى الحقائق التى كان يجهلها السيد المراجع ؟

كان مصور مجلة لايف وقت وقوع الإنفجار فى مكان يمكنه من إلتقاط صورة مرعبة ودقيقة للحادث ، إحدهما مثلا يبين جسم سائق عربة تريشو مازال وراء مقود عربته بينما تطايرت ساقاه فى الإنفجار . هذه الصورة ظهرت فى مجلة دعاية أمريكية تطبع فى مانيلا تحت عنوان « أعمال هوشى منه » ، رغم اعتراف الجنرال تيه بمسئوليته عن الحادث ، من الذى زود هذه العصابات التى كانت تحارب الشيوعيين ، والكاودبين والفرنسيين بهذه المتفجرات ؟ وهناك دلائل مؤكدة على الاتصالات بين المخابرات الامريكية وجنرال تيه ، فقد عثر مزارع مطاط فرنسى على جيب به جثتان لأمريكيتين على الطريق على الجبل المقدس حيث مقر جنرال تيه ، من المحتمل أن يكون الفيتناميون قد قتلوهما ، لكن ماذا كانت تفعلان فى المزرعة ، وقد تسلمت السفارة الأمريكية الجثتين ، ولم يسمع شىء عن الحادث ، ولا كلمة ظهرت فى الصحف . كذلك أعتقل قنصل أمريكى فى وقت متأخر من الليل على كوبرى فى الطريق إلى داكاو ، وكان يحمل قنابل بلاستيكية ، ومرة ثانية لم تذكر الصحف الحادث وكتم عليه لأسباب سياسية .

وهكذا ، هبط علىّ موضوع رواية الأمريكى الهادىء ، خلال ذلك الحديث عن قوة ثالثة فى الطريق عبر الدلتا إلى سايجون .

وتتابعت شخصيات الرواية ، كلها من اللا وعى عدا شخصية واحدة هى جرانجر المراسل الصحفى الأمريكى ، حتى أن المؤتمر الصحفى الذى شهده فى هانوى كان مسجلا كلمة كلمة فى يومياتى آنذاك .

ومن المؤكد أن هناك من المباشرة فى رواية الأمريكى الهادىء أكثر مما يوجد فى أى رواية أخرى كتبتها . ولقد عمدت إلى استخدام ضمير المتكلم مستفيدا من التجربة التى اكتسبتها من رواية « نهاية المسألة » ، وكذلك التنقل فى الزمن ، واختيارى لصحفى بطلا للرواية بدا لى مبررا لاستخدام الريبورتاج .

لم يكن المؤتمر الصحفى هو السرد المباشر الوحيد فى الرواية ، فقد كان بطل الرواية ـ المتكلم ـ فى قاذفة قنابل (كان الطيار قد خالف أوامر جنرال دى لاتر وأخذنى معه) هاجمت مواقع الفيتناميين، وكان أيضا مع الفيلق الأجنبى خارج فات ديام ، ومازالت ذاكرتى تحتفظ بالصورة الحادة لطفل ميت ملقى فى خندق قرب جثة أمه ، إصابتهما المحكمة بالرصاص جعلت موتهما أكثر إزعاجا من المذبحة غير المميزة التى حدثت فى القنوات المحيطة .

رجعت إلى الهند الصينية للمرة الرابعة والأخيرة سنة ١٩٥٥ بعد هزيمة الفرنسيين فى الشمال ، وصلت هانوى بصعوبة ، مدينة حزينة ، حيث شربت هناك آخر زجاجة بيرة كانت موجودة فى المقهى الذى تآلفت فيه مع مسيو دوبو ، كنت أشعر أنى مريض جدا ومتعب وحزين ، تعاطفت مع المنتصرين لكنى شعرت بتعاطف أيضا مع الفرنسيين ، كان بإمكانى رؤية الكتب الكلاسيكية الفرنسية فى واجهة مكتبة صغيرة تبيع الكتب القديمة ، والتى كان ينقب فيها دوبو منذ سنوات .

كان فندق المتروبول حيث اعتدت أن أنزل فى أيدى اللجنة الدولية ، وكانت أكشاك حراسة الفيتمنة خارج المبنى حيث أعطى دى لاتر وعده « أترك زوجتى لديكم كرمز على أن فرنسا لن تترك هانوى أبدا » ومر يوم إثر يوم وأنا أحاول أن أشق طريقى لمقابلة هوشى منه ، وغرقت روحى فى الرذاذ المتساقط طوال اليوم من المطر الدافىء ، وأخبرت وسيلة الإتصال لترتيب المقابلة أنى لا أستطيع الإنتظار أكثر من ذلك ، وأنى عائد فى اليوم التالى إلى ما تبقى من أرض يسيطر عليها الفرنسيون فى الشمال ، ولا أدرى لماذا أتى هذا الإبتزاز بنتيجة ، فقد دعيت فجأة لتناول الشاى

مع هوشي منه . أدركت وقتها أنى مريض لدرجة لا تمكننى من حضور اللقاء ، وفكرت فيما يمكن أن أعمله ، لم تكن هناك سوى طريقة واحدة ، ذهبت إلى دكان عطار صينى قديم زرته فى السنة السابقة ، كانوا يطلقون عليه « أسعد رجل فى الدنيا » ، وهناك أمكننى أن أدخن عدة غلايين من الأفيون ، وقبل انتهائى من تدخينها أتى الرسول ليصحبنى للمقابلة ، ووقع المستحيل ، زجاجة البيرة التى شربتها وغلايين الأفيون التى دخنتها ، كل ذلك أبعد عنى المرض والكسل ، وأعطانى الحيوية لمقابلة هوشى منه على الشاى .

أسعد اللحظات التى بقيت فى ذاكرتى عن الفترة التى قضيتها فى الهند الصينية ، هى تلك المتعلقة بتدخين الأفيون ، وقد لعب ذلك دورا هاما فى حياة فولر إحدى شخصيات روايتى الأمريكى الهادىء ، وانى أضيف هنا بعضا من يومياتى حول هذا الموضوع ، لأنى أكره أن أغادر الهند الصينية إلى الأبد برواية واحدة تذكرنى بها .

سايجون فى ٣١/٥/٥٣ .

من أطرف ما قد يقع لك فى الأماكن البعيدة أن تلتقى « بصديق الأصدقاء » ، شخص ما إستراح له صديق لك ، وبالتالى ستستريح له أنت أيضا .

هذا المساء جاءنى واحد من هؤلاء ، طبيب بحرى ، بعد تناول كأس ويسكى فى غرفتى ، تجولنا فى سايجون ، راكبا وراءه على دراجته النارية ، ثم توجهنا لندخن نفسين من الأفيون ، صعدنا إلى غرفة فى الدور الأول تقع فوق مدرسة للتلاميذ الصغار ، صاحب البيت نفسه كان يدخن حوالى ستين غليونا يوميا ، وكان يبدو كإنسان مجفف ، كانت إبنته وإبنه ينامان فى الغرفة ، لا ينبغى للصغار تدخين الافيون ، فهو على رأى الصينيين للكبار ومتوسطى العمر ، كان الغليون هنا رخيصا ، بعشرة قروش ، فذهبنا إلى مكان أكثر أناقة ، يستأجر المرء فيه غرفة ويمكنه أن يحضر رفيقه معه ، وكانت هناك مظلة كبيرة فوق السرير الدائرى ، كما لاحظت رفا من الكتب بجوار السرير ، ومن الغريب أنى وجدت روايتين لى بين الكتب هناك ، وزارة الخوف وصخرة برايتون ، فكتبت إهداء على كل منهما . كان الغليون هنا يكلف ٣٠ قرشا .

بدأت تجربتى مع الأفيون فى أكتوبر ١٩٥١ حين كنت فى طريقى من

هايفونج إلى بايدلونج ، إصطحبني موظف فرنسي بعد العشاء إلى شقة صغيرة في شارع خلفي ، كنت أشم رائحة الأفيون وأنا أصعد السلم ، كانت رائحة تشبه النظرة الأولى التي يلقيها المرء على إمرأة جميلة ويدرك أن هناك احتمال علاقة ستنشأ بينهما .

قررت المدام صاحبة المكان أني مادمت مبتدئا فيجب ألا أدخن أكثر من أربعة غلايين ، وأنا شاكر لها جدا نصيحتها تلك . فتجربتي الأولى كانت ممتعة جدا ولم تفسد بزيادة الجرعة ، كما أن جو المكان دخل قلبي فورا ، الأريكة الصلبة ، المخدة الريش التي كالقرميدة ، تقشف يناسب رياضة السرور كما يقولون ، أما المصباح الصغير الذي ينعكس ضوؤه على وجه معد الغليون وهو يعجن الكرة الصغيرة بنية اللون فوق اللهب حتى تظهر فيها الفقاقيع ويتغير شكلها كالحلم ، والأضواء الخافتة ، وفناجين الشاي الأخضر غير المحلى الصغيرة ، كل هذه الأشياء لترف اللذة .

يدفع المعد الكرة الصغيرة بإبرة داخل الغليون ، ويقلبه فوق اللهب لمدة لا تزيد على ربع دقيقة ، ويستطيع المستنشق الحقيقي أن يسحب كل ما في الغليون في نفس واحد .

بعد غليونين شعرت بدوخة ، بعد أربعة شعرت أن ذهني هادىء ويقظ ، التعاسة والخوف من المستقبل أصبحا من مخلفات الماضي ، يعبران الذهن لماما وكنت أظنهما مهمين . وجدت نفسي ألقي بقصيدة لبودلير على صديقي الفرنسي وأنا الذي أشعر بالخجل من فرنسيتي الخشنة ، « دعوة إلى رحلة » تلك القصيدة الجميلة عن الهروب .

ـ حين عدت إلى البيت تلك الليلة ، جربت للمرة الأولى ليالي الأفيون البيضاء ، يسترخي المرء مسترخيا ويقظا ، لا يريد النوم ، نحن نرتعب من اليقظة حين تكون أفكار المرء مشغولة ، أما في هذه الحالة ـ فمن الخطأ أن يقول المرء أنه سعيد ـ لأن السعادة تجعل نبضات القلب تضطرب . وفجاة وبلا إنذار تروح في النوم . لم أنم في حياتي نوما عميقا في ليلة كاملة كما نمت تلك المرة لفترة قصيرة . تنام وتستيقظ لتجد أن عقارب الساعة المضيئة تقول أنه لم يمض في الواقع أكثر من عشرين دقيقة ، إستيقاظ هادىء ونوم عميق يعادل نوم ليلة بطولها .

هانوي في ١٩٥٤/١/١٠ :

إصطحبنى عدد من الأصدقاء الفرنسيين إلى الحى الصينى فى هانوى ، نادينا أولا على صديقنا الصينى الذى يعيش فوق مخزن للعطارة ، العائلة كلها تتجمع فى غرفة واحدة مع كلب وقطة ، بعد أن شربنا الشاى قمنا بزيارة لأحد أقاربه يطلقون عليه « رأس الأفعى » و« أسعد رجل فى العالم » ، كان يجلس بين الجدران الضيقة التى تشبه النفق ، يرتدى بيجامة خفيفة ، لم يكلف نفسه إرتداء ملابسه ، كان ثريا وقد ورث العمل عن والده وهو صغير ، وكان يبدو كقطعة من العطارة الجافة ، جعله الأفيون هيكلا عظميا ، وفى الخلف كان الأولاد يلعبون لعبة المهجونج التى تثير ضجيجا كعاصفة . دخنت غليونين كفاتحة للشهية ، وبعد العشاء فى نيوماجودا ، رجعت ودخنت خمسة غلايين أخر .

هانوى ١١/١/١٩٥٤ :

عشاء مع أحد الأصدقاء الفرنسيين وبعد ذلك دخنت ستة غلايين ، وأصوات إطلاق النار وطائرات الهليكوبتر القريبة من الأسطح تحمل الجرحى ، تملأ المكان . كلما إقتربت من الحرب أكثر قلت معرفتك بما يجرى ، الصحف اليومية فى هانوى تتحدث عن الحرب أقل من الصحف التى فى سايجون ، وصحف سايجون أقل من صحف باريس . أصوات طائرات الهليكوبتر لها تأثير غريب على تدخين الأفيون ، فهى تجعل الفقاقيع الرقيقة من الشمع تتلاشى فى اللهب ، ولأن الغليون خامد لا يشعل ، فإن الأفيون يفقد كثيرا من رائحته كما تفقد السيجارة نكهتها فى الهواء الطلق .

فيانتيان ١٢/١/٥٤ :

إستيقظت مبكرا لألحق بطائرة عسكرية تغادر إلى فيانتيان العاصمة الإدارية للاوس . كانت طائرة شحن عسكرية ، وجلست على حقيبة ، وكنت سعيدا أن وصلت .

بعد العشاء ذهبت إلى بيت مستر س وهو أوراسى ومدمن لتدخين الأفيون مما جعله نحيفا وأطرافه كأنها لصبى صغير ، كان رفيقا ساحرا وكئيبا فى الوقت نفسه ، يتكلم الفرنسية بلهجة جميلة . واضحة ، يحدق بنظارته ذات الإطار من المعدن ، بدقة فى الإبرة التى يدفع بها الأفيون فى

الغليون . يعيش فى بيت صغير ضيق لا يتسع لزوجته وطفله اللذين تركهما فى بنوم بنه . فى الليل لا يفعل شيئا ، فالسينما تعرض الأفلام القديمة فقط ، ولا يفعل شيئا فى النهار سوى الإنتظار خارج مبنى الحكومة لعلّ أحداً يستخدمه لقضاء مهمة بسيطة ، كانت حقيبته شقا فى جذع نخلة يدس فيه كتابه أو جريدته حين يستدعى لأداء خدمة ما ، كان أفيونه ممتازا ، أفيون نقى من لاوس ، كما كان يعد الغلايين بطريقة تثير الإعجاب ، وجهه الحزين المندهش يحملق فى الأفيون ، وأصابعه العظمية تعجن وتدفىء بذرة السعادة البنية ، يتكلم بلطف وبخبرة العالم حول أنواع الأفيون ودرجاته . أفيون لاوس ، يونان ، شيهاون ، إسطمبول ، بيناريس ،، آه بيناريس ذلك النوع ستتذكره عبر السنين .

١٨/١/١٩٥٤ :

بعد تناول الشراب مع م و د من إدارة الأمن ، وعشاء مع عدد من أعضاء المفوضية ، رجعت مبكرا إلى الفندق لأقابل مفوض شرطة فيتنامى ورجلين فى ملابس مدنية سأذهب بصحبتهم فى رحلة فى ليل سايجون .

أول غرزة ذهبنا إليها كانت فى منطقة العشش ، بيوتها مبنية من القش وفى حالة سيئة ، كان فى المكان ، مقهى ومطعم وبيت دعارة وغرزة لتدخين الأفيون ، صعدنا سلما خشبيا إلى حجرة مسقوفة بالقش ، ولا يستطيع المرء أن يقف منتصبا لانحدار السقف وانخفاضه ، وعليه أن يزحف من السلم إلى إحدى المرتبتين المزدوجتين المفروشتين على الأرضية ، تغطى كل منهما ملاءة بيضاء نظيفة . وجاءت فتاة مع معد الأفيون ، من الواضح أنها أحضرت لمتعتى الخاصة . كانت فتاة جذابة ، قذرة ، فى عينيها حول خفيف ، قال مفوض الشرطة :

« هناك مثل يقول الغليون الذى تعده إمرأة يكون أكثر حلاوة » . قامت الفتاة بحركات تسخين كرية الأفيون للحظات قبل أن تمدها للخبير . دخنت غليونين فقط لأنى لم أعرف الى متى ستمتد السهرة ، بعد أول غليون إنسحب رجال الشرطة هابطين السلم بحذر ، متحينين الفرصة لى لاستخدام الفراش المزدوج ، وهذا ما لم أكن أرغب فيه ، وإذا لم يكن هنا سبب إلا عدم القدرة على التركيز فى هذا الموضوع ، وثلاثة من رجال الشرطة ينتظرون أسفل السلم يصغون ويشربون الشاى . لكفانى هذا سببا .

كانت الكلمة الوحيدة التي أعرفها من اللغة الفيتنامية هي كلمة « لا » والكلمة الوحيدة التي تعرفها الفتاة من الإنجليزية هي كلمة « أوكي » وقام بيننا صراع مؤدب بالكلمتين .

تناولت فنجانا من الشاي ، أسفل السلم مع ضباط الشرطة والسيدة الجميلة جدا والتي لها وجه هادىء كراهبة ، حاولت أن أشرح للمفوض أن إهتمامي منصب الليلة على جو الأمكنة التي نزورها ليس غير ، وقد أحبط قولي هذا روح الفريق .

طلبت منهم ، إذا كان بإمكانهم ، أن أرى بيت دعارة أنيقا وظريفا ، كانت الساعة حوالي الواحدة صباحا . خرجنا إلى ضواحي المدينة وتوقفنا قرب مقهى في طريق جانبي صغير ، ودخلنا . أمامنا مباشرة كان يوجد سرير ضخم تجلس فوقه كومة من الفتيات ، يبرز رجل من وسطهن . دخلنا المقهى وشربنا عصير برتقال . حين غادرنا المقهى كان الرجل الذي على السرير قد ذهب ، وحل محله أمريكيان جلسا وسط الفتيات في إنتظار غلايينهن ، إحدهما كان بلحية ويلبس نظارات بإطار مذهب ويبدو كأستاذ جامعة . الآخر كان يرتدي الشورت . ولابد أن الناموس قد قرصه أكثر مما يحتمل، فقد كانت الليلة كثيرة الناموس ، وهذا جعل خلقه ضيقا ، فقد إستاء منا لانه ظن أننا قدمنا لإغلاق المكان .

بعد الضجة التي أثارها الأمريكيان ، الملتحي وصاحب الركب البدينة تغير الموقف بعدما دخلنا غرزة صينية في كولون ، فقد كان الهدوء والسكينة يلفان المكان المملوء بأرفف خشبية عارية من أي شيء ، وأسعار غليون الأفيون الكبير والصغير معلقة على الحائط ، لم أر مثل ذلك في «غرزة » من قبل . دخنت غليونين ، ورفض صاحب المكان الصيني أن يسمح لي بدفع الحساب قائلا : أنت أول أوروبي يدخن عندي ولذا فلن أتقاضى منك شيئا .

كانت الساعة الثانية والنصف صباحا ، فعدت إلى الفندق لانام مخيبا ظن مرافقي الفيتناميين .

إستيقظت في الليل مثبط الهمة ، تشغل فكري الأخطاء في مسرحية « العشة » التي أكتبها ، حاولت ، أن أراجع المشاهد في ذهني ، لكني فشلت .

بنوم بنه ٢٤/١/٥٤ :

إصطحبني مضيفي بعد العشاء إلى وسط المدينة ، أشرت إلى سائق عربة ركشة واضعا إبهامي في فمي ومشيرا كأنف طويل ، وتلك إشارة إن المرء يريد أن يدخن . قادنا إلى فناء كئيب ، مملوء بصناديق القمامة ترتع وسطها الجرذان ، وبضعة أفراد يضطجعون تحت ناموسيات قذرة ، في الدور الأول ، ومكان الشرفة ، كانت الغرزة ، السراويل معلقة كالرايات في صحن كاتدرائية ، والإزدحام شديد ، دخنت ثمانية غلايين وكان يترجم رغباتي إلى معد الافيون ، مدرس للانجليزية يجلس بملابسه الداخلية .

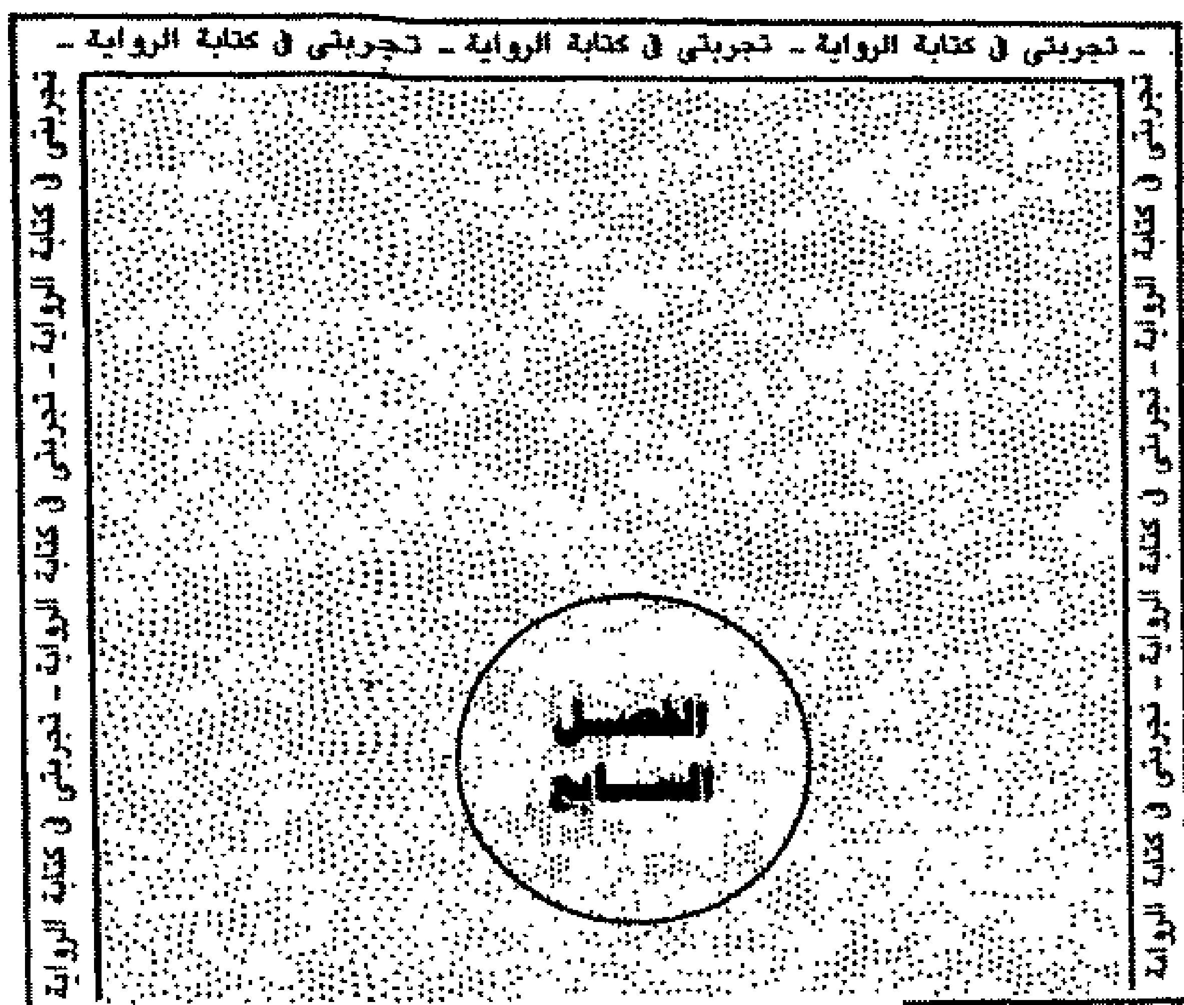
* * *

بعد تسع سنوات ، حين طلبت مني جريدة الصنداي تايمز أن أكتب موضوعا بعنوان « معركة حاسمة من وجهة نظري » ، جاءت على ذهني فورا ديان بيان فو .

في سنة ١٨٥١ كتب السير إدوارد كريزي كتابه بالعنوان الكلاسيكي « خمس عشرة معركة فاصلة في العالم » . أعتقد أنه من المشكوك فيه أن أي معركة ورد ذكرها في كتابه كانت أكثر حسما من ديان بيان فو سنة ١٩٥٤ .

كانت ديان بيان فو هزيمة ، ليس للجيش الفرنسي وحده ، ولكنها معركة حددت بشكل قاطع نهاية الأمل الذي قد يداعب قوى الغرب بأن في استطاعتهم يوما السيطرة على الشرق .

* * *



أظن كان ذلك فى سنة ١٩٥٤ حين رحلتنى السلطات الأمريكية من بورتوريكو ، وهى مناسبة سأذكرها دائما بسرور ، فالحياة ليست غنية بالكوميديا وعلى المرء أن يحتفظ فى ذهنه بتلك المواقف ، ليتذوقها فى الأيام السيئة .

بناء على قانون مكارثى أصبح محظورا علىّ دخول الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكى تكتمل طرافة الموضوع ، فالحكاية اننى فى سن التاسعة عشرة انضممت للحزب الشيوعى فى اكسفورد كعضو تحت التجربة ، وخلال فترة انضمامى القصيرة ، دفعت لصندوق الحزب أربعة طوابع من فئة ستة بنسات شهريا .

ولا تظن أن هذه المعلومات قد اكتشفتها المخابرات الأمريكية بعد عناء بحث ، ولكنى بسذاجتى كشفتها بنفسى لمراسل مجلة التايم الأمريكية ، بعد أن وثقت بكلام السكرتير الأول فى السفارة الأمريكية فى بروكسل ، حيث تصادف أن كنت هناك لنقاش مع فرانسوا موررياك .

وأسدل الستار على اسمى فورا ولم يرفع ثانية إلا حين أصبح جون كنيدى رئيسا . وكنت إذا رغبت فى زيارة الولايات المتحدة ، فعلىّ أن أحصل على موافقة النائب العام فى واشنطن ، ويستغرق الحصول عليها ثلاثة أسابيع ، ثم تحدد اقامتى بأربعة أسابيع ، على أن أخطر السلطات الأمريكية بالطائرة التى سأصل عليها ، وبالطائرة التى سأغادر عليها أيضا ، كما أن التأشيرة على جواز السفر ترصع بأحرف وأرقام غامضة ، وأتأخر طويلا فى الجوازات عند وصول المطار .

استمتعت نوعا ما باللعبة ، ففيها عذر رائع حين أرغب فى رفض دعوة ناشرى الأمريكى .

لكن المرة الأولى التى وجدت فيها الأمر مزعجا كانت سنة ١٩٥٤ ، كنت أقيم فى هايتى (كانت بلدا سعيدا بالمقارنة لما هى عليه الآن) ، مع صديقى بيتر بروك وترومان كابوت ، ورغبت فى العودة إلى انجلترا بأسرع طريق ممكن لأمر طارىء . كانت الوسيلة هى السفر على طائرة شركة خطوط دلتا إلى سان جوان فى بورتوريكو ، ومن هناك على طيران بان أمريكان إلى نيويورك ثم على شركة الخطوط الجوية البريطانية إلى لندن .

ذهبت لرؤية السفير الأمريكى فى بورت أوبرنس عاصمة هايتى ، وشرحت له المشكلة ، وسألته إذا كان بامكانه إعطائى تأشيرة دون استئذان النائب العام وكل ما يصاحب ذلك من التأخير ، كان متعاطفا ولكنه أخبرنى انه لا يستطيع ، وأفهمنى انه يمكننى العبور ترانزيت دون تأشيرة إذا كان لا يضايقنى أن أحجز فى غرفة فى مطارى سان جوان ونيويورك ، وأكد لى أن ذلك قانونى تماما . لم يكن لدى اعتراض ، لكن انتابنى احساس قوى أن هذه الخطة لن تنجح بتلك السهولة .

وصلت الطائرة مطار سان جوان فى التاسعة والنصف مساء ، وكانت الطائرة المفروض أن استقلها إلى نيويورك ستغادر بعد ساعتين . ألقى

رجل متورد الوجه ضخم الجثة ويرتدى زيا من الكاكى ، نظرة مكفهرة على جواز سفرى وعلى الأرقام الغامضة ، وقال : هل سبق لك أن كنت عضوا فى حزب شيوعى ؟

قلت الجملة المرحة التى أكررها : لمدة أربعة أسابيع وأنا فى التاسعة عشرة .

طلب منى أن أخرج من الطابور وأنتظر حتى يفرغ لى . لم تكن لهجته ودية ، وتأكدت أن رحلتى ستكون مزعجة . وبشعور من البهجة جلست أقرأ رواية مغامرات لجينفر ووستر ، كم يكون التأخير مملا حين يكون سببه عطلا فنيا أو وصولا متأخرا لطائرة قادمة ، على الأقل هناك سبب مختلف الآن .

مرت حوالى ساعة ، استدعانى بعدها ضابط الجوازات بطريقة فظة لأتبعه إلى مكتب صغير . أغلق الباب وألقى بثقله عليه كما لو كان يتوقع انى سأهرب . على الجانب الآخر للمكتب كان يجلس رئيسه ، رجل فى الأربعينات ، مرح ومهذب . أخبرته بما قاله السفير الأمريكى ، ولكن كلمة السفراء لا قيمة لها عند ضابط الجوازات .

قال : سنعيدك ثانية إلى هايتى على أول طائرة صباح الغد .

قلت : لو حجزتنى فى البار هنا ، فعلى الأقل يمكننى أن أتناول مشروبا فأنا ظمآن . استاء الرجل المتجهم من أدب رئيسه ، وأراد أن يضعنى فى مكانى الصحيح ! قال : هذا المطار سيكون صحراء قاحلة بالنسبة لك يا رفيق . كان رئيسه أكثر لطفا فقال : على كل حال لن تكون المدينة صحراء أيضا .. إذا وعدتنى وعد شرف بألا تهرب يمكنك أن تقضى الليلة فى فندق بالمدينة .

قلت : ليس معى دولارات .

ولم يكن ذلك صحيحا تماما .

فقال : العم سام سيدفع .

استدعى ضابطين بملابس مدنية ليأخذانى إلى المدينة ، فى الطريق أوضحا انهما سينامان فى الغرفة المجاورة لى وسيوقظانى فى السادسة والنصف صباحا ليعيدانى إلى المطار . ابتسمت لتذكرى انى لا أحمل

تأشيرة إلى هايتى ، وكان الأمريكيون فقط هم الذين لا يحتاجون تأشيرة لدخولها ، لم يفكر أحد بذلك ، لكنى قررت ألا أخيرهم . أصبحنا أصدقاء ونحن فى السيارة ، ودعوتهما لتناول الويسكى فى بار الفندق ، درنا بالسيارة فى جولة أخرى ، وقررت أن أكون كريما على حساب العم سام .

قال أحد الضابطين للآخر : المسكين لم ير شيئا فى المدينة .

رد الآخر : دعنا نتجول به فى السيارة قليلا .

لم أر الكثير من المدينة ، فالشوارع مظلمة ، والمارة قلة ، رأيت رجلا على أضواء مصابيح السيارة ، يتعثر أمامنا ، كان يضع ضمادة ملطخة بالدماء . لكنى رأيت الكثير من البارات .

فى الواحدة والنصف ، أصبح أحد الضابطين لا يستطيع الوقوف على قدميه من السكر ، فقلت لهما حان وقت النوم إذا أردتما أن أستيقظ فى السادسة والنصف .

فى الطريق إلى المطار صباحا ، لم نتبادل الحديث ، أحدهما كان يعانى من أثر شراب الأمس .

انضممنا إلى طابور أمام خطوط شركة دلتا للطيران ، وقال اكثرهما اتزانا مظهرا شارته « ضع هذا الرجل على الطائرة المسافرة إلى هايتى » .

عند ذاك لعبت بالجوكر ، قلت : ليس معى تأشيرة إلى هايتى . ولم يكن أفضل من هذا الوقت لأقولها فيه .

قال موظف شركة الطيران : لا أستطيع أخذه دون فيزا .

سأله الضابط : متى تفتح سفارة هايتى أبوابها

رد : فى العاشرة والنصف .

قال الضابط : سنأخذه إلى المدينة ليحصل على التأشيرة وعليك أن تحجز له على الطائرة التالية .

قلت : أنا مسافر إلى انجلترا ولا أريد الذهاب إلى هايتى ولن أذهب للحصول على تأشيرة .

كان ارتباكهم كاملا ، وتركتهم يفكرون فى حل ، وتسللت إلى مكتب

تلغراف المطار وأرسلت برقية إلى وكالة رويتر فى لندن « السلطات الأمريكية فى بورتوريكو ترحلنى إلى هايتى . لمعلومات أكثر اتصلوا بسكرتيرتى فى رقم كذا وكذا » .

انها احدى المناسبات القليلة التى شعرت بها بأهمية أن يكون الإنسان مشهورا ولو قليلا .

حين عدت لمكتب شركة الطيران ، وجدت انهم حلوا المشكلة أو هكذا اعتقدوا ، سيقوم مسئول شركة دلتا بالإبراق إلى مديره فى بورتو اوبرنس للحصول على إذن من سلطات هايتى بدخولى .

فكرت بأن ذلك لن يضيف إلى متاعبى شيئا فى هذه اللحظة ، وصحبنى الضابطان مثل شخصية مهمة جدا إلى الطائرة ، وأقلعت الطائرة متأخرة قليلا . ما أن حللت الحزام حتى وجدت قائد الطائرة يجلس بجانبى ، قال بتعاطف : يبدو أنك فى مشكلة ؟ أخبرته بما حدث .

قال : آه .. أنا نفسى كنت شيوعيا ذات يوم .

وأخبرنى بقصته ، كان ممثلا فى هوليود ووضع اسمه فى القائمة السوداء ، وهكذا أصبح قائد طائرة على خطوط دلتا . تساءلت ماذا يكون رد فعل المضيفات الجميلات لو علمن أن قائد طائرتهن كان شيوعيا !

قلت له : ستواصل رحلتك من هايتى إلى هافانا .

قال : نعم .. ثم من هافانا إلى ميامى .

قلت : هل تمانع لو بقيت فى الطائرة حتى هافانا ؟

قال : يسعدنى أن تكون معى .

حين هبطت الطائرة فى بورت اوبرنس ، استطعت رؤية مدير شركة دلتا يسير على الطريق المسفلت المؤدى للطائرة . قابلته عدة مرات أثناء اقامتى فى هايتى ، وكرهته بلا سبب .

حين هبطت سلم الطائرة ، ثار فى وجهى :

ـ لقد سببت لنا مشاكل لا أول لها ولا آخر .. ذهبت أولا إلى وزارة الخارجية واقنعتهم أن تقضى الليلة هنا ثم سنرحلك إلى جامايكا ..

انزعجت ، فقد قضيت ليلة قصيرة متعبة وقلت :

ـ أنا لست طردا ملعونا .. ولن ترسلنى إلى أى مكان .. أنا ذاهب إلى

هافانا على هذه الطائرة .

قال : لن تذهب إلى أى مكان على طائرتى .

انضم إلينا قائد الطائرة فى هذه اللحظة ، وقال :

ـ سآخذ هذا السيد معى إلى هافانا على الطائرة التى أقودها . وأكد على كلمة طائرة . .

انه مسرح اجتماعى جميل ، الشيوعى الجيد يواجه الرأسمالى السيىء ، وفى المسرح الإشتراكى ليس فى نهاية القصة شك . واستدار المدير عائدا بامتعاض .

بعد أن أقلعنا إلى هافانا ، بدأت المضيفة توزيع « كروت » ملونة على الركاب . سألت : ما هذه ؟

قالت : لركاب الترانزيت إلى ميامى

قلت : أمن الممكن أن تعطينى واحدا .

أعطتنى « كرتا » ، فكرت ربما يفيد بشكل ما ، مع أنى كبريطانى يمكننى دخول هافانا فى ذلك الوقت دون تأشيرة .

بعد أن هبطنا ، رأيت امرأة أخذت « كارتا » مثل الذى أخذته تعبر بسهولة من منطقة الجوازات بمجرد ابرازها لذلك « الكارت » ، بدا لى أنه من الأسرع عبور منطقة الجوازات بتلك الطريقة ، وهكذا عبرت ملوحا بالكارت الذى أحمله .

استأجرت سيارة إلى فندق أعرفه فى المدينة القديمة ، وبعد حمام ساخن ذهبت إلى السرير . كانت رحلة متعبة فغرقت فى النوم .

أيقظنى رنين جرس التليفون ، قلت : من ؟

قال : هل أنت مستر جراهام جرين ؟

قلت . أيوه .

ـ هذه جريدة نيويورك تايمز .. تلقينا خبرا من وكالة رويتر بأنك رحلت من بورتوريكو ..

ـ فعلا ..

ـ الخبر يقول إلى هايتى .. ولكن نجدك فى هافانا ..

ـ أحب هافانا أكثر ..

ـ سألنا عنك فى كل الفنادق الكبرى.. ولم نتوقع أن نجدك فى هذا الفندق ..

ـ أحب هذا الفندق أكثر ..

بعد هذه المكالمة ، حاولت النوم ثانية ، لكن التليفون دق مرة واثنتين ، ووجدتنى أكرر المحادثة السابقة ثانية ، لكن هذه المرة مع مراسل ديلى تلجراف ، وأكدت له صحة خبر وكالة رويتر .

قال : ينبغى أن أحذرك .

قلت : مم ؟

قال : تحدثت مع مسئول الهجرة والجوازات هنا .. فى محاولة لتتبع خطواتك .. دهشوا جدا وأكدوا لى أنك لم تخرج من المطار .. انهم يبحثون عنك فى كل مكان .. لم يجدونى أبدا . لم تكن الشرطة على درجة من الكفاءة أيام حكم باتستا لكوبا .

* * *

٢

نشرت رواية « نهاية المسألة » سنة ١٩٥١ ، وقد انتهيت لتوى من رواية « الأمريكى الهادىء » سنة ١٩٥٥ ، ومزاج الهروب مازال يلازمنى ، لكنه هذه المرة لم يأخذنى أبعد من مونت كارلو لأعيش ببذخ عدة أسابيع فى فندق باريس ، أجلس ساعات طويلة إلى موائد الكازينو ، وأكتب ما آمل أن يكون رواية عاطفية مسلية لا يتوقعها أصدقائى ولا أعدائى ، اسميتها « الخاسر ينال كل شىء » ، فالسمعة تشبه قناعا ميتا ، وأردت أن أمزق هذا القناع . اتبعت نظاما دقيقا ، الإفطار فى السرير ، العمل حتى الحادية عشرة، ساعة فى مطبخ مطعم الكازينو قبل الغداء ، قيلولة ، ساعتان أخريان فى المطبخ ، عشاء ، ثم فترة مداومة فى الصالة الخاصة من التاسعة مساء حتى منتصف الليل ، لم اكتشف أى نظام خاص للعب كما حدث فى الرواية ، لكنى لم أخسر . فى نهاية اقامتى

كانت جملة أرباحي أربعة جنيهات ، مبلغ حقير طبعا سارعت لخسارته في وضح النهار قبل أن ألحق بطائرتي ، كانت أياما سعيدة .

وللمرة الأولى ـ وأعتقد انها الأخيرة ـ أنسج شخصية رئيسية من الحياة الواقعية ، فشخصية « دورثر » ملك المال والأعمال في رواية « الخاسر ينال كل شيء » ، هي بلا إنكار الكسندر كوردا . وستظل القصة مهمة بالنسبة لي لأنها مشربة بذكريات إنسان أحببته .. إليكس كوردا . بل اني استخدمت أجزاء من حواراته بنصها ، ومازلت أذكر قوله لي بلهجته المجرية المترددة التي تضفي على الكلمات التافهة حكمة بليغة ، وهو ما نقلته على لسان دورثر للمحاسب برنارم الذي وعده بشهر عسل على يخته في مونت كارلو « يا ولدي العزيز .. ليس من السهل على المرء أن يفقد امرأة خيرة وجميلة .. لذلك إذا كان على الرجل أن يتزوج فمن الأفضل أن يتزوج امرأة سيئة » .

بل انه زودني بحبكة الرواية ، كنت في اجازة مع صديقة عزيزة جدا ، حين تسلمت برقية منه تدعونا للانضمام إليه في أثينا لنقوم بجولة في يخته المسمى « في مكان آخر » .

كان يخته هذا ذا الاسم الرومانسي هو وسيلته للهروب من سيناريوهات الأفلام والمخرجين وشركة التأمين ، في البداية كان هروبه ناقصا ، فاليخت كان راسيا في الميناء القديم لانتيب ـ أستطيع رؤيته الآن من نافذتي وأنا أكتب ـ مربوطا إلى الشاطيء ، بحيث يمكنه يوميا النزول ومخابرة مكتبه قائلا انه يتكلم من مونت كارلو أو بروتوفينو أوكالفي دون أن يغادر مكانه . لكن بمرور السنوات أصبح يتجول باليخت بحرية وأصبح اسما على مسمى ، حتى اننا يوما اضطررنا بسبب الرياح إلى اللجوء إلى جزيرة يونانية صغيرة لم يكن فيها حتى مكتب للبريد ، كنا نتحدث في هذه الجولات عن اللوحات والفن التشكيلي ، عن شعر بودلير ، عن المسرح ، عن أي شيء عدا الأفلام ، وكان بيننا اتفاق غير مكتوب ان نغير الموضوع بسرعة إذا تطرق أحد الموجودين بالحديث عن السينما .

وكانت الرحلة التي دعانا إليه ، هي المرة الأولى التي يتجول فيها

اليخت بحرية ، بعيدا عن اتصالاته بمكتبه . كان موعد اللقاء في فندق جراند بريتاني ، لكن حين وصلنا ، لم نجد اليخت ولا كوردا ولا حتى رسالة منه ، كما أن الفندق لا يعلم شيئا عن قدومه .

في تلك الايام ، كانت القيود على العملة والتحويلات مازالت قائمة ، وكان لدينا مبلغ صغير من المال ، وفندق جراند بريتاني باهظ التكاليف ، أسرفنا في اليوم الأول ، لكن في اليوم الثاني ومع عدم وجود أخبار عن اليخت إلتزمنا الحذر في مصروفاتنا وهذا يعني أن نكون أكثر إسرافا ، بمعنى أننا بدأنا نتناول وجباتنا في الفندق بدلا من تناولها في المقهى الرخيص ، ونركب عربة الفندق المكلفة والتي تضاف أجرتها على الفاتورة بدلا من استئجار تاكسي ، مازلت أذكر سعر السندويتشات المرتفع والتي أعدها الفندق على الحساب ، لنأخذها معنا ونتناولها على الكورنيش علنا نلمح اليخت قادما يمخر البحر .

حسنا ، اليكس مثل شخصية دروثر ، وصل في الوقت المناسب ودفع فاتورة شهر العسل ، وولدت رواية « الخاسر يكسب كل شيء » مع جرعات نبيذ رتسينا اليوناني أثناء غداء النزهة القلقة . لقد بعت حقوق انتاج الرواية كفيلم ، الذي كان كارثة بممثليه ، قامت ببطولته ممثلة في أواسط العمر لتؤدي دور فتاة في العشرين من عمرها ، ونجم ايطالي رومانسي ليؤدي دور محاسب غير رومانسي ، لقد عرف اليكس نفسه في شخصية دروثر وقام بانتقامه الصغير عن طريق اختياره للممثلين ، وقد رفض أن يقوم بالتمثيل نجوم مناسبون للشخصيات رغم العقود الموقعة بينه وبينهم ، على كل حال لا أعتقد ان الصورة التي رسمتها له في الرواية قد أزعجته ، وهي التي نسجتها ببعض من شعور الحب العميق نحوه .

ورغم لهجته المجرية الجادة ، فلا يخالجك الظن انه حكيم بدرجة مملة ، كانت له هفوات غريبة ومحببة ، لم يكن إلا شخص أجنبي مثله ذلك الذي يتورط بعمق في تلك الدراما الكارثة « الأمير شارلي الجميل » ، ومن الافضل غالبا الا تؤخذ نصيحته فيما يتعلق بالافلام . أذكر أول اجتماع لنا لمناقشة سيناريو فيلم المعبود الذي هوى عن قصة قصيرة لي

حول طفل وسباق ، أرادني أن أغير السباقي بسائق قائلا : ان الأطفال يا جراهام يهتمون بالآلات ، وهكذا تفتتح الفيلم في مطار لندن ووالدا الطفل يسافران إلى الخارج ، والصغير يهتم بموتور العربة ..

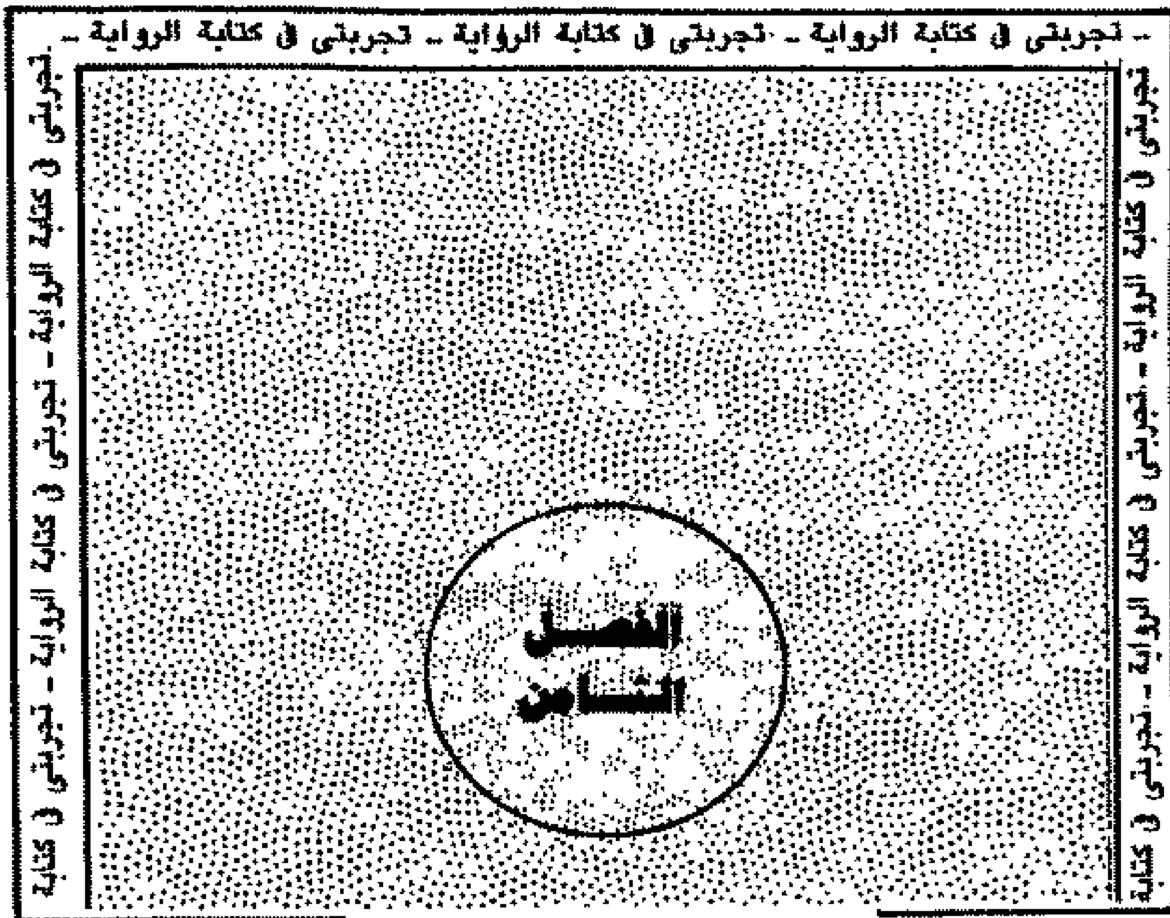
إعترضت قائلا : كم فيلما ابتدأ بطائرة تغادر المطار أو تصل إليه ؟ لم يقتنع ، لكنه تركنا أنا وكارول نفعل ما نريد .

كانت حكمته الإنسانية دائما أعظم من حكمته في الأفلام ، في فترة في الخمسينيات وصلت بي كآبتي لدرجة الجنون ، ودارت في ذهني فكرة الإنتحار ، وقد كتبت ذلك بشكل ما في مقال في جريدة الصنداي ، فاتصل بي هاتفيا قائلا : « يا ولدي العزيز .. ان ما تفكر فيه جنون .. تعال معي إلى انتيب .. أنت تشعر بالملل .. حسنا تعالى إلى يخت في مكان آخر » .

كان متغلغلا في حياتي ، عرفت انتيب أول مرة معه ، ويبدو الآن انى سأنهي حياتي هناك . كان هو أول من اصطحبني إلى مونت كارلو ، ومن تلك المدينة استوحيت شخصيتي الرئيسية « براون » في روايتي « الممثلون الهزليون » . هل كانت رحلتنا على ظهر يخته ، مع اثنين من الامريكيين كتمويه ظريف ، لعملية تجسس ؟ لقد أسر لي بأنه حصل لكلينا على مبلغ كبير من المخابرات البريطانية لتصوير كل الشاطىء اليوغسلافي أثناء تجوالنا ! لقد عاد يلعب بعدسات التصوير كما لم يفعل منذ سنوات ، لقد ساعد المخابرات أثناء الحرب العالمية الثانية ، وتبدو عليه الآن بهجة الأطفال وهو يتجسس على الساحل الأدرياتيكي دون أن يعرف ضيوفه الامريكان شيئا ، كان هذا جانبه المؤذي كشخصية دروثر في فندق باريس .

أتذكره وهو يقول لي « حين كنت وأصدقائي شبابا في المجر ، حلمنا كلنا بأن نكون شعراء . ثم ماذا أصبحنا ؟ سياسيين ، ورجال اعلانات ومنتجي أفلام ! » .

* * *



١

كان ق الخمسينات ، ان بدأت المسرحيات التى اكتبها تعرض على خشبة المسرح . وقد قدم لى المسرح تجديدا وهروبا من الروتين العادى ، مثل رحلاتى إلى الملايو وفيتنام والماوماو ..

وحين يكتب روائى مسرحية لأول مرة وهو ق منتصف العمر ، فمن الطبيعى أن نفترض انه دخل المجال متأخرا . وبالتأكيد سأنظر بعين الشك إلى رواية يكتبها لأول مرة الكاتب المسرحى الشهير تيرنس راتيجان مثلا إذا حدث وكتب واحدة . فاحتمال خيبات الأمل والصعوبات المختلفة ، والبدايات والنهايات التى تحتاج إلى تغيير ، واعتماد طريقة محددة كالتواصل عن طريق الحوار وحده ، تحتاج من المبتدىء أن يحب

عمله ويخلص له ، فهل نصدق حبا يعلن عن نفسه في الساعة الحادية عشرة ؟

هذا الكلام أقوله لقادم متأخر لعالم المسرح ، ولكنني لم أدخل مجال المسرح متأخرا إلا من ناحية واحدة ، وهي العرض الفعلي للمسرحية ، فحياتي ككاتب تتناثر فيها مسرحيات كثيرة كتبتها وتخليت عنها ، كما تخليت عن روايات كثيرة لم أنشرها .

لا أستطيع أن أحصي عدد المسرحيات التي كتبتها قبل « غرفة المعيشة » سنة ١٩٥٣ ، لكنني أذكر أن أول مسرحية كتبتها وقبلت ، لكن لم تعرض ، انهيتها وأنا في سن السادسة عشرة ، ولقد وصفت خيبة الأمل تلك في كتابي « نوع من الحياة » ، ومرت عشرون سنة قبل أن أحاول جديا كتابة مسرحية أخرى .

كانت محاولتي الأولى ، كوميديا مستقاة من حوادث الخطف المتكررة التي وقعت في منشوريا أثناء احتلال اليابان لها في الحرب الأخيرة . ولم أصل في هذه المسرحية إلى الفصل الثاني أبدا ، كنت سعيدا بالفصل الأول لدرجة كافية ، المكان محطة سكة حديد على الحدود المنشورية ، وشخصياتها : ضابط ياباني مشغول بآلته الكاتبة ، مراسل لصحيفة الديلي ميل ، وهي صحيفة أربكت السلطات بتقديمها جائزة كبرى لمن يعيد المختطف (لم تكن هناك مشاكل مالية في تلك الأيام السعيدة قبل الحرب) ، القنصل البريطاني ، ووسيط صيني ، ثم الزوج القلق ، وأخيرا الزوجة وشاب موظف اختطفهما قطاع الطرق وهما في سباق محلي . كان قلق الزوج على زوجته أقل من قلقه على كرامته الزوجية ، فالضحيتان ، حسب قول الصحافة ، قد ربطتا معا من الرسغين لمدة ١٥ يوما ليلا ونهارا .

أحببت الفصل الأول ، فهناك أصالة في الجو وجدة في التعبير ، لكن حين حسبت الوقت الذي يستغرقه في العرض ، كان ثماني عشرة دقيقة ونصف ، والمسرحية في فصلين ، والثاني أقصد من الأول .. وهكذا تخليت عن المسرحية مرغما . كان طول المسرحية يعذبني دائما ، حتى رواياتي المبكرة كانت أقل من ٧٥ ألف كلمة ، وهو الكم الذي حدده الناشرون كحد أدنى للرواية .

قبل البدء فى بروفات مسرحية « غرفة المعيشة » ـ وقد كتبتها عدة مرات على مدى ثلاث سنوات ـ تلقينا ان مدة عرضها لن تتجاوز ساعة وربعا ، وأصابني القنوط لأنه كان من المستحيل أن أطيل المسرحية ، كان توقيتها الذى قدرته ساعة وثلاثة أرباع الساعة ، وقد أثبت انه أكثر دقة فى النهاية ، قلت إننا لو أخرنا رفع الستار قليلا ، وزدنا الاستراحة قليلا أيضا فمن الممكن أن نعبر الحد الأدنى المقرر للمسرحية وهو ساعتان ، وهو ما تراه إدارة المسرح ضروريا مثل الـ ٧٥ الف كلمة التى حددها الناشرون للرواية .

ونجحت مسرحية « غرفة المعيشة » ، والفضل للمخرج وجميع العاملين ، وبالنسبة لى كان الأمر أكثر من قضية نجاح ، فقد كنت أحتاج لفترة راحة من كتابة الروايات ، وكنت أكره العمل الشاق فى كتابة فيلم ، لقد كان تأثيرها كمن اكتشف مشروبا جديدا فى فترة بدت فيها الحياة طويلة ومملة ، فى نهاية هذه التجربة المسرحية عبرت عن نفسي فى انفعال مازلت أحسه قلت : الروائي يعمل وحده ، ويكون محظوظا لو وجد مخلوقا يمكن أن يناقش معه قضية تتعلق بالفن الروائى أو ترصد رد فعل جملة صعبة ، حتى كاتب السيناريو ، فانه يعمل مع رجل واحد هو المخرج ، وما أن ينتهى السيناريو حتى يستبعد من عملية الخلق إلا إذا نشأت مشكلة فى الاستديو واحتاجوه لاعادة كتابة مشهد ، فينتشل من النسيان ، ويشهد بذهول عمله وقد تقطعت أوصاله ، ويحدق فى أسطر كأنها ليست له ، يركبه إحساس بالذنب لأنه هو المتفرج الوحيد الذى يعرف ما الذى كتبه ، وما آل إليه الأمر ،

مثله كالرجل الذى شاهد جريمة ويخاف من الكلام وهو فى الواقع شريك فى الجريمة .

بالطبع هناك لحظات من المتعة الكبيرة فى تعلم صنعة جديدة ، ككتابة الأفلام ، لكن دهشة الخلق رهينة بالفكرة الأولى ، التى خططت على غداء عمل ، وتفقد قيمتها عند اعادة الكتابة ثم المعالجة الأولى والثانية والثالثة ، شاشة السينما ليست كصفحة الفولسكاب تختبر عليها الفكرة ، ولا كخشبة المسرح حين يسمع المؤلف أسطره تدب فيها

الحياة ، حين تلقى الكلمات فى الاستديو لا يكون المؤلف هناك لينقد ويغير ، كما أن هناك يدا أخرى تلعب فى عمله .

تجربتى الخاصة فى السينما كانت تجربة سعيدة ومحظوظة ، ومع ذلك فكم شعرت بالراحة حين عدت لعمل الرجل الواحد لكتابة الرواية ، إلى خصوصية الغرفة التى تتحمل فيها المسئولية الكاملة عن النجاح أو الفشل . ولكن تبقى حقيقة وهى على المرء أن يجرب كل مشروب مرة واحدة على الأقل ، وتخيلت أن كتابة الفيلم وكتابة المسرحية متشابهان ، فرغم أن المؤلف لا يستبعد من البروفات فى السينما فإنه يكون غير مرغوب فيه يتوارى خجلا فى الاستديو ، وحتى حين يسمح لك باختراق عالم الاستديو فكأنك دخلت مصنعا أنت قليل الخبرة بما يجرى فيه ، اشارات ، أضواء ، أجراس ، مصفقين ، أثاث وديكورات ، ولم أكن قد جربت دفء ومتعة وألفة المسرح . وفوق ذلك لم أكن أدرك أن فعل الخلق يستمر طويلا كما فى الرواية منذ المسودة الأولى للمسرحية وفى البروفات وحتى فى الأسابيع الأولى من الافتتاح .

من أجل فعل الخلق هذا يعيش المؤلف ، وحين ينتهى تصبح الساعات فارغة ، ويدق جرس الهاتف نادرا ، ويتساءل المؤلف ألم يكن من الممكن تأخير الافتتاح قليلا من اجل استمرار المتعة ؟ افترض أن كل مؤلف يمر بهذا الإحساس ولذا فهو يكتب مسرحية أخرى . هناك اثارة الاستحسان ، نجاح واحباطات فريق التمثيل ، الاهتمام القاسى بالالقاء والصوت حتى يصبح كل سطر ثقيلا حتى الإرهاق ، القراءة الأولى من الفريق كاملا ، الاجتماعات والتعديلات مع شرب القهوة ، بهجة العمل مع ممثلين لا يهتمون فقط بأدوارهم بل فى المسرحية ككل (فى الفيلم بالكاد يعرف الممثل ما يحدث فى المشهد الذى لا يشترك فيه) ، حوالى دستة من العقول الحية الواعية تقترح وتنتقد .

يخبو كل ذلك ببطء ، حين تطفأ الأنوار ليرى الجمهور العرض لأول مرة ، لا يعرف شيئا عن موضوع المسرحية بعد ولم يعمل فيها صباحا وظهرا ومساء لعدة أسابيع ، ورد فعله مشروط بالتأثير اللحظى لما يراه ، ليكتشف المرء الضحكات المفاجئة فى الأماكن غير المتوقعة ، الضحك

مشروع ولكن المؤلف يكون مفرط الحساسية ، لحظات النجاح والفشل ، ويحبط المؤلف لليلة واحدة ، وكم هو ممتع احساسه وهو يشطب هذا السطر هنا ويغير ذلك الفعل هناك ، ويعود إلى المسرح فى الليلة التالية ليرى أثر تعديلاته ـ فى الرواية لا يوجد شىء كهذا ـ .

أى قادم جديد إلى عالم المسرح ، مهما كان ، يكون سعيدا وسط المقاعد الخالية أثناء البروفات ، من الملاحظات التى تقال ، فى البار وفى غرف الملابس ، أن المسرح يقدم تجربة مثيرة غريبة لا تقدمها السينما أبدا ، مثلا شجار فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل مع مربى ثيران مسابقات ، جلسة طويلة مع غريب متحمس للمسرحية ، اكتشف بعد فترة انه تنقل بين أربع مصحات عقلية هرب من آخرها (قطعت محادثتنا ونحن جلوس فى صالة الفندق بوصول الحراس) ، هذه فيما أعتقد التجربة الحية لكل يوم والتى تجعلك تستمر فى الكتابة للمسرح .

لقد جربت مشروبا جديدا ، واحببت نكهته ، وكم رغبت الا يفرغ منه كأسى أبدا . وهكذا تقدمت إلى البار لأطلب كأسا أخرى بعد الأولى مباشرة .

لم يكن فى ذهنى فكرة مسرحية تلح على ، لكنى تعمدت أخذ احدى رواياتى التى تخليت عنها ولم أكملها (كتبت فيها بضعة آلاف من الكلمات سنة ١٩٤٦) ، وولفت مسرحية « العشة » سنة ١٩٥٨ ، كل مااستطيع قوله بخصوصها ، انى عشقت الفصل الأول ، لكن اتضح لى أن موضوعها جامح صعب المراس ، وقد وضحت صعوبة التعامل مع الفصل الأخير أثناء انتاجها فى امريكا ، حيث أعدت كتابة المشهد الأخير أثناء البروفات دون اقتناع ، وعند اخراجها فى لندن عدت إلى الأصل بعدم اقتناع مشابه ، وأعتقد أن اعتراضى الرئيسى على المسرحية كان بسبب نقص وحدة الحدث حسب التعبير الأرسطى . أكثر من مخرج قابلته وقال لى « أكتب ما تريد من الفصول أو عدد المشاهد . تعامل مع المسرحية بحرية كالفيلم . فإن عملى هو أن أجد طريقا لاخراجها على المسرح » .

ولكنى لا أريد مسرحية مخرج ، أريد مسرحية مؤلف . ان الأثر الذى

تتركه كتابة رواية جيدة ، يعيش المؤلف معها سنوات بنفس كئيبة متوترة . يكون مدمرا . وكنت دوما أبحث عن الراحة بكتابة روايات التسلية ، فالميلودراما والفارس تعبران عن مزاج مهووس ، وهكذا فى مسرحيتى الثالثة « العاشق اللطيف » سنة ١٩٥٩ والتى كتبتها هروبا إلى الراحة بعد كتابة رواية ، وجدت حين وصلت النهاية أن مزاجى الكئيب ومزاجى المهووس قد طبعا المسرحية بطابعهما ، وذلك ما يجعلنى استشعر المتعة فى الكتابة ، فأنا لا اكتب إلا إذا كان هناك صراع فى مشاعرى بين مزاجين على الأقل . هبطت على المسرحية فجأة فى يوم ربيع وأنا فى الريف ، وسارت بسرعة الحلم ، وبعد أربعة أشهر كان الافتتاح .

بعد ذلك ، حين كانت مسرحيتى « نحت تمثال » سنة ١٩٦٤ تناضل امام كل العقبات المعتادة لتظهر على المسرح ، أسفت على الوقت ، فقد بدا ان الولادة الجديدة ما هى إلا إجهاض .

لم أعرف من قبل مسرحية معذبة فى كتابتها ومتعبة فى اخراجها مثل « نحت تمثال » ، وكنت سعيدا برؤية نهايتها ، وشاكرا لكل النقاد الذين عجلوا بتلك النهاية ، ففى سن الستين لا يوجد سبب يجعلك تستمر فى العمل إلا كسب القوت أو المتعة ، وهذه المسرحية لم تكن متعة ، ثم أنى لى وسائل أخرى لكسب القوت .

على كل حال ، فإن الأخطاء التى وجدها النقاد فى المسرحية كانت ويا للعجب غير الأخطاء التى وجدتها ، وهى أخطاء من الصعب الدفاع عنها ، وليعفنى القارىء من ذكرها .

بالنسبة لما قاله النقاد فقد اتهمونى بأن المسرحية محملة بالرموز ، لكنى لا أحفل كثيرا بالرموز ، ولا أتبين أى رموز فى هذه المسرحية ، هناك أحيانا تداع للأفكار فهمه الناقد خطأ على انه رمز ، وكما عرفت من تجربتى الخاصة كمراجع للمسرحيات ، فإن الإستخدام الصحيح للكلمات صعب حين يكتب المرء ضد الزمن .

اذكر حين نال فيلمى « الرجل الثالث » حظا من النجاح ، تصدى ناقد متفيقه لشرح رموز الفيلم بتبجح فى مجلة شهرية ، اسم هارى لايم فى الفيلم أرجعه إلى فقرة عن شجرة الليمون فى كتاب جيمس فريزر

« الغصن الذهبي » ، الإسم المسيحي للشخصية الرئيسية « هولي » يبدو بوضوح مرتبطا بالكريسماس ، وهكذا في رأيه أن الوثنية والمسيحية تشتركان وترتبطان في رقصة رمزية .

والحقيقة أني أردت أن اسمي البطل الوغد في الفيلم باسم طبيعي وغير مقبول ، ووجدت أن اسم لايم قد يشير إلى الجير الحي الذي قيل أن المجرمين يدفنون فيه ، توارد خواطر وليس رمزا كما ادعى الناقد .

بالنسبة لهولي ، فقد كنت قد اسميته « رولو » ، لكن جوزيف كوتن لم يعجبه الاسم ، فغيرته ، لا رمز ولا يحزنون .

بعض النقاد ، ولأن كلمة الله تتردد في المسرحية على نحو غير متوقع ، فقد ظنوا أن المسرحية تدور حول ذلك الشيء المرعب « علم الدين » ، كتب اللاهوت أو علم الدين هي الكتب الفلسفية الوحيدة التي استمتع بقراءتها ، ولو فتح أحد هؤلاء النقاد كتابا في اللاهوت لأدركوا بسرعة انه لا يوجد شيء لاهوتي في هذه المسرحية .

عم كانت هذه المسرحية إذن ؟

كنت أعتقد دائما أن الفارس والمأساة أكثر قربا من بعضهما من الكوميديا والتراجيديا . مسرحية « نحت تمثال » كانت بالنسبة لي مباراة بين مزاجين مختلفين كما في مسرحية « العاشق اللطيف » ، الفصل الأول كله تقريبا فارس ، فالنحات شخصية استوحيتها من بنيامين هايدون الذي كان محسوسا بالرغبة في انجاز موضوعات انجيلية ضخمة ، والتي كانت في أيامه موضة قديمة ، وانت لا تستطيع قراءة يومياته دون أن تدرك ان به مس حقيقي ، وأن ليس لديه موهبة على الاطلاق . كان شخصية فارسية رغم ان نهايته مأساوية .

في مسرحيتي ، فقد النحات حتى نهايته المأساوية ، لم يكن أحد ليستطيع بعثرة حلمه ودفعه إلى الانتحار . كانت لديه قدرة على الشفاء اكثر من هايدون ، لكن للأسف فإن الممثل الذي قام بالدور كانت له وجهة نظر في المسرحية تخالف ما أراه ، كان يظن انه يمثل ابسن .

فكرت وقتها في عدم العودة لكتابة المسرحية أبدا ، قلت انها لا تساوي شروى نقير ، كنت مخطئا بالطبع ، فقد مثلت فرقة شكسبير الملكية

مسرحيتى « عودة رافلز » سنة ١٩٧٥ ، ووجدت ثانية تلك المتعة أثناء البروفات ، وأنا الآن أكتب هذه الكلمات أثناء استراحة بين البروفات لفارس اسميتها « لن تدق الاجراس » .

ان مصير المسرحية لا يهمنى ، لكن متعة سماع الكلمة المنطوقة ، والشطب والتغيير والتعديل ، متعة العمل مع فريق ، الهروب من الوحدة .. ذلك كل شيء .

* * *

٢

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ، طلب منى صديقى المخرج البرازيلى البرتو كافالكانتى أن أكتب فيلما له ، فكرت فى كتابة كوميديا عن المخابرات مبنية على خبرتى فى سنوات ٤٣ و١٩٤٤ عن النشاط الألمانى فى البرتغال ، فبعد رجوعى من فريتاون بجهودى التى لم تثمر فى مطاردة العملاء فى مستعمرات حكومة فيشى ، عينت فى أحد فروع قسم كيم فيلبي لمخابراتنا السرية ، وهو فرع يتعامل مع التجسس المضاد فى شبه الجزيرة الايبرية ، وكانت البرتغال مسئوليتى . كان هناك عدد من الضباط الألمان الذين لم تستملهم مخابراتنا ، يقضون كثيرا من وقتهم بإرسال تقارير خاطئة بالكامل إلى ألمانيا ، مبنية على معلومات استقيت من عملاء خياليين . لعبة للحصول على نقود مأمونة ، حيث تضاف تكاليف هذه التقارير ومكافآتها إلى المرتب . كان حظ الحكومة الألمانية فى هبوط ، ومن المدهش ملاحظة تغيير معايير الشرف فى جو الهزيمة .

وكنت أفكر أحيانا ، كيف كان يمكننى بسهولة أن ألعب دورا مشابها فى افريقيا الغربية لو لم أكن قانعا بمرتبى المتواضع ، فقد تعلمت انه لا شيء يسر رجال المخابرات فى الوطن أكثر من اضافة معلومة إلى ملفاتهم ، فقد حدث أن أرسل أحد العملاء تقريرا عن مطار تابع لحكومة فيشى فى غيانا الفرنسية ، كان هذا العميل أميا ولا يعرف العد لأكثر من

عشرة وهى عدد أصابع يديه ، كما كان لا يعرف من الإتجاهات الأصلية سوى الشرق ، أرسل يقول ان مبنى المطار يحتوى على دبابة ، بينما أعرف من شواهد كثيرة ان المبنى مخزن للأحذية القديمة ، وأكدت عدم أهلية العميل ، ولكنى دهشت حين تلقيت علاوة بسبب تقريره الذى وصف بأنه « مهم للغاية » . كانت الجهة المنافسة لنا فى المخابرات هى اس . أو . أى ولم يكن لدى اقتناع فى تقاريرها أو تقاريرنا ، فهى تأتى من المصادر المشابهة ، وكل ما يهمهم فى لندن هو إضافة سطر أو سطرين لملفاتهم .

وهكذا فإن تجربتى فى فريتاون ، والتى فكرت فيها وأنا فى وضع أكثر راحة فى سانت جيمس ، الهمتنى فكرة أصبحت بعد ١٢ عاما سنة ١٩٥٨ رواية « رجلنا فى هافانا » .

الفكرة الأولى للرواية ، دونتها فى الأربعينات على شكل رءوس أفلام فى ورقة واحدة ، كانت أحداثها تدور فى استونيا سنة ١٩٣٨ ، فكان معقول للتجسس ، وكان اسراف زوجة العميل هو الذى دفعه لخداع مخابراته ، كان شخصية مسلوبة العقل أكثر من بطل « رجلنا فى هافانا » كما كان أقل براءة منه ، وبإقتراب الحرب سنة ١٩٣٩ بدأ الأعداء والبوليس المحلى يعاملونه بجدية أكثر .

قبل أن نبدأ العمل فى الفيلم ، أخبرنى كالفاكانتى انه لا بد من ضوء أخضر من الرقيب على الموضوع ، بعد ذلك قال انهم رفضوا إعطاء ترخيص لفيلم يسخر من المخابرات ، ربما كان يخترع عذرا لأن الموضوع لم يعجبه .

وبقيت القصة فى خلفية ذهنى ، تخضع لعمليات الانتقاد الذى يقوم به اللا شعور ، فى الوقت الذى قمت فيه بزيارة هافانا عدة مرات فى أوائل الخمسينات .

استمتعت بمدينة هافانا تحت حكم باتستا ديكتاتور كوبا أنذاك ، لكنى لم أمكث فترة تسمح لى أن أتنبه للحكم البوليسى الاستبدادى لباتستا والتعذيب والسجن الذى يمارسه ضد مواطنيه ، كنت أذهب فى اجازات من أجل مطعم فلوريدتا المشهور بخموره وأسماكه ، ولحياة

الدعارة ، ولعبة الروليت فى كل فندق ، ولآلات اللعب التى تلقى إليك بدولارات فضية إذا كسبت ، وللتفرج على مسرح شنغهاى حيث يمكنك بدولار وربع أن تشاهد عرضا حيا كاملا للعرى والفحش الخالص مع عرض أقذر افلام الجنس فى الاستراحات ، كما تجد فى ردهة المسرح مكتبة تبيع الكتب والصور العارية للشباب الذى مل من الفرجة فى الكاباريه .

وفجأة ضربتنى الفكرة ، انه فى هذه المدينة غير العادية ، حيث ترتكب كل رذيلة ، ويباع ويشترى كل شيء ، تكمن خلفية روايتى الساخرة ، وأدركت انى فى تصورى السابق للرواية كنت أخطط لموقف خاطىء فى المكان والزمان الخطأ ، فقبل الحرب الثانية مباشرة لم يكن الوقت يسمح بسخرية من ذلك النوع ، فالقارىء لن يتعاطف مع رجل يخون وطنه فى أيام هتلر من أجل زوجة مسرفة . ولكن فى هافانا الخرافية وسط عبيثة الحرب الباردة ، هناك موقف يسمح بالكوميديا ، وكل ما على أن أغيره هو اسراف الإبنة بدلا من اسراف الزوجة .

من الغريب انى وأنا أخطط للرواية ، عرفت لأول مرة بعض الحقائق عن كوبا باتستا . فحتى ذلك الحين لم أكن تحدثت مع كوبيين ، ولم اسافر داخل البلاد ، عندما بدأت القصة تبزغ فى ذهنى ، بدأت أتدارك بعضا من جهلى ، اتخذت أصدقاء كوبيين ، واستأجرت عربة بسائقها ليتجول بى فى الريف ، كان السائق رجلا متطيرا ، عرفت ذلك منذ اليوم الأول حين داس دجاجة فقتلها ، وبدأ يخبرنى برموز الحظ ، قال لقد قتلنا دجاجة فيجب أن نراهن على رقم كذا وكذا ، هذا هو بديل الأمل فى كوبا التى بلا أمل آنذاك .

كان هذا السائق كوبيا أصيلا وكأن القدر قد ساقه ليقدم لنا شخصية كوبية نموذجية ، استأجرته منذ سنتين أو ثلاث لعدة أيام ليتجول بى فى هافانا ، كنت مع صديق وفكرت فى آخر يوم أن نجرب شيئا جديدا ، كنا فى مسرح شنغهاى ، وشاهدنا عرض السوبرمان مع فتاة خلاسية بلا اهتمام ، خسرنا قليلا فى لعبة الروليت ، تناولنا طعامنا فى مطعم فلوريديتا ، ودخنا الماريجوانا ، وشاهدنا عرضا للسحاقيات فى

البلومون ، وفي النهاية طلبنا من السائق أن يزودنا ببعض الكوكايين إذا استطاع ، وبدا انه لا شيء أسهل من ذلك ، وقف قرب بائع صحف ، وعاد بورقة مبرومة تحتوى على مسحوق أبيض ، وكان الثمن خمسة شلنات ، صدمني رخص السعر وشككني .

استلقينا على أسرتنا ، وشممنا وشممنا ، عطسنا مرة أو اثنتين ، قلت لرفيقي : هل تشعر بشيء ؟

قال : أبدا .

وشممنا ثانية ، لا تقدم .

كنت شكاكا أكثر من صديقي ، فاقتنعت على الفور أن الرجل باعنا ـ فيما يبدو الآن سعرا باهظا ـ بعض مسحوق حمض البوريك .

في اليوم التالي ، أخبرت السائق فانكر ، ومرت السنوات ، حين رجعت إلى هافانا سنة ١٩٥٧ بحثت عنه في كل الأماكن التي يتجمع فيها السائقون ، وتركت رسائل له دون فائدة ، استأجرت عددا من المتطوعين للبحث عنه ـ كانت البطالة متفشية بنسبة كبيرة بسبب قنابل كاسترو الليلة التي أبعدت السياح عن كوبا ـ كنت أعرف أن الرجل مخادع ومحتال لكنه دليل جيد للأماكن الخفية في هافانا ، ولم تكن لدى الرغبة في استئجار رجل أمين وممل ليكون رفيقي اليومي في رحلة طويلة كهذه . وذات ليلة ، حين نفد صبري في امكانية العثور عليه وفكرت في البحث عن سائق ، ذهبت إلى مسرح شنغهاي ، وأثناء خروجي إلى الشارع القذر ، كانت بعض عربات الأجرة تقف قرب المسرح ، وتقدم مني أحد السائقين قائلا : يجب أن أعتذر إليك يا سيدي .. كان الحق معك .. انه مسحوق حامض البوريك .. لقد خدعت أنا أيضا .. إنه بائع الجرائد الملعون .. شخص محتال يا سنيور .. لقد وثقت به .. أتسمح أن أعيد لك الشلنات الخمسة .

لم أره بعد ذلك في زياراتي التالية ، لقد حقق أرباحا أكثر مما خسر ، فقد كان كل مطعم وكل فندق وكل مقصف يدفع له عمولته ، ربما فضل التقاعد معتمدا على ما جناه .

مكان واحد في كوبا كنت لا أستطيع الذهاب إليه ، سانتياجو المدينة

الثانية فى الجزيرة حيث مقر قيادة العمليات العسكرية ضد كاسترو ، الذى أقام نقاط حراسة متقدمة على الجبال بالرجال القلة الذين معه . كانت بداية فترة البطولة ، فالمقاطعة الشرقية حتى آخر رجل فيها وامرأة وطفل (أقول طفلا) كانوا مع فيدل كاسترو . كانت الحواجز العسكرية تحيط بعاصمة المقاطعة ، وكل غريب يصل المدينة كان موضع شك . وهناك منع تجول غير رسمى يبدأ فى التاسعة مساء ، ومن الخطورة تجاهله ، كانت هناك اعتقالات اعتباطية وبالشبهة ، وغالبا ما تجد جثة رجل متدلية من أحد أعمدة الاضاءة عند بزوغ النهار ، وكان ينظر للضحية بأنها محظوظة ، فهناك من يعذبون فى بناية ذات سمعة سيئة تسمع صرخاتهم صادرة منها فى الشارع الخارجى ، بعد سقوط سانتياجو بأيدى قوات كاسترو ، وجد مخبأ مملوء بالجثث خارج حدود المدينة . قبل ذلك بوقت قليل ، قام سفير الولايات المتحدة المؤيدة لباتستا بزيارة لسانتياجو ، واستقبله عمدتها ، وقامت أثناء ذلك مظاهرة مفاجئة مرتجلة نظمت بسرعة البرق ، ولم يتوقعها نظام الرعب ، ضمت فئات من مختلف الطبقات ، نساء ورجال من الطبقة المتوسطة ومن الفلاحين إلتحموا جميعا فى انشاد للأغانى الكوبية الوطنية فى وجه السفير الأمريكى الذى كان يشاهد ذلك من شرفة دار البلدية . كانت هذه فترة التمرد الوطنى . أمرت القوات العسكرية النساء بالتفرق ، فرفضن ، وبدأت الشرطة تفرقهن بالقوة وبخراطيم الحريق ، فأنهى السفير الحفل وغادر قائلا : انه لن يقف هناك يتفرج على الاعتداء على النساء . ولهذا السبب وبخه بعد ذلك جون فوستر دالاس لأنه خرق الحيادية التى يجب أن يتصف بها ، ففى نظر الولايات المتحدة فإن الارهاب لا يكون ارهابا إلا إذا جاء من اليسار .

فى حفل كوكتيل فى هافانا بعد ذلك ، ورد ذكر موقف السفير الأمريكى أثناء حديثى مع السفير الأسبانى الذى قال :

ـ كان تصرفه غير دبلوماسى .

قلت : لو كنت مكانه .. ماذا كان يمكنك أن تفعل .

قال : كنت أدرت ظهرى فقط .

كانت الطريقة الوحيدة للذهاب إلى سانتياجو هي طريق الجو ، ليلة ما قبل السفر سهرت لوقت متأخر في حفلة مع بعض الأصدقاء الكوبيين ، جميعهم من الطبقة المتوسطة ومؤيدون لفيدل كاسترو ، وكانت بينهم امرأة شابة سبق إن اعتقلها وعذبها رئيس شرطة باتستا سيىء السمعة الكابتن فنتورا ، كما كانت هناك فتاة أخرى زعمت انها مراسلة لكاسترو ، سافرت معنا على الطائرة وطلبت مني أن أحمل في حقيبتي بعض « السويترات » والجوارب الثقيلة لرجال كاسترو في الجبال لأنهم في أمس الحاجة إليها . في سانتياجو كانت الحرارة استوائية ، وكانوا يفتشون الحقائب في المطار ، لكن من السهل على الأجنبي تفسير حمله للملابس الشتوية . كانت الفتاة قلقة على ، من مقابلتي لأعوان كاسترو في سانتياجو ، لأن المدينة مملوءة بجواسيس باتستا خاصة الفندق الذى سأنزل فيه .

وهكذا بدأت كوميديا الأخطاء ، بشكل عبثي كأي شيء وصفته بعد ذلك في رواية « رجلنا في هافانا » ، في صباح اليوم التالى اتصل بى مراسل مجلة تايم الأمريكية ، أعطته مجلته تعليمات باصطحابي إلى سانتياجو لمساعدتي في أي شيء أطلبه ، لم أكن أريد أية مساعدة لكن صحيفته ظنت انى قد أزوده بعدد من الأخبار بطريقة أو بأخرى . كان يجب أن أتصل بالفتاة لأحذرها بأني لست وحدى ، ولسوء الحظ لم أعرف اسمها أو عنوانها ولا حتى مضيفتي في الليلة الماضية كان يعرف . وحين قادني إلى المطار ، سألته ، فغادرني ، وانتظرته في البار ، رجع بتعليمات انه لا يجب أن أعرفها وإنها ستكلمني في الفندق في الصباح .

كان الفندق في أحد أطراف الميدان الرئيسي الصغير في سانتياجو ، بجانبه كاتدرائية تصطف على جانبها الحوانيت ، وأمامه تقف عربتا أجرة وعربة يجرها حصان ، ويبدو عليهم أنهم فقدوا الأمل في الزبائن ، فلا أحد يأتي إلى سانتياجو الآن ، ربما الجواسيس الذين حذرت منهم . كانت الليلة حارة ورطبة والساعة تقترب من موعد حظر التجول غير الرسمي ، ولا يبدو على موظف الاستقبال في الفندق انه استقبل أى غرباء . مرت زمرة من الجنود ، ورجل يرتدى بذلة بيضاء قذرة رثة ،

يؤرجح نفسه على كرسي في الصالة ، ورائحة الشرطة تغطي سماء المدينة ، عدت إلى ما تخيله نقادى بأرض جرين .

بينما كنت أتناول افطارى فى الصباح ، دق شخص باب غرفتي ، كان مراسل مجلة تايم يصحبه رجل فى منتصف العمر يرتدى بدلة « ڤفردين » أنيقة وعلى شفتيه ابتسامة رجل أعمال ، قدمه لى على انه رجل كاسترو للعلاقات العامة فى سانتياجو ، وكان يبدو انه يفصله عن الفدائيين فى الجبال عالم بحاله . ارتبكت لأنى أتوقع مكالمة الفتاة فى أية لحظة ، طلبت منهما أن يعودا بعد أن أرتدى ملابسي ، لكن واصل المراسل حديثه ودق جرس التليفون .

كنت مقتنعا آنذاك بخطورة الجواسيس ، فطلبت منهم مغادرة الغرفة حتى أجيب على التليفون ، فخرجا على مضض . كانت المكالمة من الفتاة التى طلبت منى موافاتها فى رقم معين فى شارع كال سان فرنشسسكو .

عاد مستر س إلى الغرفة وقال انه مقتنع انى كنت أتحدث مع أحد عملاء باتستا وطلب أن يعرف ما الذى قيل لى فى التليفون ، انزعجت ، لم اطلب من أحد أن يورطني فى هذا الأمر ولا أريد ان أتورط ، قلت له انى أعتقد انه هو نفسه عميل لباتستا . وكان مأزقا ، لكنه غادر الغرفة .

وأضحت المشكلة فى كيفية العثور على العنوان الذى أخذته من الفتاة ، كنت خائفا حتى من سؤال موظف الفندق ، خرجت إلى الميدان وركبت احدى سيارات الأجرة وقبل أن أتلفظ بكلمة لسائقها ، اندفع يجلس إلى جواره زنجى يرتدى ملابس براقة ، قال « أنا أتحدث الانجليزية .. سأرشدك إلى أى مكان تريده » . إذا كان هناك من مخبر هنا ، فهو هذا الرجل .

قلت « أريد أن أرى المدينة .. المناطق التى تثير الاهتمام » . وانطلقنا نهبط الشارع إلى الميناء ، ونصعده إلى النصب التذكارى للبحارة الأمريكيين الذين قتلوا فى الحرب الأسبانية الأمريكية ، دار البلدية ، وتوقعت أن أعود إلى الفندق ثانية إلا إذا وجدت عذرا .

سألت : أعندكم كنيسة قديمة اسمها سان فرنشسكو إذا وجدت مثل هذه الكنيسة فستكون فى الشارع الذى يحمل اسمها . وصح

استنتاجى ، هناك كنيسة قديمة فى الشارع، الذى أريده.

قلت لمرشدى : أريد أن أصلى .. سأعود إلى الفندق وحدى سأعرف الطريق .

وأنا أسير داخل الرواق المسقوف للكنيسة استوقفنى قسيس بشك وعدوانية ، شرحت له بصعوبة أن كل ما أحتاجه فترة قصيرة من الوقت حتى تختفى السيارة والزنجى عن الأنظار .

بعد ذلك بدأت سيرى فى شارع كال سان فرنشسكو تحت شمس الظهيرة الحارة . كان الشارع طويلا جدا ، والعنوان الذى أريده فى الطرف البعيد ، كنت قد قطعت نصف المسافة حين توقفت بقربى سيارة ، كان بها مراسل التايم ومستر س .

قال مستر س : لقد كنا نبحث عنك فى كل مكان . كنت أفكر فى تفسير أقوله عن سيرى فى هذا الشارع اللامتناه تحت الشمس الحارقة . لكنه قال :

ـ كله تمام .. اكتشفت أن منظمتى هى التى اتصلت بك . وهكذا أكملت الرحلة مستريحا . وصلنا البيت الذى كانت تملكه عائلة برجوازية ثرية فى سانتياجو ، وجدنا هناك الفتاة المراسلة وأمها وقسيسا وشابا يصبغ حلاق شعره ، كان الشاب محاميا يدعى ارمندوهارت وهو الذى أصبح فيما بعد وزير التعليم فى حكومة كاسترو ، ثم السكرتير الثانى للحزب الشيوعى الكوبى ، وكان قد هرب من حراسه وهم يقودونه إلى المحكمة تحت حراسة عسكرية ، قبل أيام قليلة . كان يسير فى طابور من المساقين إلى المحكمة يحرسه الجنود من الأمام والخلف ، وعند عطفة معينة فى الطريق حيث يختفى جزء من الطابور عن أعين الجند فى الأمام والخلف ، تسلل إلى المراحيض العامة القريبة من المكان ، ومن نافذة داخلها خرج إلى زملائه الذين كانوا ينتظرونه فى شارع خلفى ، لم يلاحظ أحد غيابه إلا حين نودى على اسمه فى المحكمة . كانت زوجته معه فى البيت ، تعرفها كل أمريكا اللاتينية ، الآن باسم هايدى سانتا ماريا ، امرأة شابة بدت منهكة فى تلك الأيام كما لوانها سحقت من الأحداث التى جرت لها وخارجة عن ارادتها . قبل زواجها من هارت خطبت إلى

شاب قبض عليه بعد هجوم فاشل على ثكنات مونكادا فى سانتياجو سنة ١٩٥٣ ، أخذت إلى السجن لترى جثته بعد أن أعموه وأخصوه (تذكرت تلك القصة حين حدثتنى زوجة السفير الأسبانى عن سحر باتستا الاجتماعى) .

على كل حال ذلك تاريخ قديم ، كان كل ما يهتمون به الآن هو الطائرات النفاثة التى ستبيعها بريطانيا إلى باتستا ، كانت لديهم معلومات حول ذلك وعند عودتى ، حين تقدم نائب عمالى فى مجلس العموم بسؤال حول حقيقة الموضوع ، أكد مستر سلونى لويد وزير الخارجية انه لا أسلحة تباع إلى باتستا ، ولكن بعد أشهر قليلة ، وقبل دخول كاسترو هافانا بأسبوع أو اثنين ، اعترف وزير الخارجية بأن تصريح بيع الطائرات لباتستا قد منح ، وأن وقت اعطاء هذا التصريح لم يكن لديه معلومات أن الحرب الأهلية تتزايد فى كوبا .

وللعلم كان هناك الكثير من الشواهد على تلك الحرب الأهلية ، ففى الليلة التالية لوصولى أعتقلت السلطات ثلاث اخوات تتراوح أعمارهن بين الثامنة والعاشرة من منزلهن فى منتصف الليل ، لأن والدهن هرب وإلتحق بقوات كاسترو فى الجبال ، وهكذا أخذن رهائن فى ملابس نومهن إلى الثكنات العسكرية . فى الصباح رأيت ثورة الأطفال حين وصلت أخبار اعتقال الفتيات إلى المدارس ، اتخذ التلاميذ قرارهم بأنفسهم ، تركوا مدارسهم وانطلقوا إلى الشوارع ، وانتشرت الأنباء ، وهرول الآباء للبحث عن أطفالهم وامتلأت الشوارع بهم ، وبدأت الحوانيت تقفل ابوابها توقعا للأسوأ . واستسلم الجيش لمطالب الطلبة ، وأطلق سراح البنات الثلاث ، لم يستخدموا خراطيم الحريق ضدهم كما فعلوا مع أمهاتهم ، أو يعلقوهم على أعمدة الانارة كما فعلوا بآبائهم . ما أدهشنى ان صحيفة التايم لم تذكر شيئا عن مظاهرة الأطفال مع أن مراسلها كان معى فى المدينة ، ربما لم يرس المراسل على بر ، هل هو مع باتستا أو مع كاسترو ؟ وماذا عن الحكومة البريطانية ؟ مازالت الحرب الأهلية غير مرئية فى نظر وزير الخارجية ، فى وقت زيارتى التالية لهافانا ، وهو وقت منح ترخيص تصدير الطائرات ، كانت شواهد الحرب الأهلية كافية

لدرجة كادت تحتجزنى فى هافانا ، ولم أستطع زيارة سانتياجو ، وفى الواقع لم أستطع البعد عن هافانا بأكثر من مائة كيلومتر ، ولا تجد سائقا يخاطر بسيارته ليقع فى كمين ، بل ان الطرق الرئيسية لم تكن آمنة .

فى ذلك الوقت كنت قد أنهيت روايتى « رجلنا فى هافانا » ، لم أسف على ما جاء فيها ، فقد بدا لى أن كلا من وزارة الخارجية أو المخابرات البريطانية تستحقان عن جدارة بعض السخرية ، لم يستقبل الكتاب بحماس من الحكام الجدد ، اعتبروا أن سخريتى من المخابرات البريطانية فى الرواية لفت للأنظار عن حقيقة حكم باتستا المرعب . لم أكن أريد خلفية سوداء جدا لرواية ساخرة ، لكن أولئك الذين عانوا سنوات من الحكم الديكتاتورى ، من الصعب أن يعجبوا بعمل موضوعه الرئيسى عبثية عميل للمخابرات وليس عدالة الثورة ، أو تروق لهم تبريراتى الجمالية فى تحويل شخصية ضابط متوحش كفنتورا إلى ضابط ساخر .

وكمعلومة تاريخية فإن كابتن فنتورا هرب من كوبا إلى جمهورية الدومينكان مهددا رئيسه بمسدس ، كان عزم باتستا أن يتركه وراءه كآخر قطرة فى الكأس تضحية للآلهة ، لكن فنتورا وصل إلى مطار هافانا وأرغم باتستا أن يلقى ببعض حقائبه ليفسح مكانا له ، وكانا يشكلان ثنائيا يتبادل الخوف والحذر فى فندق تريجيللو حيث كان فنتورا يقضى ساعات طويلة يلهو بآلات اللعب .

المهم ، العميل البريطانى وورمولد فى رواية « رجلنا فى هافانا » ، ليس له أصل واقعى أعرفه ، أما هوثورن ففيه القليل من شطحات ضابط مخابرات كان يوما رئيسى ، كذلك شخصية س والمونوكل الأسود لم تكن شخصية خيالية تماما ، ففيه شبه من الادميرال سنكلر الذى مات بسكتة قلبية عقب خروجه من الحمام .

* * *

٣

ذهبت إلى الكونغو البلجيكي فى يناير ١٩٥٩ ، بقصة تكونت فى ذهني عن طريق موقف : غريب يجد نفسه فى مستعمرة للمجذومين بغير سبب واضح . كقاعدة ، أنا لست من الكتاب الذين يدونون الملاحظات من أجل كتابة رواياتهم ، ماعدا كتب الرحلات ، ولكن فى هذه الحالة اضطررت لكتابة ملاحظات حتى تكون الخلفية الطبية دقيقة فى الرواية ، وحتى مع كتابة هذه الملاحظات يوما بعد يوم فى شكل يوميات ، فقد ارتكبت بعض الأخطاء ، صححها فى المراحل الأخيرة صديقى الدكتور ليشات ، طبيب المستوطنة . وبما اننى اضطررت لكتابة اليوميات ، فقد انتهزت الفرصة لأتحدث إلى نفسى بصوت مرتفع ، وأن أسجل بعض الحوارات والأحداث المتخيلة ، بعضها وجد طريقه إلى الرواية وبعضها طرحته جانبا . على كل حال سواء كان ذلك أفضل أو أسوأ ، فبهذه الطريقة بدأت رواية « حالة ميئوس منها » . بدأت كتابتها بعد عودتي من الكونغو بأربعة أشهر ، ولم تقابلنى رواية أكثر حرونة وأكثر كآبة من هذه الرواية . فالقارىء عليه أن يتحمل شخصية بطل الرواية الميئوس منها والمسماة كويرى لعدة ساعات من القراءة ، لكنى عشت معها وفيها لمدة ثمانية عشر شهرا . أما كيف نمت الرواية فى ذهنى فقد وصفتها بالكامل فى كتابى « بحثا عن شخصية » ، لكنى أسأل نفسى الآن وبعد مرور عدة سنوات على كتابتها : لماذا كنت أبحث عن شخصية كتلك بالذات ؟ أعتقد أن الأسباب تعود إلى الفترة التى تلت نشر روايتى « لب القضية » .

النجاح أخطر من الفشل ، ولاقت « لب القضية » نجاحا بكل معنى تلك الكلمة من النجاح الجماهيرى الشعبى ، وقلت لابد أن فيه شيئا ما فاسد ، لأن الكتاب يخاطب فى الغالب النواحى الضعيفة فى قارئه . لم أتلق فى حياتى رسائل من غرباء حول رواية ما .. قدر ما تلقيته فى هذه الرواية ، رسائل معظمها من نساء وقسس ، وكانت صدمة لى أن وجدتهم يعتبروننى كاتبا كاثوليكيا ، فى انجلترا وأوروبا وأمريكا ، وكان ذلك آخر ما كنت أحب أن يطلق علي .

كتب لى شاب من برلين الغربية يطالب منى أن أقود حملة صليبية من الشباب إلى المنطقة الشرقية لنضحى بدمائنا من أجل الكنيسة ، ولم أرد على تلك الرسالة لأنه كان من الصعب أن أوضح له أن التزامى فى تلك اللحظة لم يصل إلى درجة تضحيتى بدمى . وأرسلت لى امرأة شابة خطابا كتبته وهى مخمورة ، تدعونى لنزهة على قارب صيد هولندى وأرفقت صورتها ، وأخرى تكتب من سويسرا تقترح أن ألحق بها حيث يكون الثلج مخبوءا ، مشروع أقل جاذبية لى من موضوع التضحية بالدم . ثم قسيس فرنسى لاحقنى أولا برسائل من نوع لا يمكن أن يعنون إلا لقسيس اعترافات ، ثم جاء بعد ذلك لمقابلتى ، بل فاجأنى ذات مساء دون موعد فى زقاق فى أنا كابرى وأنا أهم بركوب الباص إلى كابرى مع عشيقتى ، مثيرا حوله زوبعة من الغبار بسبب ثوبه الكهنوتى الطويل الأسود .

وبدأت امرأة أمريكية تتصل بى عبر الأطلنطى فى الساعات المبكرة من الصباح طالبة منى الحضور لمساعدتها فى التغلب على صعوبات زواجها ، وقد استطاعت التغلب على مقاومتى ، فاصطحبت أعز صديقاتى وسافرت . كان بيتها فى نيوجرسى ، أثاثه انثوى طاغ ، ولديها خادمة سوداء متقطرسة ، مازالت تطفو بحيوية على سطح ذاكرتى ، كانت السيدة تنام فى منتصف النهار بمساعدة الحبوب المنومة ، مسدلة الستائر ، ومغطية عينيها بحاجبات الضوء ، مرتدية عباءة نوم قرنفلية . زيارتنا كانت بلا فائدة كما توقعنا ، الموت هو وحده القادر على انقاذها ، وقد أنقذها بعد ذلك بسنة بمساعدة الحبوب المنومة والشراب ، منبوذة من الجميع عدا أحد أصدقائها من الجزويت .

قد يبدو هذا الكلام قاسيا وخاليا من الإحساس ، لكنى فى السنوات التى تقع بين نشر « لب القضية » «» ونهاية المسألة » شعرت انى استخدمت وأنهكت من ضحايا الدين . رؤى الإيمان التى كانت تشعر المرء كأنه فى بحر هادىء ، ضاعت للأبد ، وأصبح الإيمان يشبه عاصفة ، والمحظوظ من يبتلعه البحر ويضيع ، وتعيس الحظ هو من ينجو ، ويلقى على الشاطىء ليعانى ويضرب حتى تسيل دماؤه ،

والأفضل من هذا وذاك هو من وجد له عملا بشق الأنفس على حافة ذلك البحر القاسى ، وانى مقتنع ان مجرى حياتى لا يؤهلنى بأن أعرض أى مساعدة ، ولم تكن رسالتى بابوية ، فأنا روائى وصرخات المناشدين بطلب المساعدة الروحية كادت تصيبنى بالجنون بسبب عجزى ، وأتساءل ما هو دور الكنيسة إذا لم يكن مساعدة هؤلاء الذين يعانون ؟ ولماذا وجد القسس ؟ كنت مثل رجل لا يعرف شيئا عن الطب فى قرية ضربها الطاعون .

أعتقد انه فى تلك السنوات ، ولدت شخصية كوارى ، والأب توماس أيضا فى روايتى « قضية ميئوس منها » .

لاحظت أن النقاد الكاثوليكيين والنقاد الماركسيين هم الأكثر ادراكا لمغزى الرواية من الآخرين . فنقدهم أقل ذاتية وأكثر موضوعية . لم أكن فى الواقع شخصية كاثوليكية مشهورة كما صورت كويرى فى الرواية ولا هجرت كنيستى وطريقة حياتى السابقة كما فعل ، والناقد الذى لم ير فى الرواية سوى صلبان قديمة مرسومة على بيض عيد الفصح (اشارة إلى اعتقاد كويرى الخراف) ، كان غارقا فى البحر أكثر من الناقد البولندى الذى رحب بالرواية على اعتبار انها اعادة بعث للكنيسة الكاثوليكية ، أما صديقى العزيز ايفلين وو فقد أدرك ان شخصية كويرى هى اعادة تصوير لشخصية الكاثوليكى العجوز فى قصتى القصيرة « زيارة إلى مورين » ، وأحزنته الرواية .

وكتبت إلى الصحيفة الشيوعية التى تناولت الكتاب ، أنى ككاثوليكى اعتبر نفسى قادرا على معالجة قضايا فقد الإيمان بحرية كاملة كمعالجتى لقضايا الإيمان ، وانى لو كنت كاتبا شيوعيا فى بلدة لصورت شخصية شيوعية مصابة بالجذام ، وطلبت منهم أن يحولوا مكافآتى عن الاقتباسات الكثيرة من روايتى ، لصالح ترميم كاتدرائية وارسو . كتب لى ايفلين وو قائلا « أعرف انه من الخطأ أن نقارن الشخصيات الخيالية فى رواية ما بمؤلفها ، لكن هذه الرواية قد أوضحت لى انك غضبت من اللقب الذى أطلق عليك بأنك كاتب كاثوليكى ، وأردت بروايتك أن تفند ذلك ، اعترف أن لى بعض الذنب فى اطلاق ذلك اللقب ، فمنذ ١٢ سنة كنت فى

جولة لالقاء عدد من المحاضرات هنا وفى أمريكا ، كانت تبحث عن تفسير جرىء لما اعتقدت بأمانة انه اهمال من الناس الذين صدموا بالمشاهد الجنسية فى رواياتك ، من رؤية الرسالة الدينية المتضمنة فيها . تصرفت فى الواقع كشخصية لايكر (شخصية منفرة فى الرواية) ، أنا آسف للازعاج الذى ساعدت فيه ، وكل أملى أن يكون مجرد ازعاج وأن شخصيات مثل مورين وكويرى هى شخصيات خيالية تماما وليس لها أية علاقة بمؤلفها .

وأجبت ايفلين وو بصراحة أكثر من الصراحة التى أجبت بها الناقد الشيوعى ، قلت له « مع كاتب أصيل وبعيد النظر مثلك ، لن أحاول التخفى وراء القول السائر بأنه لا يكن العثور على المؤلف فى شخصياته . فى الواقع أن بعض ردود فعل كويرى هى ردود فعلى ، بالضبط مثلما كانت بعض ردود فعل فولر فى الأمريكى الهادىء هى ردود فعلى . وأعتقد أن النقاط التى يلتقى فيها المؤلف مع شخصياته تؤدى إلى القوة والدفء فى التعبير ، كما أعتقد انه ليس بالضرورة أن تتوازى شخصية المؤلف مع الشخصية ، أو تكون النتائج التى نستخلصها من الشخصية تنطبق على المؤلف .

ففولر كان غيورا أكثر منى ، وكويرى كان رجلا أخشى أن يكون أفضل منى ، أردت أن أعبر عن حالات مختلفة من الإيمان وعدم الإيمان . فالطبيب الذى أحببته لشخصيته الواقعية يقدم نموذجا للشخصية الملحدة الراضية ، كما تقدم شخصية الأب سوبريور نموذجا للشخصية المؤمنة المطمئنة ، أما الأب توماس فهو يقدم نموذجا من الإيمان القلق المتقلقل ، بعكس شخصية كويرى التى تقدم نموذجا لعدم الإيمان القلق غير الثابت ، ولو تعمق المرء فى البحث لوجد جزءا من الأب توماس والطبيب فى شخصية المؤلف » .

وأجابنى ايفلين وو قائلا « لم أقصد القول انى صورة حرفية من شخصية لايكر ، لكننى أراه نموذجا لعدد من الأشخاص الذين تحبهم ، ووضعوك فى موقع وجدته بغيضا ، لقد ألمحت لنا كثيرا لكننا لم نفهم تلميحاتك ، والآن كتبت رأيك بوضوح ، لن تجد منا عداوة أو آسفا

بدرجة أسف براونتج على « قائده الضمائع » ، ولكن لا أعتقد ان بامكانك أن تلوم الذين يرون فى كتابك ارتدادا عن الدين .

وانى ارى أن تعبير شخصية ملحدة راضية لا معنى له ، لأن الملحد ينكر كل هدف لوجوده الذى هو عبادة وحب الله ، والنظرة السطحية هى التى ترى فى الملحد شخصية راضية . ان ارضهم الخراب غريبة عنى غرابة أطراف الكون السحيق (جملة متنفجة استخدمتها فى خطابى لوصف بعض المواقف الكاثوليكية) . ورددت عليه بقولى « أعود للنقاش مع ناقدى الشيوعى ، وأتساءل أيجب على الكاثوليكى ان يمتنع عن تصوير شخصية كاثوليكية مصابة بالجذام ؟ ثم إذا كان الناس بهذا الطيش كى يعتبروا هذه الرواية ارتدادا عن الايمان فماذا يمكننى أن افعل تجاه ذلك ؟ من المؤكد انهم سيدهشون حين يروننى أحضر قداسا .

وما كرهته فى بعض النقد الكاثوليكى ، خاصة بعض ما كتب فى فرنسا هو الخلط بين وظيفة الروائى ووظيفة المصلح الدينى . ومادمت استشهدت ببراونتج ، فاليك مقتطف من كتابه اعتذار القس بلو جرام :

كل ما جنيناه من عدم الإيمان
حياة شك مطعمة بالإيمان
فإيمان المرء مرصع بالشك
كرقعة الشطرنج بيضاء وسوداء

وشعرت أن النقاش اصبح حاميا وجادا ، كما أدهشتنى وصدمتنى اشارته إلى القاريء الضائع .. ألم أعتبره دائما قارئى ؟ ولأنهى المراسلات ، بعثت له ببطاقة عليها صورة بذيئة وكتبت « مع حبى - لميلتون وبيرنز وشيللى . وأحذرهم بأن ستيفن سبندر ودى لويس فى الطريق إليهم . وشكرا على كل ما فعلوه . من العبيد واللاحقين » .

أجاب بلطف « العمى فى عينيك . آمل لك صباحا سعيدا » . ومرت السحابة .

فى الواقع ، كان كل منا ، أنا وايفلين وو نقطن أرضا خرابا مختلفة . فأنا لا أجد شيئا غير متجانس فى الإلحاد حتى الإلحاد الماركسى . أرضى الخراب يقطنها سكان الضواحى الأتقياء الذين كتبت عنهم باهمال

شديد ، ولم أعن بالتقوى ، تقوى الناس البسطاء الذين يقبلون الله دون سؤال ، لكن تقوى المتعلمين الذين لديهم فكرتهم الدينية الخاصة عن الله ، الذين توقفوا عن البحث عنه ، لأنهم يعتبرون أنفسهم قد وجدوه ، من المؤكد أن « أونامونو » كان فى ذهنه هؤلاء حين كتب « أولئك الذين يعتقدون أنهم يؤمنون بالله ولكن دون أن يلمس الحب قلوبهم ، أو الشك عقولهم أو القلق تفكيرهم ، انهم يؤمنون بفكرة الله لا بالله نفسه » . لن أبحث عن شخصية كويرى فى تلك الأرض الخراب . لكننى أبحث عنهم وسط أولئك الذين يصفهم أونامونو « عقولهم أقوى من ارادتهم ، الذين يشعرون أنهم وقعوا فى قبضة العقل وأكرهوا على السير فى طريقه رغم أنفسهم ، فوقعوا فى اليأس الذى قادهم إلى الانكار ، ويتجلى الله فيهم ، مؤكدا وجوده بنكرانهم الشديد له » .

وشخصية كويرى مثل شخصية مورين ، كان الاثنان ضحية لعلم الدين ، قال مورين لمحاوره غير الكاثوليكى « الإنسان يمكنه أن يقبل كل شيء عن الله حتى يبدأ العلماء فى الدخول فى التفاصيل ، الإنسان يمكنه أن يتقبل فكرة الثالوث الأقدس (الأب والإبن والروح القدس) لكن النقاشات التى تتلو ذلك .. لا تحاول أبدا أن تحدد نقطة ما باستخدام نظامين مختلفين للحساب وبجدولين مختلفين فى الوقت نفسه .. آنذاك سينتهى بك المطاف بتكذيب علم الحساب . اعتدت أن أؤمن بالوحى والالهام ولكننى أبدا لم أومن بمقدرة العقل البشرى » .

لم أكن قد قرأت كتاب أونامونو « الحس المأساوي للحياة » حين كتبت قصتى القصيرة « زيارة إلى مورين » أو روايتى « حالة ميئوس منها » ، ولكن حين قرأت ذلك الكتاب وجدت عدم الثقة نفسها التى استشعرها مورين فى علوم الدين « الحل الدينى (الذى يقدمه الدين) لمشكلتنا الفريدة والحيوية ، مشكلة الخلود والخلاص الأبدى لروح الفرد ، يقنع رغباتنا ، ويرضي حياتنا ، لكن محاولة عقلنة ذلك بواسطة علوم الدين التى لا تملك الدليل ، لا تقنع العقل ، والعقل له ضروراته الملحة كتلك التى للحياة » . ومرة ثانية « تلك البراهين التقليدية على وجود الله كلها ترجع إلى ما يعرف بفكرة الله ، الاله المنطقى، المفهوم عبر

المجردات ، وهكذا فإن تلك البراهين لا تثبت سوى ذلك الوجود لفكرة الله ولا شيء غير ذلك » .

قبل ثلاثين سنة قرأت كتاب اونامونو « حياة وموت دون كيخوت » دون اهتمام خاص ، ولم يترك الكتاب فى ذاكرتى أثرا ، لكن ذلك الكتاب الذى نسيته بسرعة ، استمر يشق طريقه فى دروب اللاوعي ، وفى الحياة التى كنت واعيا انى أشق طريقى فيها من خلال حبى للمعرفة والدراسة فى علم اللاهوت ، وماذا كانت النتيجة : رواية « لب القضية » أزعجت اللاهوتيين الاخلاقيين ، نهاية المسألة ، وغرفة المعيشة والسقيفة تسببت فى اثارة القلق وسط أولئك الذين يعتنقون المذهب الذى اعتنقه ، وفى نهاية رحلة طويلة ، وبدون أن أعرف الطريق الذى أسير فيه ، وجدتنى اكتب « زيارة إلى مورين » ثم « حالة مينوس منها » لاقع فى تلك المنطقة التراجوكوميدية لعالم دون كيخوت حيث توقعت أن أقيم . حتى نقادى الماركسيون تشابهوا مع ايفلين وو فى انهم كانوا مهتمين جدا بالإيمان أو عدم الإيمان ، وفاتهم أن يلاحظوا الكوميديا التى تسرى فى الكتاب الأسود الذى كتبته .

* * *

٤

للأسف كان ذلك هو الجدل الأخير مع ايفلين وو ، جاءت وفاته سنة ١٩٦٦ مفاجئة دون انذار ، لم يكن موته موت كاتب أعجبت به منذ العشرينات فقط ولكنه موت صديق أحبه . كانت وفاته عجيبة وبشكل ما يقشعر منها البدن . كان يوم أحد الفصح ، وقد عاد من تناول العشاء الربانى فى الكنيسة ، كان سيتغدى مع عائلته ، وهناك قسيس فى البيت ـ هذا كله يفسر كاثوليكيته التى كان منجذبا إليها بشدة ـ ومات فى المرحاض ، كأن ذلك انعكاسا لأسلوبه الهجائى ووحشيته الساخرة التى كان يصف بها أحيانا موت شخصياته مما يعيد إلى الذهن شخصية

انثورب فى روايته « رجال تحت السلاح » . كان هناك دائما صراع بين الهجاء والرومانسي فى شخصيته ، وافترض أن الهجاء هو إلى حد ما رومانسي ولكنه عادة لا يعبر عن رومانسيته ، من المؤكد أن الرومانسية كانت نقطة ضعف فى حياة وأعمال ايفلين وو .. وفى النهاية ساهمت فى قتله . كان يأمل ويتوقع الكثير من بنى الإنسان والكثير جدا من الكنيسة ، وأعتقد ان التعبير القديم « قلب كسير » يقترب من الحقيقة حين يفكر المرء برد فعله للتغييرات التي حدثت فى طقوس الكنيسة الكاثوليكية .

لم تكن خيبة أمله فى الكنيسة فقط ، بل وفى الجيش أيضا ، كان ضابطا شجاعا ولكن ليس ناجحا ، وعبر عن خيبة أمله فى ثلاثيته « رجال تحت السلاح » و« ضباط وسادة » ، و« الاستسلام غير المشروط » . فى نهاية ضباط وسادة أو ما أعتقد انها ينبغى أن تكون نهايتها بل ونهاية الثلاثية ، كتب « عاد بعد أقل من سنتين من حجة إلى الأرض المقدسة بخيبة أمل ، إلى العالم القديم الغامض ، حيث القسس جواسيس ، والأصدقاء الذين ظنهم شرفاء خونة ، وبلاده تقاد بخطأ فادح إلى العار » .

يمكن أن نرى ان الهجاء والمسحة الباطنة الجادة بدأت تظهر فى كتبه المتعة منذ تحطم زواجه الأول . فى كتبه المبكرة كان يستمتع بشدة فيما يهجوه ، وكتابه الأول « الانحطاط والسقوط » والذى أعجبت به ككتبه الأخرى ، قرأته على الأقل ست مرات وهو بالنسبة لى هزل نقى ممتع . وهكذا كان كتابه الاقل نجاحا « أجساد تافهة » الذى سخر فيه « من الأشياء الصغيرة الجذابة » فى العشرينات والتى كان هو نفسه من ضمنها . لم ينظر إلى شخصياته بطريقة جادة بما فيه الكفاية ليهجوهم ، لكن من المؤكد أن فى كتابه « الأذى الأسود » بدأنا نرى الهجاء الحاد وراء السخرية الظاهرة ، وكانت الرواية حول امبراطور أسود يحاول تحديث بلاده ، وهى مبنية على تجربة وو فى أثيوبيا . وكان اكثر كتبه ايلاما هو « حفنة غبار » فلا توجد فيه سخرية على الاطلاق .

إن كاتبا من نوع ايفلين وو ترك لنا العديد من الأعمال المختلفة

نجوس خلالها ، فنكتشف آفاقا لم تجد حظها من التقدير ، وطرقا من الحياة لم نكتشفها فى اللحظة المناسبة ، لأن القارىء قبل المؤلف ، يتغير . بالنسبة لى ملت إلى رفض روايته « زيارة ثانية لبرايدشيد » حين كتب لى أن تبريره الوحيد لكتابة تلك الرواية بذلك الشكل : أكواخ نيسين وعلب اللحم المحفوظ وفترات الإظلام ، وقد قبلت ذلك النقد ، حتى جاء يوم قرأت فيه كل أعماله ، ولدهشتي وجدتني أنضم إلى أولئك الذين يعتبرون « زيارة ثانية لبرايدشيد » أحسن كتبه ، مع أنها أكثر رواياته رومانسية .

كانت أولى رواياته المفضلة لدى ذلك الكتاب الشجاع جدا « محنة جلبرت بنفولد » ، رواية بنيت على تلك الفترة التى طاش فيها صوابه . وقد حدث ذلك بعد كتابته « رجال تحت السلاح » و« ضباط وسادة » ، أذكر انى كنت أتمشى معه فى حديقة بيته وسألته : لماذا لم تكتب على غلاف رواية « ضباط وسادة » انك تنوى أن يكون العمل ثلاثية ؟ وكانت اجابته : « لانى لم أكن متأكدا انى سأكتب الكتاب الثالث . ربما أفقد صوابى ثانية » .

فى رواية « بن فولد » كانت الشخصية فيها دراسة لنفسه ، انها تذكر المرء قليلا بما فعله فرويد حين حلل نفسه . « لم يقم صداقات جديدة فى السنوات الأخيرة ، أحيانا يكتشف بعض البرود فى معاملة رفاقه القدامى . كان دائما هو الذى يطلب مقابلتهم ، وكانوا دوما هم المبادرون بالمغادرة ، ويحدث أحيانا ـ كلامه عن بنفولد بطل الرواية ـ أن يشعر بأنه ممل ، من السهل التنبؤ بآرائه ، يمقت الفن التشكيلى ، وبيكاسو وحمامات الشمس وموسيقى الجاز ، وكل شىء فى حياته . اللحظات الخيرة التى مرت به كانت بسبب تدينه وكل ما فعلته أن لطفت من قرفه لتحوله إلى ملل .

فى هذا الكتاب الغريب طرح جانبا كل صفاته الحسنة : الشجاعة البدنية ، الكرم الخاص ، الوفاء للأصدقاء . الكتاب يعبر عن شخصيته الفنية تماما ، بأسلوبه الجيد فى ربط الفقرات ، عدم استخدامه الكامل للحال الذى يدمر اسلوب الكاتب أكثر من الصفة .

وهنا نقاط يلاحظها الروائى لكن القارىء أيضا يلاحظها ، وهنا لا نستطيع أن نستخف بما أسماه ثرولوب فى سيرته الذاتية « فطنة القارىء النقدية اللاواعية » ، بمعني ان ما يلاحظه الروائى يلاحظه القارىء أيضا وان كان لا يعرفه .

حين نشر ايفلين وو جزءا من يومياته ، أفسدتها وسائل الإعلام بتناولها المرح ، وأقصد بوسائل الإعلام الصحافة الرديئة . فالصحفيون فى هذه الجرائد يهتمون دائما بتحويل الكاتب الجيد إلى « شخصية » وإذا نجحوا فإن الشخصية الأسطورة تحل محل العمل الأصلى ، وتحنط شخصية المؤلف الحقيقية . والأفعال والملاحظات التى كانت مزعجة ذات يوم تصبح الآن ممتعة ومسلية لأنها أضحت جزءا من الشخصية الخيالية .

الروائى روبرت لويس ستيفنسون لقى مثل هذه المعاملة ، لكن محررو الصحف الأدبية فى زمنه كانوا أكثر أدبا ، كونراد قاسي من المصير نفسه ، ود. هـ. لورنس لولا أنه انقذ من الأسطورة على يد الناقد ليفز ، فمن ينقذ ايفلين وو ؟

اني أكتب كارها فى هذا الموضوع ، وقد احترت عدة سنوات بالسمعة التى الصقت به بأنه فظ وقاس ، فقد عرفته لمدة ١٢ سنة جيدا ولم أجد مثلا واحدا يبرر هذا الوصف الذى أطلقته عليه الصحف . ولقد اقمت معه عدة مرات فى الريف (وهو عمل يعتبره بعض أصدقائه بطولة مني) ولم أر فيه إلا مضيفا ممتازا وشخصا مرحا يغلف أحزانه الخاصة بسخرية ومزاح ولا يزعج ضيفه . وظل الأمر كذلك حتى منتصف الخمسينات حين رأيت وجه ايفلين القاسي . كنا نتناول العشاء فى بيت المخرج كارول ريد ، وكان معنا المنتج الكسندر كوردا وفتاة صغيرة تزوجها فيما بعد ، فجأة انحنى ايفلين على المائدة وشن هجوما ضاريا على كوردا بطريقة صدمتنا ، منهيا كل الأحاديث ، وتحمله كوردا بصبر ولطف يضرب بهما المثل .

فى اليوم التالى كنت أركب معه عربة أجرة ، وطلبت منه تفسيرا لما حدث فقد كنت أحب اليكس جدا :

ـ ما الذى دفعك للتصرف بهذا الشكل ؟
قال : كيف يجرؤ كوردا على احضار عشيقته إلى بيت كارول ؟
قلت : ولكنى كنت أيضا مع عشيقتى !
قال : ذلك أمر مختلف .. فعشيقتك متزوجة .

الفسوق مع الفتيات الصغيرات أخطر من الزنا ؟ أهذه هى وجهة النظر الكاثوليكية الأصيلة !؟ تركت النقاش وغرقنا فى الصمت . لكن أولئك الذين صوروا ايفلين وو كنوع من الوحوش المقدسة ، تغافلوا عن الجانب الآخر فيه . تجاهلوا الرجل الذى اقتطع فترة من وقته الثمين ليمكث مع صديقه المحتضر رونالد نوكس فى فندق ومنتجع كان يكرهما ، الرجل الذى سهر على فراش موت صديقه الفرد دوجان وأحضر له كل المساعدة التى احتاجها رغم كل العقبات .

كنت أتمني حين أموت أن يكون بجانبي .

كانت آراؤنا السياسية متباعدة مئات الأميال ، وكان يعتبر كاثوليكيتى هرطقة ، فما الذى جعلنا فى الواقع أصدقاء ؟ كتب لى فى أكتوبر سنة ١٩٥٢ « أكمل اليوم عامي التاسع والأربعين وأنت تبدأ عامك التاسع والأربعين ، لقد قيل لى أن هذه هى الفترة الحرجة التى يتحدد فيها اتجاه المرء بقية حياته ، انها سنة فقدت فيها العديد من الأصدقاء ، ليس بالموت ولكن بطريقة النهك والانهاك من كثرة الاستعمال .. صداقتنا بدأت متأخرة .. أرجو الله أن تستمر » واستمرت . منذ سنوات قليلة أعدت قراءة رسائله إلى ، ذكرى حزينة ، ولأول مرة أدرك كم كان رجلا وحيدا ، طلب منى مرارا وتكرارا أن أزوره ، ولم استجب له إلا ثلاث مرات . فقد كان من المستحيل دائما تلبية طلبه أو أكون مشغولا ، فأرد عليه مستحيل هذا الشهر ، وانى أسف على المناسبة الأخيرة التى لم أزورها فيها .

فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ كتب فى يومياته أثناء وجوده فى يوغوسلافيا « عيد ميلادى الواحد والأربعين .. الأكثر كآبة منذ احدى عشرة سنة ، السنة الماضية كانت جيدة ، فقد ولدت ابنتى ، وكتبت كتابا ونجوت من الموت أرجو الله أن أكون فى العام القادم فى وطنى وفى بيتى فى عملى وفى

سلام » . سلام لم يتحقق له ، يأس متواصل يتخطاه بالكلمة السهلة الملل . كنت أقرأ رواية هنرى جيمس « أهل بوسطن » ، وحين وصلت إلى وصفه لشخصية رانسوم ، خطر على ذهنى فورا ايفلين وو ، لم يحلل هنرى جيمس الأسباب التى دعت رانسوم أن يكون ما هو عليه ، وأشك إذا كانت يوميات ايفلين وو تساعدنا على فهمه ، من المؤكد انها حين تنشر كاملة ، ستعطى فرصة لكثير من الكتاب ذوى الموهبة الأقل ، ليشوهوا سمعة رجل كانوا يخافون من نقده وهو حى حتى لا يرد عليهم .

* * *

٥

رغبتى فى الهروب من لندن ومن حياة الكاتب المغلقة ظلت تلازمنى فى فترة الستينيات ، وقد استيقظت هذه الرغبة عند قراءتى لمقال عن هايتى تحت حكم بابادوك .

كانت الزيارتان السابقتان لهايتى سعيدتين جدا ، وكانتا ابان حكم الرئيس ماجلورى ، كان هناك فقر مدقع ولكن كان هناك أيضا الكثير من السياح وبعض النقود التى كانوا ينفقونها كانت تنقط فى حلق الفقراء ، وكان الفندق الضخم الذى أنزل فيه ـ فندق أل رانشو ـ دائما ممتلئا ، وقد نزل فيه ذات مرة عمدة ميامى لليلة واحدة مع مجموعة من الأتباع الصاخبين والفتيات كثيرات الصراخ ، وكانت هناك وقائع مثيرة فى حمام السباحة حتى الساعات الأولى من الصباح . قابلت شعراء ورسامين وروائيين من هايتى ، ورجل أحببته أكثر من الجميع وصورته فى شخصية د. ماجيوت فى روايتى « الممثلون الهزليون » ، وهى رواية لم أكن أحلم بأن أكتبها . كان الرجل طبيبا وفيلسوفا ، وشغل لفترة وزير الصحة ، لكن حين وجد يديه مقيدتين بدرجة كبيرة استقال ، كان رجلا ضخما أسود اللون معتزا بنفسه تماما وبه لطف من عالم قديم . وكان كل سنتين

يزور أوروبا ليشهد مؤتمرا فلسفيا ، وقد مات في المنفى كان أكثر حظا من شخصية د. ماجيويت التي رسمتها ! من كان يعلم الغيب ؟ في تلك الفترة شهدت المراسم والطقوس الدينية للفودو الديانة التي تقوم على السحر والخرافة ، والتي وصفتها في روايتي ، آنذاك كانت حرية السفر لجميع أجزاء البلاد متوافرة ، قد زرت مناطق عديدة دون حاجة للانتظار ساعات في قسم البوليس لتحصل على إذن بمغادرة العاصمة كما حدث بعد ذلك .

ألهب المقال حماسي . فسافرت لهايتي لآخر مرة سنة ١٩٦٣ ، وكانت تلك السنة أكثر السنوات حرجا وأقساها في حكم بابادوك ، فهناك مجموعة من الفدائيين تحارب في الشمال (قابلت ما بقي منهم حيا بعد عام مغيبين في مصحة عقلية في سانت دومينجو) ، وكانوا هم سبب انتشار التكنات العسكرية حول العاصمة ممتلئة بميليشيا ممزقة الثياب ، وكان من المستحيل أن تخرج أو تدخل فندقك دون أن تفتش مرتين بحثا عن السلاح . وبينما بقي بابادوك في عيون الأمريكيين حصنا ضد الشيوعية في الكاريبي ، فقد أظهر قوته بإثارة الخلاف مع الغرب . لقد قتل باربوت مؤسس جماعة التنتن بوحشية في ضاحية من ضواحي العاصمة وعلق صورا تبين بقايا جثته على حوائط أقسام البوليس ، لأنه اتهمه بالاتصال برجال البحرية الأمريكيين الذين كانوا يحرسون السفارة الأمريكية في العاصمة ويقدمون المساعدة العسكرية للبلاد ، فقد اختطف التنتن ابن ضابط أمريكي ، وأنقذ في اللحظة الأخيرة وهو يجر إلى القصر ، على يد ابن رئيس الجمهورية الذي كان معه في المدرسة الثانوية نفسها . بعد تلك الحادثة سحبت قوات البحرية وغادر السفير الأمريكي البلاد وطرد السفير البريطاني وحرم « ديفوليه » ـ رئيس الجمهورية ـ من الكنيسة . وامتلأت سفارات دول أمريكا اللاتينية باللاجئين ومن بينهم معظم الضباط الذين تخطوا رتبة الميجور ، وتتبع التنتن اللاجئين داخل سفارة سان دومينجو مما اضطر رئيس سانت دومينجو لتحريك دباباته على الحدود التي لا تبعد أكثر من مسيرة يوم عن العاصمة بورت اوبرنس . حين وصلت ذلك الصيف كانت العاصمة

مدينة قاتمة ، ورغم أن حظر التجول مرفوع فلا أحد يجرؤ على الخروج بعد حلول الظلام . لم أنزل فى فندق الرانشو هذه المرة لكنى ذهبت يوما لزيارته ، لم يكن هناك نزلاء وحمام السباحة كان فارغا فى الفندق الذى كنت أنزل فيه ـ أولفسن ـ وسميته فى روايتي تريانون ، كان هناك ثلاثة من النزلاء غيرى ، مدير كازينو ايطالى ، وممثل أمريكى عجوز وزوجته ، ثنائي لطيف ، لا أنكر أن مستر ومسز سميث فى روايتى قد حملا بعض الشبه منهما ، كان الممثل قادما ليعلم الفنانين فى هايتى استخدام الطباعة على السلك سكرين كى يتمكنوا من بيع مستنسخات من رسوماتهم فى أمريكا .. ويحسنوا أوضاعهم المالية . وقد شجعه على القدوم قنصل هايتى فى نيويورك والذى وعده بأن يرسل وراءه كل المواد الضرورية المطلوبة ، ومرت الأسابيع ولم يصل شيء ، ولم يبد أحد فى الحكومة اهتمامه بالمشروع .

ذات ليلة تحدى ثلاثتنا الظلام وخرجنا لزيارة بيت الدعارة الذى وصفته فى روايتى ، لم يكن هناك زبائن عدا إثنين من جماعة التنتن . بدأ مستر سميث يسحب الفتيات اللواتى كن يرقصن بتشكيلات بديعة ، وتجمعوا حول كرسيه كفتيات مدراس صغيرات منفعلات ، بينما كان التنتن يحدقان من وراء النظارات السوداء فى هذا المشهد البرىء والسعادة التى لا يشوبها خوف ، دون فهم .

كل يوم كان يحضر إلى الفندق شخص يسمى « بيير الصغير » ليتناول مشروبا ، وذات مرة جاء معه عمدة العاصمة الذى صحبنى فى جولة ليرينى مبانى المدينة الجديدة « ديفولييه فيل » على إسم رئيس الجمهورية ولم يكن فيها مبنى أكتمل بناؤه غير المسرح . أدركت يومها أن عمل بيير الصغير إضافة إلى تلبية طلباتى هو كتابة التقارير عن السبب الذى جئت هايتى لأجله .

بعد أسابيع من مغادرتى أجبرت الحكومة جميع أطفال المدارس أن يشهدوا إعدام إثنين من الفدائيين فى مقبرة المدينة ، وقد تكرر عرض هذا المشهد فى التليفزيون المحلى مدة أسبوع .

كل ما أردته آنذاك أن أخرج من هذه المدينة التى تشبه الكابوس

الخانق ، ولكن الحصول على ترخيص لزيارة أى مكان خارج العاصمة لم يكن أمرا سهلا ، وحتى مغادرة القطر كانت تحتاج إلى تأشيرة خروج إضافية .

أخيرا ، قابلت وزير الخارجية نفسه ، وكان على وشك السفر إلى نيويورك لحضور اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة . وليقدم إحتجاجا بأن أسلحة أمريكية وجدت مع الفدائيين ـ وهو إدعاء ليس له ما يبرره حيث أن الجيش الهايتي مسلح بأسلحة أمريكية ـ رفض وزير الخارجية السماح لى بالتوجه شمالا بحجة الحفاظ على سلامتي الشخصية ، وأعطي موافقته على مضض لزيارتي إلى بلدة أوكابيه فى الجنوب حيث أردت أن أقضى ليلة مع المبشرين الكنديين ، وحتى بعد موافقته هذه كان علىّ أن أقضى ساعات منتظرا فى قسم البوليس جالسا تحت الصور المعلقة لبقايا جثة باريوت . كان قسم البوليس يواجه قصر رئيس الجمهورية ، ولا يستطيع متطفل دخول القصر ، بل من الخطر أن يسير المرء تحت نوافذه ، وحتي سائقو السيارات يتجنبون هذه الناحية من الميدان . ربما كنت سأبدوا أقل ثقة فى نفسى وأنا جالس على الدكة هناك أتفحصً المكان لو قرأت ما كتبوه عنى ذلك اليوم ، وعرفته أخيرا ، فقد كتبوا « عرفنا فى شخصه جاسوسا لقوى إمبريالية مجهولة » .

كانت المدينة فى الجنوب لا تبعد أكثر من ١٨٠ كم ، لكن رحلتنا إستغرقت ـ كما حذروني ـ ثماني ساعات ، لأن الطريق لم يعد له وجود بعد نصف ساعة خارج العاصمة . لم يكن لدى وهم لتخدعني المودة التى يبديها سائقي ، فهو مخبر ، وصوّر لى ذهنى انه من السهل إفتعال حادث مقنع على ذلك الطريق غير المسفلت ، أو حتى إرتكاب جريمة أكثر إقناعا وإلقاء اللوم على الفدائيين ، ولن يهتم أحد بالفضيحة لمقتل كاتب ، فليست هناك سياحة يخافون عليها .

لابد أن الخوف الذي ركبني خلال هذه الأسابيع قد تغلغل بعمق فى لا وعيي ، كانت هايتى آنذاك الحلم المزعج فى عناوين الصحف ، وحين كنت أنتظر طائرتي فى المطار ، لم أكن سعيدا حين امتدت يد سرا لتضع فى يدى رسالة إلى شخص كان مرشحا سابقا للرئاسة ومنفي فى سانت دومينجو .

وانتابتنى الوساوس .. هل يخدعنى عميل فى اخر لحظة ؟ ولا عجب أنه لسنوات قادمة ظلت عاصمة هايتى تظهر فى أحلامى ، رغبت فى العودة إلى هناك متنكرا لكنى خشيت أن أكتشف ، لو عرفت رأى الرئيس فى شخصى لبدت مخاوفى أكثر عقلانية ، فقد ضربته روايتى « الممثلون الهزليون » ضربة موجعة ، وأنا سعيد أن أقول ذلك ، ولقد هاجمها بنفسه فى مقابلة أجرتها معه صحيفة لوماتان ، وهو النقد الوحيد لرواية من رواياتى الذى تلقيته من رئيس دولة .

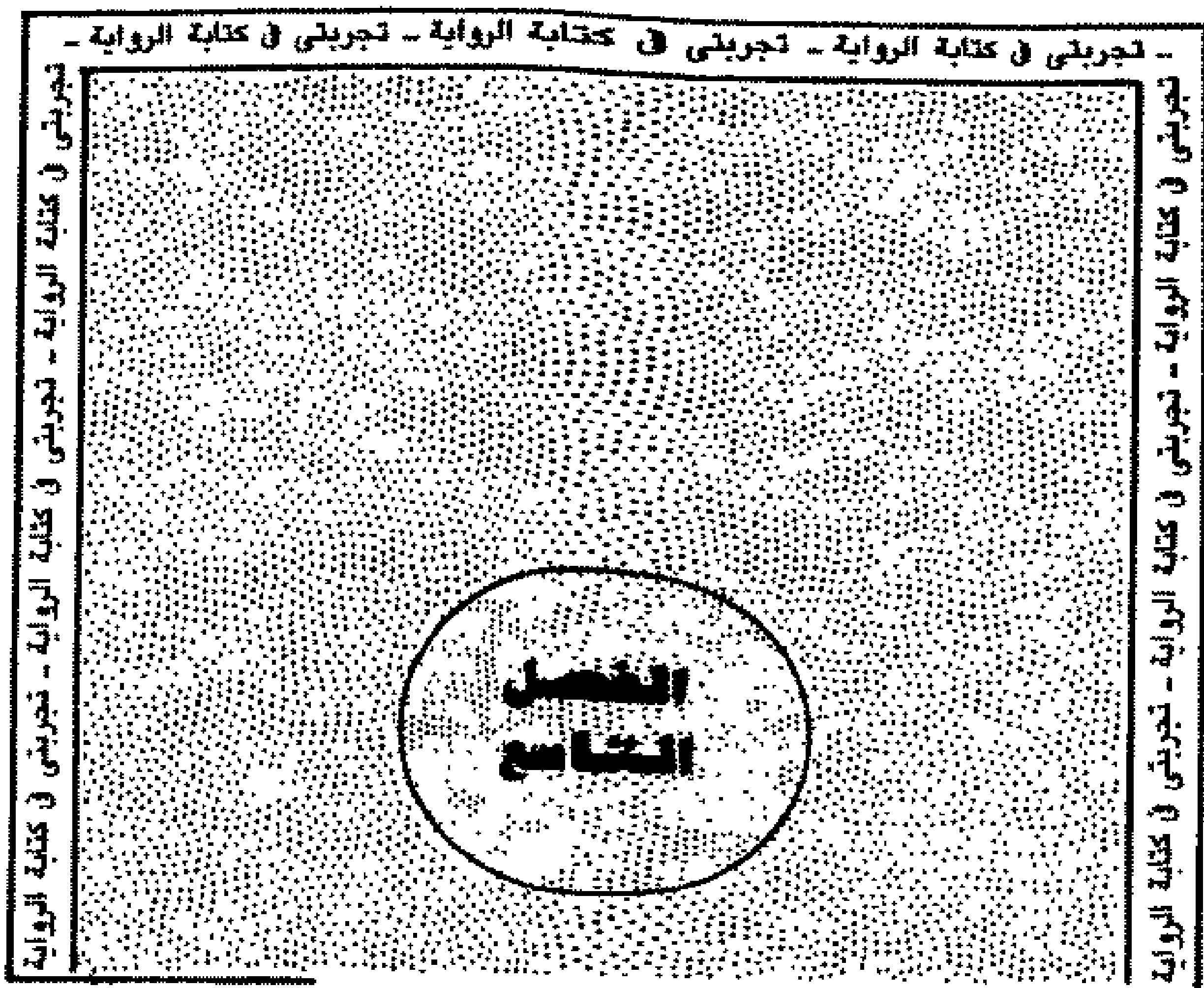
أمن الممكن أنى أزعجت أحلامه كما أزعج أحلامى ؟ بعد خمس سنوات من زيارتى ، أصدرت وزارة الخارجية هناك كراسة على ورق مصقول ، مفصلة ومصورة ، تتناول قضيتى !

أجروا بحوثا كثيرة لأعدادها وتزويدها بمقتطفات كثيرة من المقدمات التى كتبتها للطبعات الفرنسية لكتبى ، ونشرت بالانجليزية والفرنسية وكان عنوانها « سقوط قناع جراهام جرين أخيرا » . وكانت الكراسة تحتوى على سرد لحياتى متحيزا ضدى ، وقد وزع هذا العمل المكلف على الصحافة ، من خلال السفارات الهايتية فى أوروبا ، لكن توقف التوزيع فورا حين وجد الرئيس أن النتيجة جاءت على غير ما يهوى .

مما جاء فى وصفى فى هذه الكراسة « أفاك ـ غبى ، عميل فى خدمة الشرطة ـ غير متوازن ، سادى ـ منحرف ـ جاهل تماما ـ كاذب حتى أعماق نفسه ، عار على عظمة ونبالة إنجلترا ، جاسوس ، مدمن مخدرات ، مُعذب للآخرين » اللقب الأخير حيرنى تماما .

أنا فخور بأن لى أصدقاء من هايتى ، حاربوا بشجاعة فى الجبال ضد ديفوليية ، إن الكاتب ليس بلا حول ولا قوة كما يشعر عادة ، إن القلم ، مثله مثل الرصاصة الفضية ، من الممكن أن يتسبب فى إسالة الدماء .

* * *



١

خلال الأربعين سنة التي مضت منذ نشر أول رواية لي ، كنت أكتب القصة القصيرة بين الفينة والأخرى . ومنذ البداية أزعجني هذا الشكل الفني وأضجرني قليلا ، فقد كنت أعرف كل شيء عن القصة قبل أن أبدأ الكتابة ، وأنهي كتابتها أيضا دون أن افاجأ بشيء جديد . بينما أثناء كتابتي الرواية ، رغم فترات الملل التي أمر بها أحيانا ، لكن في أية لحظة قد يحدث غير المتوقع . مثلا شخصية ثانوية تظهر فجأة وتسيطر وتملي كلماتها وأفعالها . أو أدخل حادثة تبدو لا علاقة لها بالموضوع في مكان ما في بداية الرواية وبدون سبب أعرفه ، ثم فجأة بعد كتابة ٦٠ ألف كلمة وبإحساس مثير اكتشف لماذا كانت تلك الحادثة هناك ، فقد كان

السرد طوال الوقت يعمل عمله خارج الوعى . لكن فى القصة القصيرة أعرف كل شىء قبل بدء الكتابة أو هكذا أظن .

ذكرنى ذلك بنوع المقالات التى كنا نتعلم كتابتها فى المدرسة ـ عليك أولا أن تضع تخطيطا يبين تطور الموضوع وتسير على هداه ، حين تركت المدرسة ورائى بأمان ، بدأت أكتب المقالات ثانية ، وتعلمت أن أثق فى تهويمات العقل ، فإذا تركت العنان للجواد فسيصل الحصان إلى البيت ، والشكل ينمو بنفسه داخل المقال وعليك ألا تفكر به مقدما .

فى حالة القصة القصيرة ضُللت بالطريقة نفسها ، وحين وعيت ذلك ، بدأت أكتب القصة القصيرة وليس فى ذهنى سوى شكلها الخارجى ، لا تصل المفاجآت فيها كما فى الرواية بالطبع لكنها موجودة على كل حال ، تظهر فى تشكيل غير متوقع لجملة ، فى رد فعل مفاجىء ، فى ومضة خافية فى الحوار ، تأتى كمشروب بارد لفم ظامىء .

والآن أدرك ، أنى منذ البداية كنت كاتبا للقصة القصيرة ، وليس الشذرات كما أسميتها فى مقدمتى للمجلد الأول من قصصى القصيرة ، كتبت أول قصة قصيرة سنة ١٩٢٩ فى السنة التى نشرت فيها روايتى الأولى ، ومن الغريب أنى خلال فترة كتابة روايتى الثانية والثالثة ، كتبت قصة « أنا أتجسس » والتى كان فيها كل المميزات التى تفتقدها رواياتى الأولى بشدة ، البساطة فى اللغة ، الإحساس بالحياة كما تعاش فعلا ، لم تكن قصة عظيمة . ولكن التساؤل إذا كنت أستطيع كتابة قصة قصيرة بذلك الشكل الجذاب وتلك الواقعية . فلماذا عكفت على تدمير ذاتى بكتابة روايات خيالية تماما مثل إسم العمل أو إشاعة عند هبوط الليل ؟

ومع أنى راض عن كثير من هذه القصص القصيرة (أعتقد أنى لم أكتب أفضل من « المدمرون » و« فرصة لمستر ليفر » ، و« تحت الحديقة » و« الرقص فى أغسطس ») فإنى بقيت فى هذا الحقل روائيا يحدث أن يكتب القصة القصيرة ، بالضبط كما يوجد كتاب قصة قصيرة يحدث أن يكتبوا روايات . (يحضرنى جى دى موباسان وفيكتور برتشت) .. والفرق بين الإثنين ليس ظاهريا ولا حتى فنيا ، كفنان يرسم بالزيت وآخر بالألوان المائية ، وهو بالتأكيد ليس فرقا بالقيمة ، إنه فرق بين طريقتين مختلفتين فى الحياة .

فى الرواية التى تحتاج سنوات لكتابتها ، يكون المؤلف عند إنتهائه

منها ليس هو الرجل نفسه الذى كان عند بدايتها ، ليست شخصياته فقط هى التى تطورت ، بل هو أيضا قد تطور معها ، وهذا تقريبا الذى يعطى الإحساس بنقص العمل ، فالرواية لا تعطى مؤلفها الإحساس بالكمال الذى تجده مثلا فى قصة تشيخوف القصيرة « السيدة والكلب » ، والوعى بذلك النقص هو الذى يجعل من مراجعة الرواية عملا لا ينتهى ، فالمؤلف يحاول عبثا أن يكيف القصة تبعا لشخصيته التى تغيرت ، كما لو أنها شىء بدأه فى طفولته وعليه إكماله فى شيخوخته ، وتمر به لحظات من اليأس حين يبدأ مثلا مراجعته الخامسة للفصل الأول ، ويرى أن عليه إدخال الكثير من التصويبات ، كيف يمكنه ألا يشعر بين هذا العمل لن ينتهى أبدا ؟ وأنه لن يكون الرجل نفسه الذى كتب هذا من شهور وشهور ، فلا عجب إذن أنه تحت مثل هذه الظروف يكون الروائى دائما زوجا سيئا أو عاشقا قلقا غير مستقر ، هناك شىء ما فى شخصيته كالممثل الذى يستمر فى القيام بدور عطيل حتى بعد أن يترك المسرح ، لكن المؤلف ممثل عاش ادوارا كثيرة متباعدة على مدار فترات طويلة متباعدة أيضا ، هو شخص تلبسته شخصياته ، ذات مرة أخبرنى سائق تاكسى فى منطقة الكاريبى عن جثة شخص قذفها البحر ، قال « لم يكن فى مقدورك القول أنها جثة رجل بسبب سمك اللا مبريز الذى تعلق بها ».

صورة مرعبة ولكنها تلائم صورة الروائى تماما . وهكذا فإن القصة القصيرة بالنسبة للروائى ، غالبا ما تكون شكلا آخر من الهروب ، هروب من معاشرته فترة طويلة لشخصية روائية تحمل فى النهاية غيرته وحقارته وبخله وخيانته وحيله الفكرية . قد يشكو القارىء من كآبة الشخصية ، لكنه محظوظ فهو لن يعاشرها إلا فترة قراءته للرواية ، أحيانا عند قراءتك لخطابات فلوبير يمكنك أن تراه وقد أصبح مدام بوفارى ، يطور فى نفسه عاطفتها المدمرة .

إذن ، يمكن اعتبار قصصى القصيرة مجموعة هروبات من عالمى الروائى ، وأستطيع إعادة قراءتها بسهولة أكثر من رواياتى لأنها لاتجر وراءها حياة كاملة ، أنظر إليها بسرعة كما أنظر إلى اليوم من الصور التى إلتقطت فى إجازات مختلفة ، ـ بالطبع تحوى ذكريات ـ وأحيانا ذكريات تعيسة ، لكن إذا قلبت الصفحة فإن الصورة التالية لا علاقة لها بالصورة السابقة .

مجموعة قصصية واحدة هي « هل تسمحين لنا باستعارة زوجك ؟»
سنة ١٩٦٦ كتبتها بحالة مزاجية واحدة ، حالة مرح مشوب بحزن ، أثناء إنشائى منزلا من غرفتين على ميناء انتيب ، وأتناول طعامى فى مطعم فيلكس الصغير ، بعض قصصها إنبثق من حوارات على موائد أخرى وحتى من جمل غير مفهومة أحيانا ، وقصة إستلهمتها من حلم رأيته آنذاك ، أسميتها « حس بالواقع » عن مريض بالجذام رجع إلى طبيبه يلتمس علاجا خاصا فوجد العيادة وقد تحولت إلى كازينو قمار لإسعاد جنرال عجوز ، مازلت أتخيل ـ كما رأيت فى الحلم الموسيقيين الذين استأجرهم يتقافزون من سيارات الأجرة بآلاتهم الثقيلة ، هل كنت أنا المجذوم ؟ لا أعتقد . ربما الطبيب العجوز المستمتع بالتحول الذى حدث لمنزله وهو يرى وجه مريضه يحدق فيه عبر الحديقة .

من المؤكد أن الأحلام كان لها أهمية كبيرة فى كتاباتى ، ربما لأنى عولجت نفسيا وأنا صبى ، فأصل روايتى « ميدان المعركة » كان حلما ، وكذلك « القنصل الفخرى » بدأت كحلم ، وأحيانا يصل التطابق بين المؤلف وشخصيته الروائية إلى مدى بعيد ، حتى أن المؤلف من الممكن أن يحلم حلم الشخصية الروائية لا حلمه ، حدث هذا لى أثناء كتابة رواية « حالة ميئوس منها » ، فرموز وذكريات وتداعيات ذلك الحلم كانت بوضوح تخص شخصيتى الروائية كويرى ، وفى الصباح التالى وضعت ما حدث فى الحلم دون تغيير فى الرواية حيث سد ثغرة فى السرد كنت لعدة أيام غير قادر على عبورها . وأتخيل أن كل المؤلفين قد وجدوا المساعدة نفسها من اللا وعى ـ فاللاوعى يشترك فى كل عملنا ، إنه الجوكر الذى نحتفظ به فى القبو لمساعدتنا حين تواجهنا عقبة صعبة التجاوز ، اقرأ ما كتبته خلال اليوم قبل النوم وأترك الجوكر يقوم بالعمل ، وحين إستيقظ تكون العقبة قد أزيلت تقريبا وبدا الحل واضحا ، من المؤكد أنه ورد فى حلم لا أذكره .

وأنا أنظر إلى قصصى القصيرة الآن ، والتى تمتد بطول فترة زمنية تبدأ سنة ١٩٢٩ حتى السبعينات من هذا القرن ، تصدمنى حقيقة غريبة ، أن المرح دخل إلى قصصى متأخرا جدا وعلى شكل غير متوقع تماما . القصص الثلاث القصيرة التى كتبتها خلال الحرب كانت قصصا مرحة ، فقد كانت هروبا من الغارات الجوية والموت الليلى ، وهكذا كانت

القصص التى تشتمل عليها مجموعة « هل تسمحين لنا باستعارة زوجك؟»، وكلها كتبت فى الفترة التى تشكل العقد الأخير من حياتى وقد كانت هروبا فى المرح من فكرة الموت ، هذه المرة من موت مؤكد .

الكتابة نوع من العلاج النفسى . وأحيانا أعجب من أولئك الذين لا يبدعون أدبا أو موسيقى أو رسما ، كيف يمكنهم أن يهربوا من الجنون والكآبة والخوف والذعر المتأصل فى الوضع الإنسانى .

* * *

٢

إذا كانت رواية « حالة ميئوس منها » سنة ١٩٦١ تقدم الجانب الكئيب لكاتب يعانى من دورات من حالات الهوس ثم الاكتئاب ، فإن رواية « رحلات مع عمتى » التى جاءت بعد ثمانى سنوات ١٩٦٩ ، تقدم فقط حالة الهوس فى أعلى درجاته أو أعمقها ، نبتت الرواية بشكل طبيعى من المجموعة القصصية : هل تسمحين لنا باستعارة زوجك ؟ فى الواقع كنت قد دونت عددا من الأفكار المحتملة لقصص تضاف الى تلك المجموعة ، وهى أفكار لم أستخدمها ، ووجدت طريقها الآن كحكايات طريفة يرويها هنرى بولنج عن عمتى ، فتحت له مفكرتى ليعاين ويختار ، فتركها تقريبا خالية .

حين أنهيت رواية « حالة ميئوس منها » كان لدى يقين مغلف بالإكتئاب بأنها ستكون آخر رواية أكتبها ، وربما جاءنى الإكتئاب من معايشتى لشخصياتها عدة سنوات ، لكن ما الذى خلصنى من الإكتئاب ورمانى فى أحضان حالة تشبه "الجنون لاكتب خلالها مجموعتى القصصية وأبدأ فى كتابة رحلات مع عمتى ؟ افترض أن ذلك حدث نتيجة لقرار صعب فى حياتى الخاصة . وهو ترك انجلترا للإقامة بشكل نهائى ودائم فى فرنسا سنة ١٩٦٦ ، حرقت العديد من القوارب وعلى ضوء لهبها بدأت أكتب رواية جديدة .

« رحلات مع عمتى » هى الرواية الوحيدة التى كتبتها للمتعة التى

فيها ــ مجرد المتعة ــ رغم أن موضوعها هو الموت والهرم ، موضوع مناسب للتناول والمرء فى الخامسة والستين من عمره ، وقد وصف ناقد سويسرى شهير الرواية بأنها « ضحك فى ظلال المشانق »، وقد جربت الكثير من الضحك فى كتابتها ، والقليل من الظلال . حين بدأت الكتابة بمشهد حرق والدة هنرى بولنج ولقائه مع عمته أوجستا ، لم أعتقد لحظة أنى سأستمر فى القصة أكثر من أيام قليلة ، فأنا لم أكن أعرف حتى طبيعة المشهد التالى ، لم أكن أعرف بعد أن أوجستا ستكون هى والدة هنرى الحقيقية ، فى كل يوم حين أجلس أمام ورقة الفولسكاب البيضاء (هجرت الورق المسطر كرمز لحريتى الجديدة ، فالأسطر تبدو كقضبان نافذة السجن) ، لا يكون فى ذهنى فكرة عما سيحدث لهنرى وأوجستا بعد قليل ، كنت كالفارس الذى يلقى بالعنان ، ويترك الحصان يحدد الاتجاه ، أو كالحالم الذى يظهر حلمه للعيان ولا يملك القدرة على تغيير إتجاهه ، وشعرت إضافة لكل ذلك أنى قطعت صلتى بالماضى خيرا أو شرا ، حتى أنى أعتبر نفسى غير مسئول عن بعض ما جاء فى الرواية من طرائف غير مفهومة لأحد . ولم لا ؟ فأنا لا أتوقع أن يكون لى قراء ، فلأضع أشياء غير معقولة سردا ومعنى .

وجد بعض النقاد فى الكتاب نوعا من الخلاصة لتجربتى الأدبية . لكن ما سبب لى بعض القلق ، أنى حين أعدت قراءة الكتاب ، تساءلت هل التنبؤات التى جاءت به هى ما يخبؤه المستقبل لى ؟ فإن القارب الذى حمل هنرى بولنج من بوينس أيرس إلى أسنسيون ، توقف لمدة نصف ساعة أثناء الليل فى ميناء نهرى صغير فى بلدة كورنيتس فى شمال الأرجنتين ، ولم يكن لدى أدنى فكرة أنى سأهبط هناك من طائرة بعد سنوات قليلة بحثا عن المكان المناسب لأحداث رواية « القنصل الفخرى » ، كذلك التهريب عن طريق بنما ــ أسنسيون ــ الأرجنتين ، لعب دورا صغيرا فى روايتى ، ولم يكن فى ذهنى أنى بعد عشر سنوات تقريبا سأنجذب إلى ذلك البلد الفقير الجميل الغريب ــ بنما ــ ذات الحدود مع خمس دول .

سافرت إلى باراجواى بغريزة الكاتب ، أدركت أن رحلات هنرى مع عمته ستصل إلى ما يشبه الذروة فى مكان بعيد وأقل ألفة من الأماكن التى أعرفها ، لم أكن أعرف شيئا عن المدينة ، لكنى أعتقدت أنى سأجد

فى « إسنسيون » خليطامن الأشياء الغريبة والخطرة والفيكتورية ـ نسبة إلى العصر الفيكتورى ـ مما يلقى قبولا عند العمة أوجستا . وكم كنت على صواب . فقد كان الطراز المعمارى الفيكتورى باديا فى الكنائس والمبانى ، أما بالنسبة للغريب والخطر فقد جئت إلى بلد يحكم بيد « الجنرال ستروسنر » القاسية ، حامى حمى المجرمين النازيين الفارين .

أول صديق إتخذته فى هذه المدينة . كان رجلا مثقفا ولطيفا يتكلم الإنجليزية بطلاقة ، وهو جاهز تماما لاصطحابى إلى نزهة أو حفلة ، وبطريقة غير متعمدة أظهر لى أنه يحمل « كارنيه » شرطة ، وفسر لى الأمر بسرعة ، فهو أحيانا يحاضر فى كلية الشرطة ، تظاهرت بتصديقه لأنه فى النهاية مخصص لحمايتى .

سألت يوما لويس فرناندو السائق الذى استأجرته ليأخذنى فى رحلة إلى الريف « هل هناك حوادث كثيرة للسيارات هنا ، ؟» فقد عجبت من كثرة أضرحة الموتى الصغيرة المنتشرة على جانبى الطريق ، كما أن ما قابلناه من الخيالة يفوق بكثير ما قابلناه من عربات . أجاب بغموض « الحياة عند الباراجويين رخيصة .. فإذا ذهب المرء من المدينة إلى الريف فالأفضل له أن ينزوى هادئا فى ركن . فهناك دائما أولئك الذين يسعون للشجار بسكين أو مسدس ، كما يجب ألا تبدو متخاذلا تماما فتلك إهانة ، ولو تحدثت بالأسبانية فقد يظنون أنك تحتقر لغتهم ، وإذا تحدثت بلغتهم ربما ظنوا انك تعتبرهم جهلة ».

كنت محظوظا أن أكون فى إسنسيون ـ مثل بطلى هنرى بولنج ـ أثناء الإحتفال بالعيد القومى الذى أقامه الحزب الحاكم ، فى بلد تعتبر فيه الشيوعية جريمة . وتراقب فيه تليفونات اليسوعيين ، وغير مسموح بانتقاد الولايات المتحدة فى الصحف ، وبدهشت أن أرى كل الناس قد أصبحوا حمرا ، رايات حمر ، جونلات حمراء ، أوشحة وزهور ومناديل حمر ، ربطات عنق حمراء ، مسكين بطلى هنرى بولنج كان غبيا حين إستخدم منديلا أحمر ليمخط ، فقد كانت تلك إهانة مرعبة للحزب ولرئيس الدولة ، كنت أعقل منه ، لكنهم حذرونى وأبلغونى ما يجب علىّ عمله بدقة . وبرغم ذلك فقد لاحظت بعد أيام قليلة أنى قد إنتهكت القواعد بشكل ما . فقد توقف الرجل التابع للمكتب الأجنبى عن المجىء

لفندقي ، وقد اعتاد أن يأتي كل ليلة ليتناول الشراب ، كذلك الرحلة إلى شاكو التي وعدوني بها لم تتحقق قط ، لكن صديقي الذي يحمل « كارنيه » الشرطة ظل وفيا ولطيفا إلى آخر لحظة .

افترض أن ما أزعج الجنرال هو مايلي : طلب بعض تلاميذ المدرسة الثانوية المحلية زيارتي ، كانوا في حوالي السادسة عشرة من أعمارهم ، زودني الفندق بمترجمة تشم عن بعد أنها مخبر بوليس ، إنزعجت حين لاحظت أنها تود السيطرة على ما يقال ، ووجدت أن خدماتها ليست ضرورية ، فقد استطعت فهم أسئلة التلاميذ ، ومعظمهم فهم إجاباتي . تحدثت عن فيدل كاسترو الذي لا يعرف الطلاب عنه شيئا ـ فكوبا موضوع محظور في الصحف ـ وانتقدت المنشور البابوي الخاص بتنظيم النسل والذي نشر حديثا .

أعتقد أن الجنرال لم يهتم برأيي بخصوص تنظيم النسل ، لكنني اشك أنه لم يهتم بالصورة المحببة التي رسمتها لكاسترو .

بعد عشر سنوات في واشنطن ، وفي حفل أقيم سنة ١٩٧٧ للاحتفال بتوقيع معاهدة بنما ، كنت أقف بعيدا عدة أقدام عن الجنرال ستروسنر ، وقدمني رفيقي إلى شخص مر بنا قائلا : هذا هو سنيور فلان أحد وزراء الجنرال ستروسنر ، ثم حين سمع الوزير اسمي سحب يده بسرعة وتلفظ بـ« لقد مررت يوما بباراجوي » قبل أن يستدير على نحو مفاجيء على كعبيه وينضم إلى الجنرال ، شعرت ببعض الفخر ، كما شعرت حين هاجمني بابادوك بشدة ، إن الكاتب الحق يمكنه أن يزعج الديكتاتور المتعذر الإطاحة به ، واسفت لتلك البلاد الحزينة والحبيبة والتي لن أعود إليها أبدا ما دام هؤلاء الرجال أحياء .

* * *

٣

أصل فكرة روايتي التالية « القنصل الفخري » والتي كتبتها بين ١٩٧٠ ـ ١٩٧٣ ، كان يقبع في كهوف لا وعيي ، حلمت مرة بسفير أمريكي قابلته في بار يعشق النساء ويلعب التنس جيدا ، ولم يكن في

حلمي إختطاف ولا فدائيين أو خطأ في الهوية ، لا شيء يرتبط بالقنصل الفخري ، سوى أن الحلم استقر في ذهني اشهرا ، أثناء هذه الأشهر برزت شخصيات فورتنم ود. بلار وأزاحت شخصية السفير غير المهم لحلمي .. وواتتني فكرة الرواية ، وبقي عليّ أن أكتشف موقع الحدث . لا أعرف شيئا عن أورجواي ، كما أن منظمة التوباماروس كانت دقيقة بحيث لا تقع في خطأ خطف قنصل فخري غير مهم بدلا من السفير الامريكي ، أما باراجواي فكانت قضية أخرى ، فتحت حكم ستروسنر الرهيب ، لم تستطع منظمة فدائية أن تنمو . بدا لي أنه من المعقول أن تقع مجموعة فدائية صغيرة تعمل عبر الحدود من الأرجنتين في الخطأ الذي أحتاجه لروايتي .

كنت محقا بشأن التوباماروس فقد نجحوا في الوقت الذي أنهيت فيه روايتي من خطف السفير البريطاني في مونتفديو ، وحين كتب السفير بعد ذلك قصة اختطافه وجدت فيها تشابها طريفا مع روايتي ، حتى أنه ـ كما يعتقد ـ كان يوجد أحد القساوسة بين المختطفين .

إختياري لموقع الأحداث كان سهلا ، فلسبب ما فإن بلدة كورينتس عششت بمخيلتي مثل أول حقنة مخدر . وهناك مأثور في تلك المدينة الصغيرة الفخورة والتي تأسست قبل بوينس إيرس عن طريق غزاة الشمال ، يقول ان أي شخص يراها مرة لابد أن يعود إليها . كنت قد رأيتها في سفينتي التي كانت متجهة إلى أسنسيون ووقفت لمدة نصف ساعة فقط في الميناء . كانت الأضواء قليلة وحارس يقف أمام مخزن ، وحديقة عامة صغيرة ، وشيء ما يشبه معبدا تقليديا ، ثم المد البطيء للنهر العظيم ـ هذا كل ما رأيته من المدينة .. وبنيت عليه كل توقعاتي .

حين توقفت في بوينس ايرس متجها شمالا ، واجهتني مشكلة عويصة فروايتي تحتاج لبيت دعارة حيث سيجد القنصل الفخري هناك الفتاة التي سيتزوجها ، وحين سألت أخبروني بأنه لم يعد هناك بيوت دعارة رسمية في الأرجنتين ، بعض البيوت السرية وفي العاصمة فقط . معنى ذلك أن نوع المكان الذي أريده لم يعد له وجود . كان هناك شخص صديق لأحد أصدقائي ، لابد أنه يعرف بوجود مثل هذا المكان من عدمه . من مظهر الرجل . شعرت بثقة أنه متخصص في الأمور الجنسية ، « وقد إستعرت ملامحه لأحدى شخصياتي الثانوية في

الرواية » وجهه بلون القرميد الأحمر كصخور اللترايت . يشبه أرضا اجتثت أشجارها من غابة . وأنفه يغوص في وجهه كجياد الغزو » ذلك هو كل ما شارك فيه في روايتي) أخبرني أنه يوجد بيت دعارة يقع على حدود أورجواي بمسافة تبعد عن مدينة كورنيتس بأربعمائة كيلو متر ومع ذلك تبين أن هذه المشكلة أقل المشاكل صعوبة وسرعان ما حلت . فقد نشأت مشكلة أخطر بكثير في أول صباح لي في كورنيتس (كانت مقاطعة مستقلة بحامية عسكرية خاصة وقانون خاص بها) . كنت مستلقيا على السرير أتصفح الجريدة المحلية « التيورال » ، وفي صفحة الأنباء الرئيسية قرأت ما يشبه تقريبا القصة التي أتيت لهذا البلد لأكتبها . فقد اختطف قنصل بارجواي من مدينة قرب كورينتس خطأ على أنه سفير بارجواي ، وطلب المختطفون إطلاق سراح عدد من السجناء السياسيين ، وسلم الطلب إلى الجنرال ستروسنر الذي كان في إجازة لصيد السمك في جنوب الأرجنتين .

جلست افكر طول النهار كم كانت رحلتي بلا طائل ، كيف يمكن أن أستمر في التخطيط لرواية لصيقة بهذه الدرجة للواقع ، وما هي فائدة بقائي في كورنيتس ؟ بعد أيام قليلة أجاب الجنرال على مطلب المختطفين بقوله أن بإمكانهم أن يفعلوا ما شاءوا بالرجل الذي اختطفوه فهو غير مهتم إلا بصيد السمك ، ومن ثم أطلق سراح القنصل ونسي الموضوع ، شجعني ذلك على المضي في قصتي ، لقد كنت على حق في اختيار باراجوي لعملية اختطاف غير دقيقة .

أمضيت أسبوعين سعيدين وطريفين في كورينتس . ولم يستطع أصدقائي فهم اهتمامي بمدينة رأيتها ذات ليلة ، للحظات من على ظهر سفينة ، وقالوا أن الوقت غير مناسب للسفر إليها ، فمازال جوها حارا ورطبا ، وليس فيها ما يثير الاهتمام ، وأكدوا لي أنه لم يسبق أن وقع فيها حدث يلفت النظر . وتذكرت بطرافة ما قالوه بعد أيام .

ففي اليوم الثاني لي هناك ، طرد رئيس الأساقفة قسيسا كان يعمل في منطقة الفقراء من كنيسته ، وأقيم القداس ذلك الأحد على يد قسيس غريب في كنيسة خالية من الناس . بينما جموع المصلين يقفون خارج الكنيسة يحملون رايات كتب عليها : « أعيدوا لنا قسيسنا » ، في اليوم التالي وضع حاكم المقاطعة رئيس الأساقفة تحت الاعتقال المنزلي ، على

كل حال هناك شيء ما يحدث في كورينتس .

تلقيت دعوة في اليوم الرابع لإقامتي . من مدير المطار يدعوني للخروج للنزهة معه ، بدأنا السير في الحقول القريبة من المطار ، أراد أن يريني المكان الذي توضع فيه أطواف الخشب في النهر لتسير جنوبا في رحلة طولها ٢٠٠٠ كم . قال لي : « حين أصل المطار كل يوم أسأل المدير العام هل حدثت سرقات ، هل حدثت جرائم ؟ هذا الصباح قال لي : لا سرقات ولكن هناك جريمة واحدة » .

في طرف الحقل . أمامنا . كان رجلان من البوليس يحرسان ما يشبه طردا بني اللون ، كانت قطعة من الورق البني قد فردت فوق الجثة التي تبرز قدماها من أحد الطرفين ، أردت أن أصور المشهد الغريب ، ولكن الشرطي بحماسته رفع الورقة البنية وتركني أمام جثة لا تثير الإهتمام .

سرنا في ممر عبر الأشجار إلى الماء ، كان هناك خط من الدماء لم تجففه الشمس بعد .

قال المدير : جئت إلى هنا في الصباح وقابلت القاتل قلت له لقد كان القتيل صديقك فلماذا فعلت ذلك ؟ فأجاب :

كان أقوى مني ولكني كنت أحمل سكينا .

قلت للمدير : ألم تخف ؟ فأنت غير مسلح .

إبتسم : لا . لا . هؤلاء ناسي .. وقلت للقاتل يجب أن يعود إلى المطار لأبلغ البوليس .. واختفى في الغابة .

بقيت الحادثة في ذهني ، قاصدا أن أجد لها مكانا في روايتي . وتحدثت عنها أخيرا مع صديقي ماريوسولداتي ، الذي نصحني قائلا « لا يجب عليك أبدا حين تكتب رواية أن تصف شيئا حدث لك دون أن تغيره بشكل ما » .

وضعت كلمات المدير « هؤلاء ناسي » على لسان كولونيل بيرز رئيس الشرطة في رواية القنصل الفخري ، ووضعت الجثة على أحد الأطواف في الماء ، حيث الجذوع تغطى قليلا وتنتقل عند كل خطوة .

لقد بالغ أصدقائي بالتأكيد في حديثهم عن ضحالة كورنيتس ، ففي الأسبوع الأول لوجودي هناك كان الاختطاف المجهض ، وطرد القسيس ، والجريمة قرب المطار ، وبعد أيام اكتشاف قنبلة صغيرة في الكاتدرائية ، وفي اليوم الذي غادرت فيه لاحظت حشدا من الناس

يتجمهر على الرصيف ، سألت السائق عما حدث ، قال : إنهم ينتظرون الضفادع البشرية ؟ فقبل عشر دقائق إنتحرت عائلة بأكملها ، فقد إصطحب رب الأسرة زوجته وأطفاله فى سيارته التى أغلقها تماما وإندفع إلى الماء متخطيا الحاجز فى أعمق نقطة فى النهر .

كانت القنصل الفخرى أصعب رواية أتعب فى كتابتها . ومن تجربتى أعرف أنه بعد عدة أشهر من العمل فى رواية يشعر المؤلف عادة أن روايته تسير بالدفع الذاتى ، مثل إقلاع الطائرة تسير بسرعة متزايدة على المدرج ثم ترتفع ببطء وتشعر بأن العجلات لم تعد تلمس الأرض . ولكن فى القنصل الفخرى لم أشعر إلا فى الفصل الأخير أن أصبحت فى الجو ، والآن حين أقرأ الكتاب ثانية يأتينى إنطباع أنى كنت أنعس وأنا وراء جهاز القيادة . فالطائرة كانت فى الجو منذ الصفحة الأولى حين وقف د. بلر فى الليل داخل الميناء الصغير وسط الحواجز والروافع الصفراء ، كما لاحظته منذ سنوات حين حدقت فى الظلام للمشهد نفسه وأنا على ظهر المركب المتجهة إلى أسنسيون ، والمسافرون الذين عرفتهم كمهربين يقولون لى بابتسامة شك ، أن الناس هنا يقولون دائما من رأى كورنيتس مرة فسيعود إليها .

* * *

٤

من ١٩٢٩ وحتى ١٩٧٨ حياة طويلة من العمل ، وقبل أن أفكر بالراحة أو إحالة نفسى على المعاش ، كان هناك عهد قطعته على نفسى . كان طموحى بعد الحرب أن أكتب رواية عن التجسس خالية من العنف التقليدى ، الذى لم يكن ـ رغم جيمس بوند ـ ملمحا من ملامح المخابرات البريطانية . أردت أن أقدم المخابرات كطريقة حياة ، دون رومانسية . رجال يذهبون الى مكاتبهم لينالوا معاشا تقاعديا فى النهاية ، خلفيتهم تشبه خلفية أى وظيفة أخرى ، سواء موظف بنك أو مدير أعمال . عمل روتينى غير خطر ، وفى داخل كل شخصية حياتها الخاصة الأكثر أهمية . السنوات التى أمضيتها فى العمل مع المخابرات فى إفريقيا أولا ثم فى لندن ، واجهنى خلالها قليل من الميلودراما والإثارة .

كانت هناك بعض الصراعات الشخصية تحت ظلال الصراع الأكبر ، مثلا حين كنت فى سيراليون وقطع عنى رئيسى ، الذى يبعد ألف ميل عنى

فى لاجوس ، مخصصاتى لبعض الوقت ، أو حين شاهدت أسفا مفوض الشرطة فى فريتاون ، الذى عاش عشرين سنة حياة صعبة . يسبب له جرو غر من فرع م ١٥ إنهيارا عصبيا .

حين عدت إلى لندن . كانت المسألة مسألة ملفات وملفات ؟ ملفات لا تنتهى . كنت مسئولا فى لندن كما أوضحت سابقا عن التجسس المضاد فى البرتغال تحت أمرة كيم فيلبيى الذى تخلى عن منصبه سنة ١٩٦٣ وفر إلى الاتحاد السوفيتى ، كان يلقب بسخرية بالرجل الثالث ، لا ميلودراما ولا عنف يزعجنا ، ضجر وكسل سببته الحياة المغلقة التى نحياها ، حيث أن طبيعة وظائفنا تضطرنا ، فى فرعنا الصغير المكون من خمسة أشخاص ، أن نعيش متقاربين ، لا لقاءات إلا نادرا مع غرباء من خارج الإدارة ، والذين يرغبون فى معرفة ما نفعله فى هذا المكان المسمى بفرع المكتب الخارجى . الأثر الوحيد الذى خلفته ورائى بعد أن استقلت كان ١٢ نسخة من تقرير جمعته بنفسى بعنوان « من هو ؟ » عن العملاء الألمان فى جزر الأزور ، مع مقدمتين عن أسس الإدارة والزراعة فى الجزر ، وتقرير أسهم فيه فيلبيى عن الإتصالات لاستخدام قواتنا عند الغزو . أمازالت النسخة موجودة فى مكان ما فى الملفات ؟

لقد تغيرت المخابرات بالطبع كثيرا عن تلك الأيام ، وهكذا فى روايتى « العامل الإنسانى » أقمت تصورى على مادة غير محددة بتاريخ . بدأت الرواية قبل عشر سنوات فى نشرها ، بعد عمل لمدة سنتين أو ثلاث تخليت عنها بيأس ، إعتقدت إنها ستلحق بغيرها من الروايات غير الكاملة الملقاة فى أدراج مكتبى (ثلاث روايات غير كاملة ترقد هناك حتى هذه الأيام) ، تركتها خصيصا بسبب قضية فيلبيى ، رغم أن العميل المزدوج فى روايتى موريس كاسل لا يحمل شبها بفيلبيى لا فى الشخصية ولا فى الدافع ، كما أنه لا يشبه أى شخص عرفته ، لكنى كرهت أن تعتبر الرواية مفتاحا لما حدث .

أعرف جيدا من التجربة أنه يمكننى خلق شخصية ثانوية وعابرة مستوحاة من شخص حقيقى ، فالشخص الحقيقى يقف عقبة فى طريق الخيال ، من الممكن أن آخذ منه لازمة معينة فى الكلام ، سمة بدنية ، لكنى لا أستطيع أن أكتب إلا صفات قليلة قبل أن أدرك أنى لا أعرف ما يكفى عن الشخصية لاستخدامها ـ حتى لو كان صديقا قديما ، لكن

من الشخصية الخيالية فأنا متأكد أكثر ، فأنا أعرف مثلا أن د. بيرسينال ق العامل الإنساني يعجب برسومات بن نكلسون ، وأعرف أن كولونيل ونيترى سيفتح علبة سردين بعد عودته من جنازة زميله .

ومرت السنوات ، كتبت خلالها القنصل الفخرى ـ إنها الرواية المفضلة لدى ـ وكانت أمامي سنوات من الفراغ ، وكانت رواية « العامل الإنسانى » والتى كانت حتى ذلك الحين دون عنوان ، كانت تتعلق برقبتى كطائر بحرى ميت ، وكان خيالى يبدو ميتا كالطائر ، ومع ذلك كان هناك بعض الأشياء الجيدة ق الـ ٢٠ ألف كلمة التى كتبتها ق الرواية ، خاصة مشهد حفلة الصيد ق البيت الريفى للكولونيل . وكانت ذكرى الرواية تنق علىّ حتى أنى لم أستطع أن أستقر ق عمل آخر . _

وهكذا على كره وبكثير من الشك أخرجت الرواية ثانية ، قائلا لنفسى : ان قضية فيلبيى تنتمى الآن الى الماضي . كذلك كان نفاق حكومتنا ق علاقتها مع جنوب إفريقيا ينق علىّ أن أتناوله ، فمن الواضح أن كم المعارضة التى تتظاهر به دول الغرب لسياسة التمييز العنصرى ، وأحاديث قادتنا الكثيرة عن لا أخلاقيته ، ألا أنهم ببساطة لن يسمحوا أن تخضع جنوب إفريقيا للقوة السوداء والشيوعية ، ولو لم توجد عملية العم ريموس ، لا بتدعوها منذ زمن ، إنها نبوءة أكثر منها اختراعا .

كتبت الرواية أخيرا ، وتحررت من الكابوس ، وترددت ق نشرها ، وفكرت لفترة طويلة أن أتركها ق الدرج لأولادى كى ينشروها بعد وفاتى ، لم أقتنع قط بكمال رواية كتبتها ، ولكنى كنت غير مقتنع بهذه الرواية بشكل أكثر من المعتاد . لقد خنت الهدف الذى خططت له ، فقد كان ق الرواية عنف (موت ديفيز) ، و د. بيرسفال لم يكن شخصية نموذجية لرجال المخابرات ، لم تكن صورته واقعية بالدرجة التى كنت أنشدها ، وأنقذ الرواية عنوانها ، « العامل الإنسانى » ، وربما نجحت كقصة حب ، حب رجل عجوز متزوج .

أرسلت نسخة من الرواية إلى صديقى كيم فيلبيى ق موسكو ، وأثار ردّه اهتمامى ، كان نقده صحيحا ـ قال : لقد جعلت ظروف كاسل ق موسكو كئيبة جدا . فهو نفسه قد وجد كل شيء حتى « لبيسة » الأحذية قدمت له (وأضاف أيضا أنه كان عميلا أهم بكثير من كاسل ق روايتى) ، وعلق مصيبا بأن د. بيرسفال لابد أن يجند من المخابرات

الأمريكية ، فالشخصية التي عرفها كلانا لم تكن تستطيع أن تسمم عمدا أحد الأشخاص ، (حاول هذا الطبيب منعي من الذهاب إلى إفريقيا الغربية بتشخيص أني مريض بالسكر ، الفحص المتخصص أثبت أن هناك نقصا قليلا في مستوى السكر) .

صديقة أخرى من موسكو ـ البروفيسورة فالنتينا إيفاشيفا ـ أشارت إلى ان أيام موقد التدفئة في موسكو قد انتهت فهناك تدفئة مركزية في كل مكان ، وهكذا في طبعة تالية للرواية استبدلت « موقد التدفئة » بشبكة أنابيب التدفئة المركزية . اعترض فيليبي على وصف لأثاث شقة كاسل ، لكني لم أغيّره وأبلغت فيليبي أنّي اعتمدت في هذا الوصف على كتابْ زوجته اليانور « الجاسوس الذى أحببت » .

بعد عشرين سنة تقريبا من افتراضي أن أيامي في عالم الكتابة قد انتهت ، أعود الآن فأفترض الشيء نفسه ، لكن خيال الكاتب مثل جسم الإنسان يحارب ضد كل أسباب الموت .

وهكذا وأنا أتناول غدائي في يوم عيد الميلاد سنة ١٩٧٨ مع ابنتي وأحفادي في سويسرا ، بعد نشر رواية العامل الإنساني بتسعة أشهر ، طرأت على ذهني وبدون إنذار مسبق فكرة رواية جديدة (د . فيشر في جنيف سنة ١٩٨٠) ، وأنا في سن الخامسة والسبعين مازلت لا يمكنني التنبؤ بمستقبلي ، بالضبط كما جلست يوما على مكتب أمي في بيتنا في بيركها مستيد وبدأت اكتب روايتي الأولى « وصل إلى قمة التل مع آخر ضوء للنهار ... إلخ » .

خاتمة

الآخــــر

لم أقصد أن يكون هذا الكتاب صورة شخصية لي ، فإني أترك رسم مثل هذه الصورة إلى أصدقائي وأعدائي . وعلى كل حال فإني أجد نفسي فعلا ولسنوات طويلة أبحث عن شخص ما يسمي نفسه جراهام جرين .

حين اشتريت مجلد القصائد الكاملة لإدوارد توماس منذ أكثر من خمسين عاما ، أسرتني قصيدة واحدة بعنوان « الآخر » ، لا أدري لماذا فهي لم تكن واحدة من قصائده المميزة . والقصيدة تتحدث عن مسافر يعثر خلال سفره الطويل وإقامته في هذا الفندق وذاك ، على آثار شخص

يشبهه تمام الشبه وقد سبقه على الطريق نفسه الذى يسير فيه ، وتنتهى القصيدة :

هو يمضى : وأنا أتبعه ، لن أعتقه
حتى يستسلم ، وأنذاك أستسلم أنا

بعد ربع قرن من قراءتى القصيدة لأول مرة ، وقعت بنفسى على آثار ذلك الآخر الذى يشبهنى . خطابات من غرباء يتذكروننى فى حفل زفاف لم أحضره ، أو فى قداس لم أذهب إليه ، واتصلت بى ذات يوم إمرأة من روما ، حتى نشرت صحف فى جنيف وجامايكا صورا لهذا الآخر على أنه أنا . الآخر يسمى نفسه أيضا جراهام جرين ، ومن المؤكد أن اسمه جراهام جرين ، فليس هناك حقوق لعدم استخدام الإسم ، ومع ذلك فهناك أسباب تجعلنى أفترض من إحدى جولاته العلنية أنه جون سكستر ، شخص سيىء السمعة وهارب من السجن ، أو حسب رأى البوليس الهندى هو شخص يحمل إسم ميرديث دى فارج ، ربما يكون هو الشخصيتين معا ، فالصورتان اللتان امتلكهما له والمفترض أنهما لى غير واضحتين .

الذى لفت انتباهى إلى وجود هذا الآخر حادثة ابتزاز بسيطة ، فقد اتصل بى هاتفيا بعد ظهر أحد الأيام فى لندن صديقى إليكس كوردا ، سألنى : هل وقعت فى مشاكل ؟

قلت : أية مشاكل ؟

قال : محرر أحدى المجلات السينمائية فى باريس إتصل بى وكان مستاء جدا لأنه اكتشف أن أحد مستخدميه يحاول ان يبتزك .

ـ لكنى لم أكن فى باريس ولم أتعرض لمحاولة ابتزاز .

وأذكر حديثا دار بينى وبين وكيلتى الادبية حين كنت فى باريس بعد ذلك ، إذ قالت :

ـ إذا حاول أحد إبتزازك لا تدفع له .. وأخبرنى ..

ـ ولماذا يبتزنى شخص ما ؟

ـ حديث عن صور مع نساء .. لا أعرف .. هناك قصة شائعة هنا ..

فى سنة ١٩٥٥ و ١٩٥٦ كان الآخر نشطا جدا ، أحداث متفرقة من نشاطه تجمعت لتدور حولى ، والغريب أنها من السهل أن تكون من ماضى الخاص . محرر جريدة موندانيت كتب إلىّ يذكرنى بلقائنا فى مهرجان كان

السينمائى (الذى لم أحضره قط) ويمدح موهبتى فى لعبة التنس التى لم ألعبها منذ كنت تلميذا فى المدرسة ، وإمرأة كتبت لى من مونتفديو تقول: « إصطحبتني مرة لتناول القهوة فى حانوت بلجيكى لبيع الحلوى فى ركن من شارع اكسفورد ، (أمازال موجودا ؟) وقدمتنى إلى فتاة من الشمال كنت غارقا فى حبها . هل تزوجتها ؟ ثم حضرت حفل زفاف وغادرت بعدها إلى أمريكا الجنوبية » .

بالتأكيد أن لهذا الآخر تأثيرا قويا على النساء ويترك لديهن انطباعا قويا ، فقد اتصلت بى إمرأة فى فندق جراند هوتيل فى روما (كنت قد ذهبت إلى السرير مبكرا بعد طيران طويل من كلكتا) .

قالت : هالو يا جراهام .. فيرونيكا تتكلم ..

ـ كيف حالك ؟ (وتساءلت فى نفسى من تكون هذه بحق الجحيم) .

ـ إتصلت بفندق جورج الخامس بباريس وقالوا إنك غادرت إلى روما .. أعرف إنك دائما تنزل فى الجرائد .

ـ لقد وصلت لتوى ..

وسألتها : ماذا تفعلين ·· لأطيل الحوار علنى اجد مفتاحا لهذا اللغز .. لقد نسيت الآخر وظننت أنه من المحتمل أن أكون قد عرفت واحدة باسم فيرونيكا .

قالت : استلقى على السرير اقرأ الأوديسا فى ترجمة جريدة صادرة عن البنجوين .

ـ وأنا فى السرير أيضا .. ما رايك فى تناول الشراب غدا؟

واضفت بحذر : انا اسف لانى مرتبط فى مواعيد الطعام .

فى المساء التالى ذهبت مع صديق وإنتظرت فى البار ، وافق أن يتحدث معها إذا تبين أنى لم أكن أعرفها وليست جذابة ، ودخلت البار إمرأة فى الاربعينات ترتدى ملابس سهرة طويلة ، وبوجه طويل كوجه حصان أصيل ، تركتها لصديقى ليتعامل معها ، أخبرنى بعد ذلك انها أمريكية وقد قابلت جراهام جرين فى الجزيرة العربية .

أعتقد أنه فى ذلك الصيف أيضا . إحتل الآخر عناوين الصحف . كنت قد رجعت إلى لندن بعد زيارة لبرايتون إستغرقت عدة أيام ، فوجدت استفسارا من مجلة « يكتشربوست » بأنهم تسلموا برقية موقعة باسم جراهام جرين من مقاطعة أسام فى الهند يطلب إرسال مبلغ مائة جنيه

لأنه فقد جواز سفره وفى حالة سوء تفاهم مع الشرطة . وأرسل المحرر شخصا إلى شقتي فى «الباني» ليسأل إذا كنت حقا فى الهند ، واجابه البواب بحذر بأنه لم يرني منذ عدة أيام فربما أكون هناك ، وأرسلت المجلة مائة جنيه برقيا إلى الهند . ثم بدأت الأنباء تنفجر ووصلت قصص الصحافة الهندية : إدانة جراهام جرين ، الحكم عليه بالسجن سنتين مع الشغل .

وقد رأيت خطابا وحيدا أصيلا بخط هذا الآخر ، ربما كتبه ليقنع البوليس لا ليقنع المجلة ، قال فيه إنه كان فى رحلة لمجلة « بكتشر بوست » ، وانه فقد جواز سفره عند نقل متاعه . ولذا اعتبروه بلا هوية وصنفوه كعميل لدولة أجنبية وقدموه إلى المحاكمة.. إلخ .

إقترحت على المجلة إن ترسلني لأقابل هذا الآخر فى سجن ولاية آسام ، منعني من الذهاب الرياح الموسمية ومحادثة على التليفون مع مسئول فى رئاسة الشرطة فى لندن ، الذي حذرني من السفر دون أن أعلمه مقدما وإلا فقد اتعرض للاعتقال عند وصولى حيث أن الآخر قد فر من كفيله ، وليس ذلك فقط بل وسرق آلة كاتبة وساعة يد وبعض الملابس من بعض مزارعي الشاى .

وكتب لى صديق هندى بتفاصيل أكثر « يبدو أنه يسمي نفسه جراهام جرين ، مرة بوجود حرف العلة الأخيرة ومرة بدونه ، يفترض انه أسترالى المولد (وهذا حدس من لهجته) فهو لا يحمل أوراق هوية ، وكان يتنقل من مقاطعة إلى أخرى يعيش حياة التسكع والتصعلك مدعيا أنه كاتب محترف » .

حين أعتقل ثانية ، إختفى الآخر مدة فى أحد السجون الهندية ، ولكن حتى وهو فى ذلك العسر ، كانت هناك امرأة تدافع عنه رغم إنها لم تره منذ ١٢ سنة .

كتبت لى من بورنموت تطلب مني مساعدته قائلة « إنه رجل شجاع وملتزم بالمبادىء ، ومع أنه فى مكان ممنوع بسبب روحه المغامرة الجوالة فإنني أشعر أن التهمة ضده ليس لها أساس . روح مغامرة فعلا .

أحد رجال الدولة فى كلكتا كتب « بأن المتهم مطلوب فى سلسلة من القضايا فى كلكتا وباتنا ورانشي ولكنو وميروت وبونا وبومباى ودلهى وأماكن أخرى » .

إن هذا كثير بالنسبة لرجل واحد ، من المؤكد أنه كان كلا من جون سكنر وميريديت دى فارج .

ولمدة سنتين لم أسمع شيئا عن الآخر ، ونسيته ، حتى جاء يوم كنت أحجز لرحلة إلى نيويورك فى مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية ، سألتنى الفتاة بدهشة : هل ستمكث فى نيويورك ليلة واحدة فقط ؟

قلت : لا .. لا أعرف كم سأمكث .

ـ لكن لدينا حجز لك من نيويورك إلى لندن فى اليوم التالى . هل المسافر الآخر هو الآخر وقد خرج من السجن . شىء واحد مؤكد . أنه عاد ثانية للظهور فى ديسمبر سنة ١٩٥٩ .

كتبت لى ذلك الشهر وكيلتى الأدبية مارى بيش تخبرنى أن فتاة فرنسية جذابة ذهبت لتقدم طلبا لعمل مع رجل أعمال أمريكى يقيم فى فندق برنس بيجال ، وفشلت فى الحصول على الوظيفة بسبب عدم إتقانها الإختزال ، أثناء خروجها من الفندق إستوقفها رجل أمريكى قال لها إن إسمه بيترز أو ما شابه ، وانه سمع جزءا من حديثها وفهم انها تبحث عن عمل ، وبالمناسبة فإنه يبحث عن سكرتيرة لشريكه وصديقه جراهام جرين القادم إلى باريس لعمل يستغرق شهرين قبل قيامه بجولة لعدة أشهر فى الولايات المتحدة ، وحيث أنه لا يستطيع العمل فى الفنادق فهو يستأجر منزلا هنا أو هناك أثناء جولاته .. فهل تحب أن تشغل الوظيفة ؟

كانت الفتاة تعمل فى مكتبة فى باريس جزئيا ، ووجدت أن العرض جيد . ولتتأكد إتصلت بناشرى فى باريس الذى أوصلها بوكيلتى الأدبية ، كما اتصلت بفندق برنس وعلمت أنه لا ينزل هناك شخص باسم بيترز . إقترحت مارى عليها أن تذهب إلى الموعد وتحاول جر الرجل للحديث عن نفسه وشريكه ، لكن الفتاة لم تذهب لأنها اقتنعت بأن الرجل عضو بارز فى عصابة « الرقيق الأبيض » ، بدا ذلك من حديثه إذ قال لها إنه إذا كانت لها صديقة لطيفة تحب أن تأتى معها لتعمل كمديرة منزل لجراهام جرين فمن الممكن ترتيب ذلك لأنه يبحث عمن يشغل هذه الوظيفة .

كان ذلك آخر تطفل كبير فى حياتى من الآخر ـ البقية كانت أمورا عابرة . مثلا صورة فى صحيفة تصدر فى جامايكا كتبت تحتها : « الروائى الشهير جراهام جرين يشرب مع مسيوز فى نادى جالوين » كان

كل من في الصورة يضحك وكأسه في يده ، كان الآخر بحاجبين كحاجبي بومبيدو ، وسيم بسترته البيضاء ، أما مسيوز فكانت إمرأة جذابة ، وكانت هذه الصورة لا تتفق مع صورة أخرى نشرت في صحيفة « لاتريبون دوجنيف » لمستر ومسز جراهام جرين في مطار كوانترن ، كان الرجل يبدو أكبر مني بكثير آنذاك ، يرتدي ملابس سفر وقبعة من التويد ، بينما المرأة التي لم تلتقطها العدسة جيدا كانت تضع على رأسها قبعة نسوية وعلى عينيها نظارة سوداء .

وكتبت الصحيفة في ١٩٦٧/٧/٧ تحت الصورة « شخص بدين وبغليون بين أسنانه ، إنه الكاتب البريطاني جراهام جرين وقد وصل بعد ظهر أمس إلى كوانترن قادما من باريس حيث يعيش الآن ، مؤلف الرجل الثالث بدأ إجازته في جنيف ، حين سألناه هل يكتب كتابا جديدا أجاب بالنفي وبأنه في إجازة حقيقية » .

هل السيدة التي كانت معه هي كلاودين ، وأن كلاودين هي المرأة الأكثر جاذبية التي كانت تشرب في النادي في جامايكا ؟

سمعت عن كلاودين أول مرة سنة ١٩٧٠ حين وصلت رسالة أرسلت لها كمسز جراهام جرين من شخص في كيب تاون « إتصلت بالنادي أمس وعرفت إنك تزوجت كاتبا معروفا حقا .. أن تكوني زوجة مؤلف فذلك يتفق مع خطك في الحياة .. أنا واثق أنك ستقدمين له مساعدة كبيرة » .

مرت عشرون سنة تقريبا منذ حادثة الإبتزاز في باريس ، بدا أن الآخر قد استقر وهمد .

هو يمضي ، وأتبعه .

لن أعفيه حتى يستسلم .

منذ سنوات في شيلي ، وبعد أن استمتعت بتناول طعام الغداء مع الرئيس الليندي ، خرجت صحيفة يمينية على قرائها بأن شخصا محتالا قد خدع الرئيس .

ارتعشت ، وانتابني شعور ميتافيزيقي ، هل كنت أنا المحتال طوال الوقت ؟ هل كنت الآخر؟ هل كنت سكنر ؟ أو من المحتمل أني كنت ميريديث دي فارج .

إنتهى

هذا الكتاب

جراهام جرين (١٩٠٤ - ١٩٩١) أحد أشهر الروائيين المعاصرين ، كتب حوالى ثلاثين رواية ومجموعة قصصية . وقد عبر فى رواياته عن مأزق الانسان المنهار فى القرن العشرين ، عن الازدواجية فى العقل البشرى ، عن الجاذبية المغرية للشر والخير معا . وعن تعاسة وقسوة الحياة الاجتماعية لانسان المدينة . وقد دفعه مزاجه القلق وتبرمه وضجره الدائم من رتابة الحياة ، للوقوف بجانب ابطاله المضطهدين ، لذا كانت شخصيات روايته تقف على الحافة الخطرة للأشياء ، ومن هنا أتى اهتمامه بالجواسيس والقتلة والخطاة .

وفى هذا الكتاب يحدثنا جراهام جرين عن رحلته مع الرواية منذ أول عمل كتبه « الرجل الذى بداخلى ١٩٢٩ » وحتى الرواية قبل الأخيرة « د . فيشر من جنيف ١٩٨٠ » وهى رحلة تهم كل عاشق للرواية ، قراءة أو كتابة .

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم